

نساء العالم كما رأيتهن

محمد ثابت



نساء العالم كما رأيتهن

تأليف
محمد ثابت



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢١٥٦ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٠.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	مقدمة
٩	الجنس الأبيض القوقازي
١١	في أوروبا
٦٥	في أمريكا الجنوبية
٧٧	في أمريكا الشمالية
٨٩	في أستراليا وجزائر المحيط الهادي
١٠٩	في إفريقيا
١١٧	في آسيا
١٤٩	الجنس الأصفر المغولي
١٥١	اليابان
١٧٥	الصين
١٨٣	الجنس الأسود الزنجي
١٨٥	في أفريقيا

مقدمة

ها أنا ذا أقدم هديتي هذه للجنس اللطيف في مصر، وقد قصصْتُ فيما كتبتُ نبأ زميلاتهن في مختلف بقاع الدنيا. ويقيني أن هذا الحديث سَيُروِّق فتياتنا كثيرًا، وسيُجدن فيه خير عون على تقويم ما اعوجَّ من ناشئتنا؛ فهنَّ لا شك أمهاتُ المستقبل، وعلى جهودهن الصادقة في خدمة الأسرة المصرية والأخذ بيدها يتوقف كثيرٌ من رجائنا في رفع شأن هذا الوطن الذي لا يزال في حاجةٍ قُصوى لمن ينتشله من وهْدته.

وهل أجدرُ بذاك العمل النبيل من عادة اليوم، وأمَّ الغد؟!
سُئِلَ عاهل كبير عن المرأة، فقال: «ليس للمرأة إلا عمل واحد؛ هو الأمومة، وإن الخدمة الوحيدة التي تستطيع أن تؤدِّيها لوطنها أن تُنجبَ ولدًا صالحًا لخدمة بلاده.»
فلتقتبس فتياتنا من فضليات كل شعب ما يُزيِّنُها، ولتجنَّب ما يعيبها، فنحن أحوج ما نكون إلى البيت الصالح والأم الرَّءوم، وبذلك يتحقق التعاون بين البيت والمدرسة، فتؤتي التربية أكلها الصحيح وثمرها الجني.
والله أسأل أن يوفقنا وإياهن سبيلًا رشَدًا.

الجنس الأبيض القوقازي

في أوروبا

فرنسا

أدّى بنا المطاف إلى باريس، سيدة العالم في التأنق والتبرُّج والزينة، فكُنّا نرى النساء وقد خلّعن العِذارَ وأسرفن في المجون، وتغالين في طلاء الوجوه بشكلٍ مُبتذل، والفتيان ولا عمل لهن سوى تعهدهم هِنْدَامَهُم بالمحسّنات، ووجوههم وشعورهم وأظافرهم بمختلِف وسائل التجميل، وكأنما خلّقوا للمغازلة. والحق أن نظام الحياة في باريس أبعد ما يدل على الفرنسي الصميم؛ لأنها مزيّجٌ من مُترَفِي العالم أجمع، حتى قيل إن الأجانب هناك باريسيّون أكثر من الفرنسيّين أنفُسِهِم، وتدهش إذ تعلم أن نسبة الجمال في باريس صغيرة جدًّا، فإذا ما جلست إلى أحد المقاهي ألفت من جماهير النساء عددًا يفوق الرجال، ولو أنك أحصيت نسبة الجميلات منهن كما فعلتُ أنا مرارًا، لما ألفتها تزيد على ٥٪، حتى إنني أيقنتُ أن سُمعة باريس في هذا المضمار جوفاء لا تقوم على الحقيقة. ولعلّ الذي خدع العالم أجمع في هذه: ما نراه بينهم من الإسراف في الأناقة، والتكلّف في آيات التجميل، فنساء فرنسا بحق قادة العالم في فن الجمال، أما في جمال الوجوه فهنّ في مؤخرة نساء أوروبا، وإن طلاب الجمال ليخيب رجاؤهم إذا ما قصدوا باريس، لكن الراغب في الأناقة ووسائل التجميل لا سبيل له إلا هناك، فقلّما تجد الجمال طبيعيًّا، بل إنه مُصطنع. والباريسيّة تحرص على أن تكون وجيّهةً (شيك) عن أن تبدو جميلة، ديدنها التمشّي «مع الموضة» في كل حركاتها وسكناتها، وهي تُنفق ثلث إيراداتها على الظهور بالمظهر اللائق بتلك الأناقة، ولا يعترض الزوج على ذلك، بل يُحبّذه، ويرغب الفرد منهم في أن يتسابق الرجال جريًّا وراء زوجته أو غادته عن أن تجري المرأة وراء كرة القدم أو التنس، كما تفعل الإنجليزية

مثلاً. ولعلَّ أخص ما تمتاز به الباريسيَّة قدرتها على مُجاراة الوسط حولها، وجرأتها في ابتكار «الموضات»، والظهور بها فجأة أمام الملاء، غيرَ هيَّابة لنقدٍ أو تجريح.



تُشرف هذه الفرنسيَّة من علٍ وقد تحرَّرت من كل قيد.

ويَهْولك ما ترى إذا دخلت إحدى دور التجميل في باريس، حيث ينتظر الزوجُ زوجته العجوز التي دخلت ليعيد لها هذا المكانُ بعض علامات الشباب، فيتسلَّمها أخصائيُّون؛ هذا دهن ذقنها ودلكها، وأرعى عليها حجاباً تخرج من تحته مَلَسَاء جميلة، وذاك تولَّى تجاعيدها بحَقْن الجلد وكيِّه بالمساحيق المختلفة، وآخرُ تعهَّد عيونها وأهدابها بالكي والتلوين، ثم يعالج الشعر بالحرارة والزيت والحناء والكهربا، فيخرج الرجل وقد أعاد لزوجته شبابها ونضارة وجهها. وأدهشُ من هذا تعهَّد الجسم كلِّه بالتدليك والفُرش والوكز، ولفَّ الجسم بطبقة من الشمع ساعات. وبعض النساء يغتسلن في حوضٍ من اللبن أو النبيذ أو الطين الساخن؛ لأن ذلك يُعيد للجسم نضارته، هذا عدا ما يَستخدمن من أدِهة ومساحيق تُظهر الوجوه على غير حقيقتها. فهلَّا أقلع أولئكُ عن ذاك العناء واستبدلن به العناية الحقَّة بالصحة وسلامة الأجسام ونضارة الوجوه؟!

ولكن نرجع فنقول: ألم يَفْتَح ذلك الميدان باباً ترتزق منه فئةٌ كبيرة من الصُّناع والفنانين (الآرتيست)؟ وهلَّا ساعد ذلك على الرغبة في الزواج والإبقاء على الزوجات اللاتي



باريسية تُعنى بلبس جواهرها وتزهر بتلك القلنسوة العجيبة.

أدوى الزمنُ نضارتهم، ثم أرجعَتْها تلك الأفانين، فاستمرَّ الزوج على إخلاصه القديم لجمال زوجته؟

فباريس بلد المجون والاستهتار، فالمقاهي والمقاصف لا تغيب عن العين، وقد غصَّت بالكسالى يقتلون الوقت، مُسرفين في شرب الخمر، ويرقبون الغانيات يتبخترن ذهابًا ورجعةً في مظهرٍ إباحيٍّ غريب. والعجيب أن تلك المقاهي قد لا تُغلق أبوابها ليلاً ولا نهارًا، ولا تخلو من روادها أبدًا، وغالب القوم لا ينامون إلا بعد الفجر، ولا يستيقظون ليُزاولوا أعمالهم إلا في ساعة متأخرة من النهار؛ ولهذا كُنَّا نراهم وقد علَّت وجوههم كدرةً وهم عابسون، لا يكادون يفتحون عيونهم، ولم نعجب للهزال الذي بدا على جسومهم والشحوب في ألوانهم؛ فالجيل الفرنسي الجديد فاسد الصحة ضئيل الجسم ضعيف الخلال. وحتى الأطفال كُنَّا نراهم في صحبة آبائهم وأمهاتهم إلى ساعات متأخرة من الليل، وهم يشاهدون بني جلدتهم من نساء وفتيات وقد غالين في السكر والسهر والتدخين والخلاعة، فيألفون ذلك المجون منذ نعومة أظفارهم. وهل ترى فتى يسير في غير صحبة غانية؟ أو فتاة لا يُخاصرها شابٌ على قارعة الطريق يتبادلان الاحتضان والقبلات أمام الملأ وعلى رءوس الأشهاد، وتحت إشراف رجال البوليس وحُرَّاس الأخلاق؟!

وأشنع من ذلك وأدهى تلك الدور التي تُعرَض فيها صنوف المجون وجماهير العاريات، يأتين أمام المتفرجين ما تستنكره الأخلاق، وتمجُّ منه النفوس الطاهرة، وذاك التبذُّل يُبيحه القانون، لا بل ويحرسه ويشجعه، فهل هناك أخطر على أخلاق أبنائنا من ذلك؟ وبخاصَّة الطلبة الناشئين الذين رأيتهم وقد انغمسوا في تلك المنكرات، ومنهم من كان يُباهي بالتبذُّل في القول والفعل، ويقول بأنه عاد إلى بلاده في مصر ضاقت الدنيا في وجهه، وتحرَّق شوقًا للعودة إلى تلك الحياة الفرنسية الماجنة. ولعُمري هل يعرف آباؤهم عنهم شيئًا من ذلك، أم يخالونهم مُنكبِّين على الدرس ويوافونهم بما يطلبون من مالٍ ومتاع؟ وفي يقيني أن باريس لا تُلائم أبنائنا؛ فخطرنا على أخلاقهم كبير، يجدر بنا تلافيه إِمَّا بتشديد رقابة أولي الأمر، أو بمنع البعوث إليها بتاتًا.



لصق قطع من الفواكه على الوجه بعد أن تفتحت مسامُّه بالحمام الساخن لتجميله وتمهيد تجاعيده.

وإن أنسَ لا أنسى موقفِي المضطرب أنا ورفيقيَّ المصريَّان كلما تلقَّتنا عادة النزل بابتسامتها التهكُّميَّة وهي تقول لكلِّ منَّا: ألا تزال وحيدًا؟ Encore seul؟ وهلَّا سمعت الأغنية التي تقول: Chaqu'un avec chaqu'une كل شاب يُعانق غادته، فنرد ابتسامتها وننصرف إلى عُرفنا لننام من الساعة العاشرة مساءً، وهذا في عُرفهن غيرُ مألوف، لا بل

ودليل التأخر وقلة التهذيب؛ إذ كيف ينام الشاب وحيدًا إلا إذا كان منفّر المزاج همجي الطبع؟

وبقدر ما ترى التأنق والخلاعة في نساء الطبقة الراقية في باريس، تجد البساطة والحشمة بين الطبقات الفقيرة، وبخاصة في الريف، وحتى الألوان لا ترى منها غير الأسود والأبيض والأشهب، ولا تلبس المرأة الحرير إلا يوم الأحد. ويُعزى هذا التبسُّط إلى أن الفرنسية لا تزال حريصة على تقاليد دينها، لا تغفل مرة عن الكنيسة يوم الأحد، ولا ترى من الحلي عندها سوى صليب صغير من ذهب أو فضة، يتدلَّى من سلسلة حول جيدها، إلى جانب ذلك فإن الفرنسية مقتصدة إلى حدٍّ كبير، ذاك الاقتصاد الذي دفعَتْها إليه الزراعة في قطع الأرض الصغيرة التي تملكها كلُّ عائلة، والتي تتطلَّب القصد في النفقات إلى أقصى حدٍّ؛ كي تُدرَّ عليهن ربحًا، حتى جرى المثلُّ «بأن الفرنسية تستطيع أن تُعدَّ طعامًا من العدم». والمبدأ نفسه ينطبق على الملابس، خصوصًا وأن فرنسا عُرِفَتْ بالهبة الفنية والذوق الجميل الذي شُهر به الرجال والنساء على السواء، وهذا هو الذي ساعدها على أن تُعد ثوبًا جميلًا من قماش لا يروقك منظره قبل أن تُعالِجه يداها.



تدليك الأجسام بالفرش ينشط الأعصاب والأوعية الدموية والغدد، وله أثر فعّال في تجميل الجلد وتحسين الصحة.

ولمَّا كان ثلاثة أرباع الشعب الفرنسي من طبقة المزارعين؛ لم يؤمُّوا المدن بكثرة، ولقد كان لامتلاكهم للأراضي، وتوريثهم إيَّها لبنيهم واعتمادهم عليها أثرٌ في توثيق عُرى

الروابط العائلية واستقرارها في القرى، وقلل من الفوارق الكبيرة في الثروة؛ لذلك يقل الفقراء المعوزون، كما يندُر الممولون المفرطون في الغنى. ولقد أثّرت تلك الروابط العائلية في مشاعرهم، فكان الفرنسي معروفًا بشدة حنوّه وعطفه ودقيق إحساسه، على أنه حطّ من قيمة المرأة قليلًا، حتى إن الزواج في الريف كثيرًا ما يتم باتفاق الآباء أنفُسهم، دون أخذ رأي الزوجين. والمرأة الفرنسية تُعتبر الزواج أمرًا مُكمّلًا لها والغاية التي ترمي إليها كل فتاة، ومن ثمّ وجّهت العناية إلى الرشاقة والتجميل أكثر منها إلى التبحّر في التعلم والتهديب.



حمام من الطين لتنشيط الدم وتقوية الجلد.

ويُشيع الكثيرُ خطأً أن الشعب الفرنسي مطبوع على الفن، مع أن ذلك لا يتحقّق إلا في أهل باريس فقط، كما أن الشعب الفرنسي دون الإنجليزي والألماني في الهبات العقلية التي تنمُّ عن نضوج في التفكير. حقًا إن العقل الفرنسي سريع الإنتاج في الأمور البسيطة، أما فيما يتطلب حِدّة في الذهن وعمقًا في التفكير فلا قبّل له به؛ فإن وحدة الناظر وعدم تنوّع الأعمال في الريف كلاهما لا يوحى بنشاط فكري عظيم.

فالباريسية من سلالة هي خليط من جهات عدة، وهي ليست سيّدة بيتها بالمعنى الصحيح؛ فهي تتناول أغلب وجبات الطعام في المطاعم مع زوجها، وتحرص على أن تكون قائمة الطعام هناك فاخرة، وبعد الفراغ من الطعام تقصد بعض الملاهي، لا لتتسلّى، بقدر



الوجه المشرقة لأهل شمبانيا المشمسة.

ما تعرض أزياءها وزينتها على المتفرجين، وعند الأصيل تسوق عربتها مُحترقة غابة بولونيا تيهًا وتفاحًا. أما نساء الريف فبعيدات عن التكلّف، يُرمون مع أزواجهن بالشُّح والبخل إلى حد الإسفاف، ويبدو لك ذلك في مُساوماتها التّجارية وفي قبضة يديها الحديدية على الفرنك. لكن هذا البخل هو الذي جعل فرنسا من أغنى بلاد العالم. وتعجب إذ تعلم أن الفرنسية تصنع في بيتها ما تحتاج إليه من مربى وخبز وخل وعطر، وتحرص على أعشاب حديقته لتُعد منها وقودًا يابسًا. كذلك النبيذ والخمر، وأحيانًا تنسج حاجتها من الكتّان بيدها، حتى شُهرت بأنها أكثر ربّات البيوت كدًا ونصَبًا. وكثيرًا ما تقتصر في الأكل على منتجات حديقته من خُضر وفاكهة؛ فهي بُستانيّة ماهرة. أما اللحم فلا تشتريه إلا نادرًا. ورغم الزواج المبكر فإنك لا تجد من العائلات من كدّهم الجوع أو أضناهم الفقر بفضل ذاك الاقتصاد العجيب.

سرنا إلى شواطئ الرفييرا، وأهلها خليطٌ من الإيطاليين والفرنسيين، بدت جنة حقّة، يضمها خليج صغير غصّت منحدراته بالأبنية الفخمة ومن خلفها جبلٌ شاهق، وأجمل بلادها مُنت كارلو التي يلفت النظر بها نظافتها التامة وسكونها الجميل، فهي مدينة تبدو عليها علائم الأرستقراطية في مبانيها وشعبها ونُزلاتها، ويحق لها أن تُسمّى عروس المتنزهات، وهي ضاحية لمانكو، تلك الإمارة المستقلة عن فرنسا، ولها حدودها وأنظمتها

الخاصة، وبالمدينة عدد لا يُحصى من الفنادق الكبيرة يَوْمُها سَرَاةُ العالم؛ طلبًا للنزهة والاستمتاع، ويغلب أن يصحب ذلك لعبُ الميسر واتخاذ الخليلات؛ فهي عاصمة الدنيا في هذا المضمار. وقد زرنا كازينو مونت كارلو ذائع الصيت الذي لا يَوْمُه إلا غنيٌّ مفرط أو ذو جاه كبير، يجلس على مناضد الميسر، ويُقامر بآلاف الجنيهات، وتلك مناضد عظيمة الامتداد، ترى القوم مُنكبِّين عليها، تعلو وجوههم علاماتُ القلق في شبه زهول، ومن ورائهم خزائن الصيارفة على أهبة تقديم النقود للمقامرين؛ تسهيلًا لهم وإغراءً. ولمديري الملعب نسبة كبيرة من المال المتداول، وتتقاضى الحكومة من هذه إتاوة تُعدُّ أكبرَ مواردها، وعجيبٌ ألاَّ يُسَمَّحَ لأبناء البلاد باللعب؛ لذلك لم يُسمح لنا بالدخول إلا بعد الاطلاع على جوازات السفر؛ ليتأكدوا أننا من الأجانب. والمكان من الفخامة بحيث يعجز القلم عن وصفه، فمن رُدْهات وأبهاء زُيِّنَتْ بالثريات والنقوش والفرش، إلى مدرجات وحدائق تتدلَّى إلى البحر، وتتوسَّطها جواسق الموسيقى، ويجوب ما بين أطرافها الحِسان الغيد من جميلات فرنسا، يستهوين الناس من الولدان المتأنقين، والكل يتهادى في مشيته في تكلفٍ شديد، ويرفُل في مُتَرَفٍ ملابسه، وقد أشجَّتْ نفوسهم أنغامُ الموسيقى، وهم مُنصِتون لها وكأنما على رءوسهم الطير.



الفرنسية تحمل رغيفًا طوله متر في إحدى اليدين، وفي الأخرى زجاجات النبيذ المحبوب لديهن.

في أوروبا



تعالج هذه السيدة حُمرة أنفها بالكهرباء؛ كي تصبح بيضاء.

فالحالة الاجتماعية في مونت كارلو تثير الدهشة من عدة وجوه؛ فالنساء أَخَذْنَ من الحرية بنصيبٍ كبير يخرج عن حد اللياقة، ولطول سهر القوم؛ لا يبدأ العمل في الصباح إلا بين الساعة التاسعة والعاشر، فلا تُفَتَح المتاجر ولا يَسِير الترام، ولا تكاد ترى مارّة قط قبل هذه الساعة.



غرفة النوم لماري أنتوانيت.

وسواءً أكانت السيدة الفرنسية باريسية أم ريفية، ماجنة أم فاضلة، فإن أحدًا لا يُنكر عليها أثرها الجليل في إنقاذ نار الوطنية في قلوب بنيتها، حتى عُرف الفرنسي بتفانيه في الإخلاص لوطنه، يشب على التضحية له بالنفس الغالية. وهل ينسى أحدنا موقفها من الغرامة التي فرضتها ألمانيا عليها في حرب السبعين وكيف سدّتها من حُلِيِّها في سُويعات رغم فداحتها؟

إيطاليا

لعلّ أخص صفة تُوصف بها السيدة الإيطالية في حبها لزوجها؛ فهي تفضله على أبنائها وبناتها، عكس جارتها الإسبانية التي تُعرف أنها أمّ مخلصة لبنيتها أولاً. هذا وتمتاز الإيطالية أيضًا بفرط صراحتها، والطيانية خمرية اللون، باسمّة الثغر، غير متكلّفة، رشيقة، هادئة، رزينة، نظيفة، نشيطة، تقوم عند الفجر وتتعهّد منزلها، وعند الظهيرة تنزع إلى السكون والراحة، على أن الهرم يُعاجلها قبل الأوان كسائر نظيراتها من نساء بلاد البحر الأبيض، ولعلّ سبب ذلك تبكيرها بالزواج وباحتمال مهام الأسرة وهي في سنّ صغيرة؛ لذلك سرعان ما يمتلئ جسمها وتميل إلى القعود وقلة الحركة. ومن المزايا الواضحة فيهن حبهن للفنون وبخاصة الموسيقى والغناء، فقلّمًا ترى سيدة لا تجيدهما.

حلت بلاد إيطاليا، فبدا نساؤها نصف متحجبات، خصوصًا في الريف، ولا يُكثرن من الخروج بعيدًا عن دورهن؛ فهنّ أشبه بالشرقيّات، وسلطة الأزواج عليهن ملموسة، ويشغلن مع الرجال في الحقول، ويحملن على رءوسهن أثقالاً مُرهقة ويُسرن بها بعيدًا، ويزيد ذلك وضوحًا في جنوب إيطاليا؛ حيث أجسامهن أقرب إلى السمنة والامتلاء، واللون أسمر لا يكاد يفترق عن لون فتياتنا. أما نساء الشمال فأكثر جمالاً وتهذيباً، وكأني بجمال مدينة البندقية وروعة مناظرها في قنواتها وقناطرها قد انعكس على نساءها، فأكسبهنّ جمالاً مقطوع النظر، وميّزهنّ بالأبهة في المظهر، والصفاء في البشرة، والقوم المشوق، والمشية الرشيقة.

فالبينة المائية تضطرهن إلى المشي إذا ما نزلن عن تلك الزوارق النحيلة (الجوندولا)؛ إذ ليس ثمة من مطية أخرى تركبها في الأزقة الضيقة بين القنوات العدة. ويُقال بأن كثرة ركوبهن تلك الزوارق ونزولهن الدّرج الرخامي المتعدد طيلة اليوم هو الذي أكسبهن تلك الخفة في حركة الأقدام، والرشاقة في الانتقال، تلك التي امتزّج بها على سائر نساء العالم. وهن لا يعجلن بالامتلاء في أجسامهنّ كسائر أهل إيطاليا بفضل تلك الرياضة التي جاءتها

في أوروبا



ألسـت راعـبـًا في أن تستوقـف تلك الغـادـة من سقـاءات إيطـالـيا؟



الجمال نصف الشرقي يبدو في وجه هذه الإيطالية من أهل البندقية.

عن طريق المشي وركوب البحر. وكانت العادة إلى عهد قريب في البندقية أن الخطيب يُباح له أن يخالط خطيبته ستة شهور كتجربة، فإن وافقته تم الزواج، وإلا انصرف كلٌّ إلى سبيله. ويُعرف أهل الريف من الإيطاليين بحبهم الشديد للرقص بأنواعه، ومن أطرفه رقصة «التارانتيل» في ريف نابلي، وهي رقصة ثلاثية، أي من ثلاث بنات في دائرة مُشبَّكة الأيدي، وتبدأ بطيئة، ثم تأخذ في سرعة الدوران تدريجياً، حتى تنتهي بحركة تكاد تكون جنونية، ويصحبها ضرب الدف أو الصنج.



لا يزال الدم الروماني القديم يجري في وجوه هاتين الإيطاليتين من أهل ريف الجنوب.

وتقع تربية دود القز على المرأة وحدها مع أطفالها، ويستغرق ذاك العمل الشاق شهرين كاملين قبل أن يغل الدود حريراً. ورعاية الدود تتطلب متاعب كثيرة، منها التدفئة، وتغيير الهواء، وإطعام الدود عدة مرات يومياً، وكثيراً ما تَرح العائلة الدار وتسكن في الخيام؛ ليترك البيت مُتسعاً لتربية الدود. وفي دور الفراش يراقب الفتيات الدود ليلاً ونهاراً.

لندن

والنساء في لندن رشيقات، يمشين في وقارٍ ولا يتكلَّفن في أُرديتهن، ولا يَطلين وجوههن بشيءٍ إلا نادراً، على عكس ما يفعل الباريسيّات. والجمال فيهنّ نادر، لكنه إن وُجد كان

مُفَرِّطًا ساحرًا، على أن نسبة الجميلات أكبر منها في باريس، واختلاطهن بالشبان كثير جدًا في المتنزهات، وبشكل يهولنا نحن الشرقيين، وهل أنسى جولتي في مُتَنَزَّه هيد بارك حين كنتُ أرى بساط الخضرة هناك غاصًا بالناس، كل عاشق إلى جوار حبيبته، يضمُّها إلى صدره في إباحة أدهشتني، فكنتُ أُحَدِّق وأُطيل النظر، وصديقي ... يجذبني ويهزني في غير جدوى، وأخيرًا صاح قائلًا: «فضحتنا يا ثابت بتلك النظرات.» فقلتُ له: أتعيبُ عليَّ النظر، ولا تعيب على أولئك الأمر الفاضح؟! كل ذلك والبوليس يقف إلى جوار أولئك وكأنه يحميهم.



حقًا تلك النظرات الوديعه لتَنُمَّ عَمَّا يُسْديهِ أمثال تلك الممرضة من مواساة وعطف.

ويَدَّعي الإنجليز أن تحرير المرأة بمعناه النبيل الفاضل لن يتمَّ إلا لنساء إنجلترا، ودليل ذلك أنك إذا وقفتَ عند منافذ مدينة لندن في عطلة آخر الأسبوع، أَلْفَيْتَ جماهير الفتيات والسيدات يُسرَّعن مشيًا أو على الدراجات، وقد لبسن السراويل القصيرة والقمصان المشطورة، وحملن الجُعب وراء ظهورهن، يُمضين ليلة أو اثنتين في الخلاء تحت الخيام، ويَقُمن هناك بمختلف وسائل الرياضة تلك، التي نَمَّتْ فيهنَّ خاصة وفي الإنجليز عامة المخاطرة ومحاولة الانتصار والتغلب على الصعوبات، فكُونَتْ بذلك أخلاقهم وقوَّت أجسامهم، وصَرَفَتْهم عن كثير من المجون والفضول، وبفضلهن انتشرت الجمعيات



يعشق الإنجليزيّات الكشف والمغامرة، وها نحن نراهن في أودية الكشافة.

الرياضية التي تعمل على تحسين الصحة وتشجيع الرحلات، فأنتجن نشأً سليماً هو خير عُدّة للوطن وأهله.

ولا يُنكر أحدنا فضل المرأة الإنجليزية في تربية أطفالها تربية استقلالية ميّزت الشعب الإنجليزي على سائر الشعوب، بالاعتداد بالنفس والاستقلال بالرأي والعزيمة الصادقة. وكم من مرة كنت أراهنّ في المتنزهات يتركن أطفالهن يلعبون كيف شاءوا، والأمهات أو المربّيات جلوس يقرأن دون أن يتدخلن في شئونهم، وكلما جاء طفل يشاورهن في أمرٍ قالت الأم: «افعل ما بدا لك دون أن تتلف شيئاً، واجرِ حيث تشاء بشرط أن تكون على مرأى مني.» وهي ترمقهم على بُعد، دون أن تتدخل إلّا عند كل أمر جلل. وكانت تُمضي الساعات ولا يسألها الطفل أمراً، بل يتصرف برأيه مستقلاً وهي تُبدي لأطفالها ملاحظاتها في طريقها معهم إلى البيت في غير عُنف ولا مغالاة في الحنو والتدليل، وهل ترى أمّاً تبكي أو تنتحب إذا ما دعا داعي الوطن، فسافر ابنها إلى ميدان القتال إلى غير رجعة؟! إنها هي التي تودعه في شجاعة، تعلو ثغرها بسماتُ السرور والتشجيع.

وكثيراً ما يُقال بأن «الإنجليزية تسير وراء زوجها خطوات، بينما الأمريكية تسبقه، أما الفرنسية فتسير معه جنباً إلى جنب.» فهي تُرمى بجمودها وعجزها عن الابتكار، لكنها لا تُبارى في العالم أجمع في حُسن إدارة منزلها وتوفير الراحة والهناء في كل أركانها، ففي

في أوروبا



الجمال السكسوني نادر، وإن وُجد كان مُفترطاً.



مثل من حب الإنجليزِيَّات للرياضة وركوب الدراجات وإقامة المعسكرات.

الشتاء يتجلى ذلك في المواقف الفنية البديعة التي تُزوّد بها الحجرات، وفي الصيف يبدو ذلك في حدائق المنازل المنسّقة أيّما تنسيق. وكثيراً ما قيل عنها بأنها أكثر إخلاصاً لزوجها منها لأولادها؛ لأن الأطفال يُتركون للمربيات ولرياض الأطفال والمدارس. ويقول البعض بأن المرأة الفرنسية يبدأ استمتاعها her good time بعد الزواج، أما الإنجليزية فينتهي هذا المتاع بمجرد زواجها، فمهمتها أن تُنجب أطفالاً، لا أن تسوق دلالاً، أو تُزجّي نصائح للزوج كالفرنسية. فالإنجليزية لا تتدخل قط في عمل زوجها. ونساء إنجلترا خيرُ كأمهات منهن كزوجات، وهن ماهرات في نصب الأفخاخ لصيد أزواجهن، ولكن لا يستطعن إقامة أقفاص لحبسهم فيها كما يفعل الفرنسيّات.

رومانيا

دخّلنا بوخارست عاصمة رومانيا، وتسمى باريس الصغيرة؛ لأن أحياءها الجديدة تشبه باريس، ولأن أهلها تأسّرهم الوجهة وحبُّ الظهور، والنساء يطمحن إلى الأناقة الباريسية ويقفون أثرها في كل شيء، وحتى حديثهن تغلب عليه اللغة الفرنسية، رغم أن البلاد لها لغتها الخاصة، وجمال نسائها في ظني يفوق نساء فرنسا كثيراً، وهن مسرفات في الخلعة والتبرّج، حتى إن الطرق تعصّ بهن في جمالهن الفتان، وهن سهّل قيادهن إلى حد الابتذال، فكثيراً ما يُمسكن بتلابيبك وأنت تسير في الطريق، ويستوقفنك ليُجازِبَنك أطراف الحديث في غير حاجة، فلو دفعك أدبك أن تدعوهم لأكل أو شراب عجّل بالقبول، وهن لا يكلفنك في سبيل ذلك كثيراً؛ لأنهن غيرُ ماديّات أولاً، ولأنّ سعر نقدهم — وهو «الي» — زهيد جداً، وكُلّ الحياة هناك رخيصة إلى حدٍّ لا يصدقُه العقل. على أن ذلك خلّف فيهن انحلالاً خلقياً شائئاً، وكم من مرة يحذرك أحد أبناء البلاد من الأمراض السرية التي تكاد تفتك بهن جميعاً.

والرفيقات يعملن في الحقول مع الرجال، وملابسهن بسيطة في جمال وحسن ذوق، يبدو في كثرة التطريز وزهاء الألوان، وكل نسائهم ماهرات في أشغال الإبرة التي تُعدُّ أحسنّها في الدنيا، والغذاء القومي لديهن من الذرة، ويسمى «مامالجا»، وهو يحكي «العصيدة» عندنا، وأحب الشرب الجعة التي تُستعمل لدرجة الإدمان.

ومن عجب ما علمته أن فتيات رومانيا يخرجن في بعض الأعياد إلى جبل مُعين، يعرضن فيه أنفسهن على الراغبين في الزواج، والأزواج يقدون مع آبائهم لاختيار زوجاتهم. وثم عادة أخرى غريبة، أن الزوج يركب حصاناً وبيده علمٌ وحوله أصدقاؤه راكبين، وكلهم

في أوروبا



فلاحات رومانيا يشتغلن في الحقول حافيات.



لا تزال لعادة خطف الزوجة بقيةً في أوروبا؛ ففي رومانيا يركب الزوج ومعه رفاقه، ويتربص بزوجه الجديدة الفرصة فيخطفها من بيتها إلى بيته.

يتربصون للزوجة كي ينقضوا عليها ويحملوها إلى بيتها الجديد، ولتلك العادة بقية في المجر، وحتى في ريف إنجلترا يحمل الزوج زوجته ويتخطى بها الباب.

البلقان

وشتان بين جمال الرومانيات ونظافتهن وبين نساء البلغار واليوغسلاف رغم تجاورهن، فهؤلاء أميل إلى القذارة، وأمعن في الفقر والسذاجة، ولا تزين وجوههن تلك النظارة ولا ذاك الابتسام الروماني.

ومن عادات السلاف الغربية أن يُعلّقوا دمية على النافذة من الداخل ليراها المارة، فتدلّهم على وجود آنسة ترغب في الزواج، كذلك يعلق الجميع سنابل القمح على المنازل، فإن سرقت عدّ ذلك فالاً بقرب زواجها.

وفي ألبانيا لا تُقام حفلة الزواج إلا بعد أن تحمل الزوجة طفلاً، ويُعدّ الألبانيون من أكثر الشعوب أخذاً بالثأر، والنساء هناك مُعَفّون من ذلك. على أن أغرب تقاليدهم أن النساء لهن الحق في أن يُصبحن رجالاً إن أقسمت السيدة أن تظل أعزب، وعندئذ تلبس ملابس الرجال وتحلق رأسها وتحمل السلاح. وإذا عقب امرؤ بناتٍ ولم يُعقب ذكوراً صحّ له أن يختار إحداهن لتكون رجلاً، وعند موت الأب تصبح رئيسة العائلة، ولا يُسمح لأمثال هؤلاء أن يعودوا إلى الأنوثة ثانية، وإن حدث وحملت إحداهن سفاحاً قتلت هي وطفلها وأبو الطفل إن عُرف، ومثل هذه العادة تأخذ بثأر العائلة، وكأنها أحد رجالها البواسل.



يُعقد في مقدونيا سوق للزواج، يصطفّ العذارى يستعرضن الأزواج ليتخيّر كلّ منهم شريكته.

وفي مقدونيا تُقام سوق للزواج، حيث يقف الفتيات ويُقبل الشبان لفحصهن، ويختار كلّ منهم الغادة التي تروقه زوجة له.



يبدو الجمال اليوناني خُلُوًا من التكلف.

المجر

حقّ لنساء بودابست أن يُفاخِرُنَ بجمالهن الفائق، ذاك الذي اقتبسناه من جمال تلك البلدة، التي يندر أن يتوافر لغيرها، فهي للوافد عليها من نهر الدانوب عند الأصيل حين تتعدّد ألوان السماء، وتبدو قبة البرلمان ومديباته أشباحًا قاتمة نحيلة آية من آيات الله أبدعها أيّما إبداع، وردد من هذا الجمال صدّى تراه في وجوه نسائها. وهل أنسى مستراض «الكورسو» على ضفّة النهر وقد غصّ بالرائحين والغادين وقد تلاصقت الأكثاف، ولا غرض لهم من وراء ذلك إلا الاستمتاع بالمشية فوق ضفاف الدانوب بين صفوف المعجّبين من رواد المقاهي البديعة، تلك التي تتعاقب على طول الضفاف. وليت شعري أيّ الفريقين أسعد حالًا وأكثر استمتاعًا؛ أجمهور المعجّبين، أم زمرة الراجلين؟ ويزيد من جمال الموقف الأزياء المجرية الصميّة لبعض الريفيّات اللاتي يبدون في ألوانهن المنوّعة، وقد ارتدت الغادة من القمصان عددًا كبيرًا، الواحد أقصر من الآخر وأزهى لونًا، واختلست النظرات بعيونها الدُّعج الحور، ومشيّتها الراقصة التي تذكرنا برقصتهن القومية «زارداس» Czardas في ترنُّحها البطيء الذي تصحبه دورة سريعة للجسم، ثم شهقة تستهوي النظر، كل ذلك لا شك ينم عن أصلها الآسيوي. ومما يزيّد المجرية رشاقة وجاذبيّة حديثها في لغتها التي تتدفق كلماتها

وكأنما هي عقود من لآلئ، تلك التي ساعدت على تربية الملكة الموسيقية التي امتاز بها أهل المجر. فالجوقات الموسيقية والتياترات ودورها أكثر عددًا في بودابست منها في أية مدينة أخرى تعدلها كبراً؛ لذلك ليس بعجيب أن عُرف المجرىات في العالم أجمع بالمغنيات والممثلات ونجوم السينما، في نسبة تفوق نساء أي شعب آخر، وذلك بفضل هباتهن الفنية وفرط جمالهن. وكم من مرة ظهرت ملكات الجمال في العالم من بينهم.



المجرىات في رقصة الانزلاق على الجليد التقليدية، وفي الأزياء التاريخية القومية.

تلك هي بودابست التي قبل عنها: بأن كل بنجو (شُلن) من نقودها يتردد في الليلة الواحدة بين اثني عشر جيًّا، وعلى الرغم من ذلك لا يُنفق بنجو واحد من هاتيك إلا على النساء.

والمجرية مَرحة، خفيفة الروح، رقيقة العواطف، ومن ثم كانت شهرتها في الموسيقى، وهي ساذجة الطبع كريمة؛ بسبب بُعد الشُّقة بين البلد وغيره، وعدم قيام الفنادق في الطريق، وأنت لا تفتأ تسمع القول على ألسنتهم Ista Hozott أي: لقد أرسلك الله إلينا. وهي نظيفة، حتى إنه يُعدُّ فرضاً مقدساً عليها أن تغسل فَمَها بالسُّواك مرتين في اليوم، وتُعنى بتطبيق ملابسها بنفسها قبل النوم. وهي آسيوية الأصل، وفدت إلى تلك البقعة سنة ٨٩٥م، ويؤيد صلتها بالمغول انحرافُ عيونها وبروز خديها ولغتها المغولية. ولذلك كانت بلاد المجر أشبه بواحة آسيوية وسط أوروبا، ونساؤها ذوات سَحَن جميلة، غريبة

في أوروبا



يمتاز المجرّيات بجمالهن الفتّان.

عن سائر نساء أوروبا. وعادة تقبيل أيدي النساء شائعةٌ بينهم جميعاً؛ فالرجل ينحني على يد السيدة يُقبِّلها إذا بدأها بالسلام. والمقامرة أحبُّ وسائل اللهو لديهم نساءً ورجالاً.



رقصة الحصاد في المجر، ويقوم بها السيدات دون العذارى.



غادة مجرية في ملابس الزفاف.

أذكر مرة وأنا أجلس مع زميلي ... المدرس بكلية الهندسة في متنزه البرلمان في بودابست أن تقدمت إلينا فتاة حسناء من آيات الجمال المجري، كانت مشغولة بغزل بعض شباك الدنتلا، وأخذت تعرض علينا عملها الفني وتسألنا في رقة عن الساعة. وكانت هذه تَعَلَّة للاسترسال في الحديث بالألمانية — وهي اللغة التي تلي لغة البلاد أهمية، ويكاد يجيدها الجميع هناك — ولم أكن أفهمها، فكان صديقي يتولَّى الرد والترجمة. وقد علمت منزلنا من الفندق، وما كان أشدَّ دهشتنا حين أَلْقَيْنَاهَا تنزل غرفة مجاورة لنا في نفس المنزل، وقد تركت منزلها على الجانب الآخر للدانوب لِتُمضي «وقتًا سعيدًا في جوارنا»، هنا أخذتُ أتَهَرَّب أنا من الحديث معها بحُجة جهلي بلغتها، على أنها كانت تعرف عشرين كلمة إنجليزية محرَّفة كانت تحاول التفاهم بها معي، وكان زميلي يُكثر من المزاح والحديث بالألمانية معها وهي تنصرف عنه، فخشيتُ أن أكون أنا سببًا في التنغيص عليه، فأثرتُ أن أهرب إلى رحلة فردية استغرقت طيلة النهار بعيدًا عن البلدة، وما كدتُ أصل غرفتي مساءً حتى أَلْفَيْتُهَا في انتظاري وهي على أحرَّ من الجمر، وأخيرًا وبعد لأيٍ غلبَتْها الصراحةُ فقالت لزميلي: أنا لا أَسْتَظرفك، فابتعد عنا ودعنا وحيدَيْن. فكاد يُصعقُ صاحبي، أما أنا فقد خيبتُ رجاءها في محاولتي الانصراف عنها، ولما لم يجدِ ذلك اقترحتُ على صديقي أن نُعَجِّل بالسفر خلسة،

وقد تمّ ذلك. وهكذا حقّقت هذه الأنسة ما نعرفه عن المجريّات من فرط الرشاقة والجمال والصراحة، إلى السذاجة والميل مع الهوى.



برلمان بودابست بهندسته الأنيقة.

النمسا

لا تزال تبدو فيينا في روعة وجلال رغم ما تعاقب عليها من أحداث؛ فأنت تلمس فيها أثر الماضي المجيد يوم كانت منشأ المدينة الجرمانية كلها ومقر الأباطرة العظام، هذا إلى موقعها الجميل على الدانوب، وتمتعها بالشمس والدفء والمناظر الجبلية الناضرة حولها، حتى إنها لتفوق في ذلك برلين نفسها. فليس بعجيب إذا أن بدا نساؤها في رشاقة وحلاوة تفوق الحدّ وتستهوي من العقول الهادئ الرزين؛ فهنّ خلاصة من أجناس عدّة تموج بهم البلدة منذ القدم؛ المجر، والتشك، والكروات، والبسنيون، والبولنديون، والروثنيون، والصقالبة، والطلّيان، هذا إلى مختلف المذاهب والأديان.

فم بجولة حول الرنج أجمل شوارع أوروبا، أو البراتر في غاباته المقفلة، وأنت لن تزهد المقام هناك أبداً، والعجيب أن فتياتها قد تحمّلن صدمة الحرب وما عقّبت من بؤس وشقاء بقلوب مريحة، فبدل أن يبتئسن ويحزّن كما فعل غيرهن من البلدان الأخرى، طرحن التكلّف ووجاهة الهدنام، فظهرن في بساطة مظهرهن الجديد أكثر جمالاً، ولم تفارقهنّ تلك البسمات الساحرة ولا تلك النكات وذاك المرح النبيل، فهنّ أقدر نساء العالم على تناسي الهم وتقيل صروف الدهر بثغور باسمه ونفوس مريحة، حتى صعب على الزائر أن يميز بين فتاة في سن السابعة عشرة وبين زوجة متقدمة في السن؛ ذلك لأنهن يحافظن على نضارتهن، فتراهن دائماً في ميعة الشباب وفرط الجمال، سواء في ذلك العاملات والأميرات.

نساء العالم كما رأيتهن



هذه الأنسة تَحكي الملائكة في سحرها.



بعض راقصات النمسا في ملاهي برلين اليوم.

ويدهشني من أولئك القوم عنايةتهن بأماكن النزهة لهم ولأبنائهم من إقامة الفنادق وتعبيد الطرق وتيسير سبل الاتصال وتوفير أسباب الراحة حتى فوق تلك الجبال النائية، وقد بلغ بهم غرامهم بالطبيعة أنهم لا ينفكُون يرتحلون كلما أتاح لهم وقتهم ذلك، والكل يرتدون ملابس الرحلات في شيء كبير من التقشُّف، ويحملون وراء ظهورهم جُعبًا كبيرة وفي أيديهم العصي، وهم يتسابقون في الصعود والركض رجالاً ونساءً وأطفالاً، شيوخاً

وُشْبَانًا، والإقبال عليه شائع بين الجميع. هذا والاختلاف إلى المتنزهات التي تملأ الميادين كلها مقدّس لديهم حتى وقت الظهيرة، حين ترى الأطفال مع مربّياتهم وأمهاتهم يمرحون في تلك الحدائق، وقد زُوّد بعضها بالحمامات أعدت للصغار، ويغلب أن توجد مقصورة في الحديقة لأجهزة الاختبارات الجوية، وترى الكل حتى الصّبية والفتيات من الرّعاع يترقّبونها ويتفهمون منها حالة الجو المنتظرة. وتعجب إذ تعلم أن الإنجليز، وهم خير سكان الأرض استعمارًا منذ عهد الرومان، لا يزال يرمقهم الناس بشيءٍ من الجفاء، كذلك أهل بروسيا الذين سادوا جهات ألمانيا الأخرى جميعًا؛ بفضل إرادتهم الحديدية، وحدّة ذهنهم ونشاطهم، ومع ذلك فهم مَكْرُوهون من الدنيا بأكملها، ولكن النمساويين يُحبهم كلٌّ من يحل أرضهم برغم تراخيمهم وفساد إدارتهم.



يعشق النمساويّات الطبيعة والأزياء رغم ما أصاب بلادهن من كوارث.

وأنت إذا انتقلت من برلين إلى فينّا تركت النظام الآلي الدقيق إلى مكان ظريف جذاب، مبدأ ساكنيه: «افعل ما بدا لك». فكأنك انتقلت من وجهٍ جاد مُقَطَّب إلى وجهٍ باسمٍ جذاب، فملابس السيدات تَخطف بصركِ برّوائها، تزينها وجوهٌ مستبشرة فاتنة، لا تحمل همًّا، ولا تأخذ أمرًا باهتمام، وعلاج ما يقع منهن من هفوات هز الأكتاف أو إلقاء النكات المرحّة، وكلما هدّهن أمرٌ جَلّ قالوا: «ليكن ما يكون»؛ فإن ذلك أدعى لزيادة المرح والضحك، وقد



هل ترى من الحلاوة والرشاقة مثل هاتيك النمساوية من أهل فينّا؟

كان لهذا أثره السيئ في فساد حُكّامهم رغم المستوى الثقافي الممتاز في تلك البلاد. وهم غير أبهين للبؤس والشقاء الذي خلّفته الحربُ عندهم، فلم ينقص ميلهم للمرح، خصوصاً النساء، وكفى أن تُحصي فوق سَبعمائة مقهى كبير في فينّا وحدها، هذا خلاف المقاهي الصغيرة لطبقة الفقراء، ويؤمها النساء أكثر من الرجال. وتَعْجب إذا علمت أن ليس في فينّا أَرْقّة قذرة أو أحياء فقيرة كالتي تراها حتى في لندن نفسها، والفضل في ذلك يرجع إلى النساء.

ألمانيا

لا تُعدُّ المرأة الألمانية من الجميلات على وجه العموم، فهي أقلُّ رشاقة من الباريسية، وخَفّة من النمساوية، ودلاً من الأمريكية، لكنها لا شك تُفاخر بطلّاتها ومَضاءها وحُسن ثقّتها في نفسها. حقّاً لقد قَاسَت من مَسائى مُعقّبات الحرب طويلاً، ومرّاً عليها وقتٌ كان جُلُّ رجائها في الحياة قروشاً معدودة في اليوم تُقيم بها أوَدّها فحَسب، ولم تكن تحلم بزواج إلى آخر أيامها؛ لذلك كثرت العلاقات غير المشروعة بين سائر طبقات الناس، ولم يستطع الشابُّ أن يفكر في احتمال مسؤولية القيام بشئون عائلته مهما صغرت، لكن العهد النازي

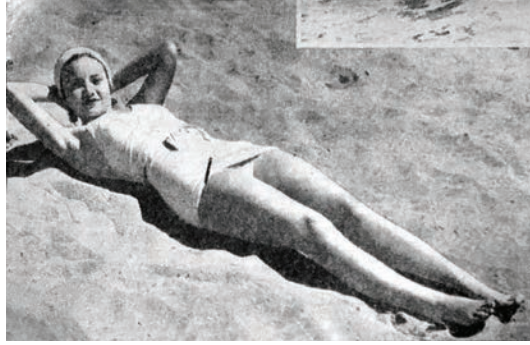


في دار الجعة الكبرى (هوف براوهوس) في ميونيخ، يحتسي حتى النساء والأطفال الجعة إلى جوار البراميل المليئة بها.

اليوم قد قضى على كل أولئك، وشجّع الزواج المشروع بالمنح المالية، وكلما طُرِدَتْ طائفة من الفتيات المشتغلات في المصانع، قُدِّمَ لهن أزواج عوضاً لذلك. ويرمي الباريسيّات الألمانيّات بأنهن خادماُ بيوت فحسب، يُعوِزُّهن حُسْنُ الذوق في الهدام وخفة الروح، ويسودهن عدمُ انسجام في السيقان، وثقلٌ في الأرداف، واضطراب في تصفيف الشعر.

لكن بفضل السيدة الألمانية عُرف البيت الألماني بالنظام والاقتصاد، والتناسق والنظافة، وساعدتهم على ذلك الظروف القاسية التي أعقبت الحرب الكبرى، فبرغمها لا يزال مستوى البيت الألماني عالياً، وأكثر أطفال العالم حظاً من اهتمام الأم ورعاية البيت الطفل الألماني. ومن أجمل ما نعرف للنظام الألماني تلك الفنادق التي يسمونها Gasthof، أي: دار الضيافة، والتي تنتشر في كل مكان، ويؤمُّها الخلق على اختلاف طبقاتهم بعد الفراغ من العمل، يتجاذبون أطراف الحديث على قدم المساواة، فهي ليست كالمقاهي الفرنسية مثلاً التي يقصدها الراغب في الخمر، بل هذه أشبه بأندية تُحس فيها روح الاجتماع، ويكون النساء فيها عنصرًا هاماً، ولا تخلو من الموسيقى أو الغناء. والألمانيّات عُرفن بحب الطبيعة المفرط والانتفاع بها، ولا تزال لعادة شراء الزوجة بقيةً فيما يُقدِّمه الخطيب لزوجته من المال كهدية عند الزواج، وعند الوفاة تُدفن خطابات الغرام التي كتبتها الزوجة مع الزوج في نعشه، ومع الزوجة يُدفن الحلي.

والألمانية شديدة الاقتصاد والتقتير، نظيفةً إلى حدٍّ كبير، تشتغل في الحقول من الصباح الباكر إلى المساء بدون انقطاع، إلى ذلك عملها المستمر المضني في المنزل؛ لذلك أضنى الشغل صحتها، فأسرعت إلى الهرم، حتى قيل بأن مقتبل العمر في ألمانيا ليس له وجود؛ فالمرأة هناك إما آنسة، أو امرأة عجوز، ويساعد على ذلك كثرةُ الذرية، فهي امرأةٌ نتاج، لا تكاد تُربِّي هذا الطفل حتى يظهر حملٌ جديد.



لا يزال حمام الرمل غرامًا عند الألمانيّات.

وعند الزواج تُرسل بطاقات الدعوة من ورق مُفضّض، ويكثر الأحاب من دعوة العروسين إلى حفلاتٍ عدة، يقوم فيها الخطباء مشيرين إلى ذكريات العروسين، وتُقدّم أكاليل الغار. وتُعدُّ العروس ليلة الزفاف كعكةً كبيرة تُخبّى في داخلها حبة من فول أو بن، ومن عثرت عليها من الآنسات المدعوّات بشّرها ذلك بزواجها قُبل انقضاء العام. وتُقام حفلة رقص كبيرة تصحبها الموسيقى والغناء، ويخرج الفتيات حلقاتٍ إلى سطوح الجبال المجاورة في رقصٍ ومرح.

ولا يزال يستنكر الرجال توظيف النساء خارج المنازل؛ فالسيدة عندهم ربة دارها فحَسَب، وفي الريف خادمةُ الحقل أيضًا، تحمل على ظهرها أثقالًا ينوء بها غيرها. ولا يختار الزوج زوجته لجمالها أو أخلاقها، بل لمقدار حبّها المضني للعمل، واجتهادها داخل المنزل وخارجه؛ لذلك شهّرت الألمانية بالجد واحتمال المشقّات، والصبر والأمانة والادّخار.

رغبتُ في أن أطلع على بعض ملاهي القوم، فزرتُ Haus Watterland في «بوتسدام بلاتس» ليلاً، فإذا به جنّة نادرة، فمن ثُرَيَّات الأنوار تصفُّ في أشكال تبهر النظر، إلى طلاءٍ ونقوش فوق الجدران في إبداعٍ دونه أيُّ إبداع، والمكان مقسّم إلى أبهاءٍ عدّة، كلُّ بهوٍ على نمط خاص في هندسته ونقوشه، وأثاثه وأهله، فمثلاً نرى جزءاً من بلاد الرين بجبالها وقصورها وغاباتها تُضاء، ويبدو القمر والنجوم في سماءها، ثم يُظلم الجو تدريجياً، ويُنذر بعاصفة لا تلبث أن تثور، وتُبرق السماء وتُرعد، ويثقل السحاب وينزل مطره وأبلاً، ثم تنقشع العاصفة ويعود الصفاء؛ وثم بهوٌ تركي نرى جدرانه بخرط الخشب العربي، والمصابيح من النحاس المثقّب والقواعد الخشبية العريضة، وهو يُطل على البسفور، وتبدو إسطنبول بمبانيها وأنوارها ومآذنها؛ وآخر يمثل كولومبيا نسمع فيها موسيقاها، ونرى مراقصها؛ ورابعٍ إغريقي، وتُرص وسط تلك الأبهاء مناخذٌ يجلس عليها الزوّار ليتناولوا ما لذّ لهم من طعامٍ وشرابٍ يُقدّم إليهم في آنية البلاد نفسِها، وبأيدي طائفة من الخادِمات يلبسن أُرديّة البقاع التي يُمثّلونها.

هذا، وإن انحلال الأخلاق الذي أعقب الحرب الكبرى ولم تنجُ منه دولة أوروبية ليبدو جلياً في ألمانيا، وبخاصة في كولوني، ويظهر أن الحالة زادت سوءاً بسبب الاحتلال الأجنبي زمناً طويلاً، فالنساء هناك مُتبدّلات إلى حدٍّ مُخجل، لا يتورّعن عن أن يمسكن بتلابيب المارّة في غير حياء، وعجيبٌ أن تجمع ألمانيا بين النقيضين: عظّمة العمل، وتدهور الخلق هكذا؛ ولذلك ليس بعجيب أن نرى عُقلاء القوم ناقمين على الحالة السياسية الحاضرة، ويرَوْن أن عصر الجمهورية أسوأ حالاً من سالفه؛ إذ سهّل للناس سُبُل الفساد، ومهّد السبيل لتلك الإباحة الممقوتة، فكان الانحلالُ الخلقي. على أن تشديد النظم الحالية قد مَحَت من هذا شيئاً كثيراً.

وممّا تجب زيارته في ألمانيا: دار الجِعة في ميونخ، أكبر مواطن البيرة وأقدمها في العالم، والجِعة من أكبر صاِدِرات بافاريا؛ فبناؤها القديم يتألف من أربعة طوابق في أبهاء منسّقة، وأقبيّة سُقفها مزركشة، وتقام على عُمَد ضخمة. دخلتُ المكان فذهلت لما رأيت من الجماهير الغفيرة من أبناء الشعب البافاري، كل فرد بيده جِرّة من الصلصال تسعُ نحو لترين، يتناولها من دولاّب، ثم يقدمها لحارس الجِعة يملؤها له فيحتسيها، ويُعيد الكُرّة مثنى وثلاث ورباع، وترى البعض يَحْتسيها واقفاً بجانب برميل كبير من الجِعة يضع كأسه عليه، ويغلب أن نرى ذلك في الدور الأسفل، وغالب من به من العامة، أما الأدوار العليا فللطبقة الممتازة، وفيها تجد المقاعد والمناضد من خشبٍ ضخم منقوش، والمصابيح

تتدلى في شكل دوائر مُتَّسعة ومزدوجة الثريات، وضوضاء المكان لا تخبو لحظة واحدة، هنا حقًا يأخذ المرء فكرة صادقة عن الشعب البافاري، ومبلغ غرامه بالجنة وميله للمرح، وكم كنت مُغْتَبِطًا وأنا جالس وسط القوم نساءً ورجالاً وأطفالاً، وأمامي الجِزَّة التي لم أستطع أن آتي على ثلثها، بينما كان بعض النساء وحتى الأطفال يتناولها في لمح البصر! خرجتُ من المكان إلى ملهى أمامه اسمه Platz، عُرض به أشباه ما نراه عند الكسَّار في مصر، وغالبه تمثيلٌ للحياة الريفية الألمانية من عادات وأزياء ورقص وموسيقى. فكان يومي مما رُوِّح عن نفسي وراقني كثيرًا.



في مستعمراتهم في شمال ألمانيا، هكذا يبدو معتنقو مذهب العُري.

ويَنتشر مذهبُ العري انتشارًا كبيرًا في ألمانيا، حيث يرمي مُعتنقوه إلى الجمال وتحسين الأجسام، وتقويم الصحة بالمتاع الكامل بالشمس والهواء، وينقد الكثير هذا؛ لأنه مُنْشَط للميول الجنسية، باعثٌ على الفساد الخلقي، لكن أصحاب المذهب يردون ذلك بالرجوع إلى أصل الإنسان يوم خُلِق، وبالكثير من الأمم الفطرية التي يسير أهلها عرايا، ولا يَنجم عن ذلك فسادٌ ما، ويعيبون على النساء سَيَرهن على البلج نصفَ عاريات؛ إذ إن ذلك الغطاء الخفيف هو الذي يُثير الميول الجنسية حول ذاك الجزء المختبئ من الجسم، ولو تُرك عاريًا لما استرعى من الرجال شيئًا من هذا الاهتمام، هذا إلى أن الباعث الذي يدفع الناس

إلى الملابس هو حبُّ الظهور ليس غير؛ فالمرأة تَتِيه بدلالها في ملابسها الفاخرة، فتُغري الرجال، أما جمال الأجسام العادية فغير فائن ولا جذاب، فالملابس هي التي تَخدع الناس وتستهوئهم، كذلك فإنَّ تعودَ رؤية الأجساد عاريةً يُضعف نزعة الشر والفساد، فضلًا عن أن ذلك يساعد الناس على العناية بتحسين أجسادهم؛ لأنها أصبحت مكشوفة، وكما أن المرأة تحب ألا تظهر إلا في أجمل هندام لها، كذلك فهي لا ترغب إلا في الظهور بجسم معتدل جميل. وهل يُنكر أحدنا ما للعري من فضلٍ في نشر المساواة بين الناس؛ لأن الكل يظهر عاريًا، لا يحتمي في وجاهة من الهندام ترفعه فوق غيره درجات؟!



بذلك يعود نساء ألمانيا إلى يوم ولدنهن أمهاتهن، وقد تحررن من الغطاء.

وفي كارلسباد كم يروقك منظر القوم وهم يتزاحمون، كلٌ يمسك بكوبه ويملؤه من الينبوع الذي وصفه له الطيب! وهم يتناولون الماء جرعةً جرعة، ويمشون ذهابًا وجيئةً على اختلاف أجناسهم وأعمارهم. ويبلغ عددُ من يُمضي زمن الاستشفاء بها سبعين ألفًا، ومَن يزورها مرارًا مائتي ألف، غالبهن من النساء؛ ولذلك ليس بعجيب أن ترى المتنزهات ودور الملاهي والأنزال ووسائل النعيم منتشرة، وقد عبدَ القومُ طرقًا متلوية خلال الرُّبى، طولها نحو ١٢٠ كيلومترًا، فالمناظر من حولها شِعْرية ساحرة، تُغري الزائر بطول المقام ولو لم تكن به حاجةٌ للاستشفاء.

نساء العالم كما رأيتهن



فتيات كارلسباد يملأن الأكواب من النبع ليستشفي به الزائرات.



دار الجعة الكبرى في ميونيخ.

وفي بعض جهاتٍ من شيكوسلافاكيا تُعلّق الفتاة عددًا من الأشرطة بقدر عددٍ من خطبوها ورفضت يدهم، وكلما حملت عددًا أكبر من تلك الأشرطة دلّ على جمالها وكثرة الرغبة فيها.

وإني أذكر مرةً وأنا في أحد فنادق براهة عاصمة شيكوسلافاكيا أن كنتُ أصعد السلم لأقصد غرفتي حوالي العاشرة مساءً، فألفتَ نظري جسم لسيده جميلة وقفت تبسم لي من وراء زجاج غرفتها الملاصقة لغرفتي والمطل على السلم، وكانت عارية تمامًا حتى عن

ستار العورة، فغَضَضْتُ الطَّرْفَ وأسْرَعْتُ إلى غرفتي، فَعَجَلْتُ هي تستقبلني على الباب، فانصرفتُ إلى مكاني، وما كان أشدَّ دهشتي حين وفَدْتُ بشكلها هذا، وفتحتُ بابَ غرفتي ودخلتُ تُحييني، وكنتُ قد خلعتُ ملابسِي الخارجية كلها، فوقفتُ حائرًا، وأخذتُ هي تُجاذبني الحديث في غير كُلفة وقد أرختُ على جسدها العاري شالًا خفيفًا، وقالت بأنها ريفية وفدت لتتمتّع هنا أيامًا، ولا مانع عندها أن أرافقها مدةً إقامتها، فأجبتُها إلى طلبها واعتذرتُ هذه الليلة بتعبي، على أن يكون ذلك في ضُحى الغد، وكان ذلك سببًا في أن أعتزم السفر هروبًا منها في باكورة الصباح، وما وافت السادسة صباحًا والناس نيام حتى كان القطار ينهب الأرض بي إلى بلدٍ آخر!!

هولندة

دَخَلْنَا أرضَ هولندة وإفدين من سهول شمال غرب ألمانيا، فلم نُحَسَّ الفرق في المناظر المنبسطة، تتخلَّلُها المطاحن الهوائية، وكانت السهول الوطيئة تمتد إلى الآفاق، فبررت أماننا تسمية البلاد بهولندة، أي الأرض الجوفاء الوطيئة Hollow Land، وكان الصَّبِيَّة يَمرون في جميع المحاط حاملين كئوس القهوة مُجهَّزة، مما يُشعر بحب القوم لها، ويبرر ما نعلم من أن الهولندي أكبرُ مستهلك للَبُنِّ في العالم.

حقًا، لقد وجد الجنس اللطيف في هولندة جنة الله في الأرض؛ فنفوذ المرأة مُطلق في دائرة اختصاصها وأعمالها التي تتعدَّدُ مناحيها، «فبنت البحر» — وهو اللقب الذي تُوسَم به تلك البلاد — فخورةٌ ببناتها، فالهولندية لم تُفسدْها الأنانية ولا الدلال كما فعل ذلك بالأمريكية، ولم تُصبح أسيرةَ رشاقتها كالإسبانية والإيطالية، ولم يُكدِّها العمل مع الرجال في الحقول كالفرنسية، ولم تَقْتصر على أن تكون أنيسةَ الرجل كالروسية، فالهولندية مُواطنة عاملة على رفع شأن بلادها، وهي وفيَّةٌ لزوجها وصديقةٌ لأبنائها. وهل ننسى ما فعلته «كيناهاسيلير» حين وقفت على رأس ثلاثمائة هولندية في وجوه المغيرين من الإسبان في إحدى المواقع الحاسمة؟! وبذلك أنقذت البلاد وأكسبت النساء هناك فخر البسالة والوطنية، فهي لا تزال عاشقة للحرية. ولا شك أنَّ لُعدوان البحر على بلادهم أكبر الأثر في تلك الصفات، فنظرةً واحدة إلى السدود التي أقاموها في وجه المحيط تؤيد تلك البسالة النادرة، وهنَّ في كل لحظة مُتأهبَّات لإجابة النداء إذا ما سَمِعن الصيحة «هلمُّوا هلمُّوا» تتجاوب بسبب إغارة البحر على جزءٍ من تلك السدود. وتَعْجب لتعدُّد السَّحْن في تلك البلاد، خصوصًا بين أهل الشمال والجنوب، فبين هؤلاء كثر اختلاطُ النزلاء بهم؛



في هولندا يقف الفتيات اللاتي في سن الزواج في جانب، والفتيان في آخر، ثم تبدأ بين الفريقين حربٌ بالوسائد، وخلافاً يتخير كلٌ زوجته.

لقربهم من مصبِّ نهر الرين، أهم طريق طبيعي إلى وسط أوروبا وشرقها. أما أهل الشمال — وجلُّهم من السَّماكين — فقد نجَّوا من هذا الاختلاط، لكن ذلك قد أنقص من جمال وجوههن وتناسُب أجسادهن. ومن أجل هؤلاء وصَف السائحون أهلَ هولندا بأن الرجال منهم تَنَقَّصهم السَّيقان المشوَّقة، والنساء يُعَوِّزن الخَصِرَ الأَهيْفَ، والفتيات يَفْتَقِرْنَ إلى جمال العرقويَّين والقَدَمَيْن.

والهولندي سيئُ الظن بالغير، شحيحٌ في معاملاته المالية ومُساوماته؛ ولذلك كان أبطأً من غيره في المغامرة في المشروعات الاقتصادية، ويؤخِّذ عليه شيءٌ من قلة الذَّوق في الحديث؛ فهو صادق صريح، لكن لحدِّ الإيْلام، رذيلته الواضحة إِدْمانه المُسْكِرَات، أما نظافةُ مسكنه فخياليَّة، رغم إهماله في نظافة هُندامه، حتى إنك لتَعاْفُ النظر لبعض المارَّة، فإذا ما دَخَلتَ منزل أحدهم هالِكُ بريقُ جوانبه ولمعانُ أثاثه وشِدَّةُ التأنُّق في تنسيقه إلى حد المضايقة. ويَروِّقك هُندامُ القوم العجيب؛ فالرجال يلبسون شِبْه «سروال» فضفاض يَنْتَهِي عند العرقوبيْن، «وجاكَّة» محبوكة على الجسم، ومَندِيلًا معقودًا حول الرقبة، وتتدَلَّى منه ذُؤَابَةٌ على الصدر كَمَندِيل «الكشافة»، أما النساء فيَرتدين على الرأس قَلَنَسوَةً بيضاء ذات جناحَيْن جانبيَّيْن مُشْرِفَيْن، وجلابيب محبوكة طويلة تَنفَتِح من أسفلها، وتلبس عليها «فوط» ألوانها زاهية. وأحذية الجميع من خشب، تَحْكي «مركوب فلاحِي مصر»، طَرَفُها مُقَوَّس إلى أعلى، ويُقال إنها أطولُ أحذية في العالم. وأحب وسائل الرياضة لديهم: السباحة،

وقيادة الزوارق، وكذلك ركوب الدراجات التي أضحت مَطيَّتهم المحبوبة في انتقالاتهم حتى بين القرى، ولقد بلغ عدد الدراجات في أمستردام نصف المليون، مع أن مجموع سكانها سبعمائة ألف.



أعجب ما في أُرديّة الهولنديّين غطاء الرأس للسيدات، والأحذية الخشبية بِالْغَةِ الحجم.

وكان يجتذب أنظارنا في بعض الحقول العناية بِفِلاحة البساتين، وتربية الزهور التي كانت تبدو أماننا وهي تكسو الأراضي في صفوفٍ متوازية إلى مدِّ البصر، وفي ألوان جذابة كأنها الطَّنَافس الزاهية، وذلك يدل على مبلغ غرامهم باقتناء الزهور. وتعدُّ الهولندية النحافة — التي يعتبرها نساء باريس ولندن ونيويورك رشاقةً — عارًا ودليلاً على العوز وسوء التغذية؛ لذلك تبدو بَصَّةٌ منتفخة الوجه ومُنْبِججة الجسم، وكيف لا تكون كذلك وهي تتناول خمسَ أكلات من طعام شهّي دَسِمٍ لذيذ، كثير البهار والأفاويه، ومهما كانت مرتبة الفتاة الاجتماعية وجب أن تتعلَّم على يد أمها فنون الطبخ وتدبير المنزل والعناية بالأطفال فيه؛ لأنها سرعان ما تُصبح ربّة دارها، وبفضل عنايتها هذه زاد النسل وقلَّت نسبة الوفيات من الأطفال هناك، هذا فضلاً عن إلمامهنّ الشديد بأمور العالم أجمع؛ بسبب ما أكسبهنّ السفر الطويل إلى ممتلكاتهم النائية في جزائر الهند الشرقية، ولا تزال المرأة هناك تقوم بقسط عظيم من العمل في الصيد والزراعة وفِلاحة

البساتين وتربية الزهور وإعداد الألبان، وبفضل رجعيّتهم حافظوا على كثيرٍ من عاداتهم القديمة، أذكر من بينها: خروج الفتيات اللاتي في سن الزواج ليُحاربن الشُّبان بالوسائد في مَواسمٍ معيَّنة، وخلال الطعن بتلك الوسائد تتوثَّق العلاقات وتتم صفقات الزواج.

دنمركة

قمتُ من برلين إلى كوبنهاجن حاضرة دنمركة، التي تغصُّ بما لا يقل عن ثلاثة أرباع المليون من أهل دنمركة البالغ عديدهم ثلاثة ملايين؛ ولذلك فإنها جمعت كلَّ مظاهر العظمة في البلاد، وما عداها من المدن قُرَى لا تُذكر إلى جانبها، والبحر يُطوِّق المدينة بالسُّن لا حصر لها، فأينما سرت في استقامة لاقيت شُعبة من البحر بها البواخر والزوارق والمراسي، وصائدات السمك يُنظِّفنه ويلقن بأحشائه في اليمِّ، ويعرضنه في زوارقهن للبيع. وبالمدينة عددٌ لا بأس به من المتنزهات، أشهرها Tivoli، وبه مجموعة من الألعاب والأراجيح والمقاهي، ويضاء بثرِيَّات الكهرباء ذات الأشكال البديعة في شيءٍ من الإسراف ليلاً، ويُعدُّ أكبر مكان للتسلية في تلك البلاد، وأكثر من يؤمُّه السيدات والأطفال.

والنساء هناك يلاحظ في وجوههن بعض الاختلاف عن الألمان والنمساويين، خصوصاً في شدة حُمِرتهن وصفاء زُرقة عيونهن، وعرض أنوفهن قليلاً، وهُن دون سابقيهن جمالاً وجاذبيّة، على أنهن مَرِحَات نشيطات نظيفات، وتراهن يستخدمن الدراجات مَطِيّة لهن. وكذلك الصُّبية والشُّبان والشيوخ، وخير ما تتجلى نظافتهن في هندامهنّ الأنيق ومأكلهن، ولقد عُدَّ طُهاتهنّ أنظف طُهاة أوروبا وأمهرهنّ، وإن لم يرقني الغذاء هناك كثيراً؛ فكله مسلوق، ويكثر لحم الخنزير فيه. والدنمركيُّون كثيرون الأكل، فهم يفوقون في ذلك حتى أهل إسكندناوة؛ إذ يتناولون بين أربع أكلات ثقيلة وست في اليوم، ولا تخلو أكلة من طعامهم المغذي المحبوب الذي يُسمونه «سمور برود»، ومعناه الخبز الملطّخ، وهو مزيج من الخبز والزُّبد والبيض، وقطع الدجاج والسمك ولحم الضأن، وبعض الخُضر، كل ذلك يقدم إليك مختلطاً «كالساندوتش»، وفي المطاعم يُصدَّر به الأكل، فيشعر المرء بامتلاء عند تناوله قبل أن تقدِّم له الأطعمة الرئيسية، وترى البائعات يتجوّلن في الطرق بعربات يدوية صغيرة يُجهّزهن لك على الفور.

وكم كان يدَهشني وأنا أجلس إلى مائدة الطعام في النزل منظرُ القوم يلتهمون الطعام التهاماً وبسرعة عجيبة، رغم كثرة الكميّة التي تقدِّم إليهم من البطاطس المسلوق واللحوم

والطعام القومي السالف، وأنواع من الحلوى تحكي العجين يُمزج باللبن والعسل تعافها النفوس.

وقد بلغ من ديموقراطية الناس هناك أن الملك أو الملكة، يخرج الواحد منهما ويمشي على رجليه أو يمتطي جواده كل يوم، وهو يجوب أطراف المدينة في غير حُرّاس، يُحيي الناس وهم يُحيونه وكأنه واحدٌ منهم، ولقد رأيته مرارًا وهو يرفع قُبْعته تحية لأقلّ الناس مقامًا. هذا ولقد أبطلت ديمقراطية عادةً تتويج الملوك منذ عهد الملك الحالي؛ لأن الناس رأوا أن حفلات التتويج متكلفة، فضلًا عن نفقاتها الباهظة، وللناس كامل الحرية أن يتريّضوا في حدائق القصر على مسمع من الملك، والقصور كلها يزورها الجميع في مواقيت معينة، كل ذلك يؤيد ما هو معروف من أن أهل ديمقراطية هم المثل الأعلى للديموقراطية، فالرجل منهم يرفع قبعته احترامًا لأحقّ الناس، حتى للخادم، وقيمة المرء عندهم بعمله فقط، وفوارق الطبقات معدومة، والميزات والحقوق الموروثة لا أثر لها عندهم. وقد خلف ذلك أثره في التسامح الديني عندهم وفي إباحة الطلاق للجميع، على أن يكون ذلك في السرّ لا في العلن؛ ولذلك كثر الأبناء غير الشرعيين بينهم، والقوم لا يعدّون ذلك عيبًا، بل أمرًا طبيعيًا لا عقاب عليه، وفي خلقهم التسامح العام والمساواة المطلقة، لا يقع بينهم شجار قط، ولا يتعرض أحدهم بالإهانة للغير، إن حدث ذلك كان عقاب القانون قاسيًا.

ولقد خلف الغذاء النقيّ الصحي خير أثر في أجسام النساء هناك. وديمقراطية أحسن دول العالم طعامًا وعناية برقبته، والزوجان هناك من أسعد الناس؛ ذلك لأن الديمقراطية معروفة بروح المرح والفكاهة، يَبْسَم لكل شيء، وتُعْنى الزوجة بجمال وجهها وقوة جسمها. والديمقراطية كالعربية كريمة جدًا — وإن خالفتها في أنها غير متديّنة — يتجلّى هذا الكرم في فتح أبوابها للأضياف مهما كثر عددهم، فمثلًا ترى البيت عند الإنجليزي بمثابة حصن له دون غيره، أما البيت عند الديمقراطي فمضيّفة تُرحّب بكل طارق. والديمقراطية من أرقى شعوب العالم ثقافة، وقلّمًا تجد سيدة لا تُجيد لغتين أجنبيّتين، وهم أشد أهل الأرض تقديرًا للمساواة والديموقراطية، حتى إن الخدم بالمعنى المعروف عندنا ليس لهم وجود هناك؛ فالسيدة والخادمتان يجلسن إلى مائدة واحدة، والقانون يبيح الطلاق هناك بأوسع معانيه، ولا يضع في طريقه موانع قط، على أن الطلاق يتم سرًا، فلا يكشف أحد الزوجين عن مساوئ الآخر، بل ينفصل الاثنان دون أن تعرف من المتسبب في ذلك. ونسبة المواليد غير الشرعيين هناك كبيرة، ومع ذلك فإن الدعارة هناك نادرة، فهم في المسائل الجنسية يُفاجرون بأنهم لا يتكلّفون شيئًا، بل يأتون الأمر الطبيعي في غير خفاء ولا مؤاربة.



ملك دنمركة يُخالط الناس ويُحييهم.

ولعلّ دنمركة من الدول النادرة التي تتساوى فيها المرأة في المستوى الثقافي مع الرجل تمامًا في الناحيتين العلمية والعملية على حدّ سواء، وحتى الأثرياء منهم لا يجدن عارًا في العمل للكسب مع الرجال، ولهؤلاء العاملات أندية ونقابات عدّة قرّبت بين نساء الطبقتين الراقية والفقيرة، فتحسّن بفضل ذلك مركزُ المرأة على وجه العموم. أذكر على سبيل المثال: «نادي المطالعة للنساء» في كوبنهاجن، وقد رأيتُه يحتوي على نحو أربعين ألف مجلّد، وتنظّم به المحاضرات وتُقام الحفلات، وقيمة الاشتراك لا تزيد على ستين قرشًا في العام، وفي بعض الأندية يُقدّم الطعام نظير قرشين ونصف للأكلّة. «وهناك النادي التجاري للنساء» للاجتماع والادّخار، ويعمل على مساعدة النساء ماليًا إذا ما كُبرن أو أصابهن المرض.

ويُتّهم النساء في دنمركة بالإباحة والمخالطة، والانهماك في الخمر والميسر، على أن ذلك آخذٌ في النقصان اليوم، وأظهر ما تبدو إباحتهن في إسرافهن في التدخين جميعًا. كذلك فهنّ مَرَحَات لا يعبأُن بالحياة الجديّة، بل يأخذن كلّ شيء في سهولة وعدم اكتراث. ولقد خفّفت الآلات الحديثة في صناعة استخراج الألبان من أعبائهن، فتفرّغن بعض الشيء للعمل في المنازل وخدمتها، وهنّ كرام جدًّا، فإذا ما حلّ الضيف مدّ السّماط بصنوف عدّة من الطعام. وتقديم القهوة مع الكعك أمرٌ لازم كلما حلّ طارق، وقد يُقدّم الـ«سمر برود»، ويكرّر ذلك

عند الانصراف حين تتمسك ربة البيت أن يتناول الضيوف وجبة خفيفة، ولا بد من ختام الطعام بالقهوة التي يظلُّ قدرها على النار دائماً. وحفلات الزواج تدوم يومين كاملين، أما الجناز فيوم واحد يكثر الأكل فيه، ويبقى النعش وسط البيت ومن حوله نساء الأقارب في ملابس سوداء، ويُمسكن بمناديلهنَّ وأناجيلهنَّ، وكلما دخل ضيف رُفع له القناع من على وجه الميت ليراه. وعند ميلاد طفل يتقدم نساء الجيران مُهنَّتين، ويُقدِّمن الحلوى تُعجن بالقهوة، ثم تُنقل الأم إلى الكنيسة وتدخل الهيكل ليباركها القسيس هي وطفلها.



دستور دنمركة في إطار من فضة.

إسكندناوة

موطن «الفيكنج» الذين غالبوا البحار وطوفوا بأمريكا قبل أن يعرف العالم عن كشفها بمئات السنين، ومروا بشواطئ أفريقيا والأراضي المقدسة، ومن سلاثلهم «النورمان» الذين غزوا إنجلترا. فهل تعجب للنساء اللاتي أنجنن هؤلاء، واللاتي يقمن في بلاد السويد والنرويج ودنمركة اليوم؟ ولعلَّ النرويج أقربها إلى هذا الجنس؛ لأنها لم تكد تتأثر بالمدنية الحديثة، تلك البلاد التي ترى فيها شمس منتصف الليل التي لا تغرب تحت الأفق أبداً في الصيف، أما في الشتاء فيضيء ثلوجها الوضاء ضوء القمر الشاحب ليس غير. وأخص عمل لهم صيد السمك، والنسوة هنَّ اللاتي يقمن بالقسط الأكبر من رعايته وإعداده، فيقمن شهوياً على

الشاطئ يَعملن بجد، وكم يَروُكُ مظهر النساء تَحْمِلهن الزَّوارق من الفيوردات يومَ الأحد لِيَقصدوا الكنائس بأزيائهنَّ الجميلة العجيبة! وما أبدعَ رداء العروس يوم الزفاف يُثقله الودعُ والفضة، يُوشّيه الحريرُ الثقيل، ويغطي الرأسُ تاجٌ غني بالجواهر! وفي الصيف يَخْتص النساء برعاية السائمة من خيلٍ وغنم، ويقوم الرجال بحصد الغلال من الحقول. وبلاد إسكندناوة لا شك بلادُ الأجسام القوية السليمة؛ لأنهم لا يَتَنون عن تَعهدها بالألعاب الرياضية داخلَ المنازل وخارجها، هذا فضلاً عن أنهم جميعاً يُجيدون السباحة، وكثيراً ما كنتُ أرى النساء والرجال على شواطئ الفيوردات عرايا تماماً يَلْهون ويمرحون، ولا عيب عندهم في ذلك، ويجوز للشاب أن يستحم مع الفتاة وهما عاريان تماماً، وتلك مقدّمة الخطبة بينهما، هذا ويكاد يملك كلُّ واحد منهم زورقه، خصوصاً أهل السويد؛ لأنهم أوفرُ ثراءً وأقربُ إلى إسراف الأمريكيان منهم إلى اقتصاد الفرنسيين.



أقدر الممثلات من أهل السويد «جريتا جاربو» ذائعة الصيت.

وفصل الصيف فصلٌ عرضٌ مستمرٌ لتلك الأنواع الخلابة من الرياضة، وللنساء قسماً أوفرُ في ذلك من قسط الرجال، وهن في الشتاء أنشطُ منهن في الصيف رغم قسوته؛ ذلك لأنهن يُمارسن الترحلق على الجليد Sking، وهن ربّات دُورهن بحق، يدَهشك نظام بيوتهن وفرط نظافتها وجودة طعامها، وأنت لا تفتأ ترى القوم مُقبِلين على طعام «سمورجاس برود»

من خبز حُشي بالزبد ونَثِير السمك واللحم، يَلْتَهُمونه دائماً وفي كل مكان. ولا تكاد تدخل بيتاً حتى يُقَدِّم لك في سرعة عجيبة، وأنت تُقْبِل على أكله وتَرغب في المزيد. وهم في دنمركة يُسمونه «سمور برود»، ويَعُد الدنمركيُّ داره بيتاً لأصدقائه على الدوام، يلقي فيه كرمًا وترحيباً. ومما يروق الضيفَ هناك وبخاصة في النرويج: حمَّامُ البخار، حيث يُقام إلى جانب البيت كوخ من كتل الخشب في وسطه أُقيم أتون (فرن) من حجارة، يُسخَّن إلى درجة الاحمرار، ثم يُرَشُّ عليه الماء فيستحيل بخاراً يعبق المكان، فيدخله الواحد ويتصبَّب عرقاً، ثم تدعك له الفتاة جسمه بأغصان شجر البتولا. وتلك البلاد تسودها المساواة التامة بين النساء والرجال، فلهنَّ جميعاً حقُّ الانتخاب والعمل مع الرجال جنباً لجنب، ولعلَّ أجسام النساء هناك أجملُ ما نرى في أوروبا جميعاً وأوفر صحة، ومنهن وافرُ الجمال، وهل ينسى أحدنا «جريتا جاربو» السويدية التي طبق صيتها الآفاق جميعاً؟



هكذا تبدو الأجسام المفتولة القوية بين فتيات إسكندناوة.

ولعلَّ أصفى ما يكون الجنس النوردي في تلك البلاد، وهم شُعبة من القُوط اتخذوا القرصنة عملاً لهم، ورَكِبوا البحر ونزلوا جزائره وأجوانه، ثم استوطَـنوا بلاد إسكندناوة النائية، فلم يمتزجوا بغيرهم مثل أقربائهم من الإنجليز والألمان والهولنديين والدنمركيين، وهم لا يزالون يمتازون بالشَّعر الأصفر والعيون الزُّرق والقوام الشامخ. وأهل السويد أغنى



غادة نرويجية في زي الزفاف الفاخر.

من جيرانهم سگان النرويج؛ ولذلك كانوا أميلَ إلى الأرستقراطية، وبدتْ فوارقُ الطبقات بينهم واضحة، على عكس النرويجيين المعروفين بحبهم للديمقراطية واحترام النفس، حتى إن الخادم والْحُوذِيَّ لِيُخاطبك وكأنه من أنداك. ومن أهمَّ ما يَسترعي نظر السائح في برجن سوق السمك الذي يُعقد يومياً في الصباح في ميدان فسيح على الميناء، يُعرض به مُختلف السمك على ألواح في منظر قذر منقر، والروائح الكريهة تتصاعد، وتسيل الدماء والأوساخ على الأرض بشكلٍ تَعافُه الأعين. والقومُ — وبخاصة السيدات من حوله — يتزاحمون ولا تَخبو ضَوْضائِهمن، وغالبهن في ثياب خَلقة رثّة، أما أهل المدينة فَمَقشُورو الوجوه، زُرُق العيون، ضخام الأجسام يكثر العمالقة بينهم، وتلك المميزات فيهم أظهرُ منها في زملائهم من أهل السويد، وهم مَيَّالون للمُسكِرات، يؤيد ذلك كثرةُ السكارى الذين يَجوبون الطرق ليلاً نساءً ورجالاً.

ومن أكثر أعمال الريف في النرويج: رعيُ الماشية تحت قيادة النساء على مروج الجبال الممتدة، حيث تخرج الفتاة وحدها وتحل كوخاً منعزلاً موحِشاً (سيتر saeter)، وتنفخ في المزمار بالغِ الطول أو القرن لِتُنادي الماشية عند الأصيل، حتى أَلِف البناتُ الحياة المنعزلة الموحِشة، وإذا ما خرج الرجال لصيد السمك قام النساء بالزراعة ونساء السواحل كُنَّ

في أوروبا



عروسان من أهل لابلاند من قصر القامة في شمال إسكندنافيا.



الشارع الرئيسي في أزلو، وهو مُستراض الأحباب عند الأصل.

نَراهُنَّ في أُرْدِيَةِ من الجلد الأصفر يُشَرِّحَن السمك الذي صادَهُ الأزواج، وَكُنَّا نُدْهَش لَخَفَةِ أيديهن في ذاك العمل.



الأنوال اليدوية لنسج الكتان توجد في غالب بيوت إسكندناوة.

أيسلندة

أقبلنا على ركيافك عاصمة أيسلندة، فهالنا منظرُ الفَوَّارات تتفجَّر من الأرض حولها في أبخرة لا تكاد تغيب عن العين، وكان الناس يتزاحمون حولها، وسَحَنُهم وإن شابهت سكان إسكندناوة إلا أنَّ بها مميزاتٍ خاصة، كالْحُمرة الشديدة، والانتفاخ الواضح في العيون، مع أهدابٍ يَشوبها البياض، مما يُقَرِّبهم لسكان شمال إسكندناوة وجرينلندة. أما قاماتهم فكجيرانهم طويلة، وقد كنت أظن أنني سأجد بينهم كثيرًا من الأقزام، فإذا بي أنا أبدو قزماً بينهم؛ يؤيد ذلك أنني أثناء جولتي في أطراف المدينة الساعة العاشرة مساءً، التفتُ بي جمعٌ من الصِّبية والفتيات وهم يُحدِّقون في وجهي، ثم أخذوا يصيحون جميعاً وهم يُشيرون إليَّ قائلين: «اسكيمو، اسكيمو» حتى غبتُ عن أنظارهم. وملابس النساء غريبة تسترعي النظر؛ فهنَّ يُرسلن شعورهنَّ في خُصل تُجَدَّل وراءهن، ويلبسن على الرأس شبه «قَلَنسوة» سوداء تَغطِّي ناصية الرأس فقط، وتسمى hufa، ولها ذُؤابات مُدلاة كالشعر المستعار، إلى جانب جدائل الشعر الذي لا يَقْصُصُنه بل يُرسلنه. وعلى أكتافهنَّ تُحْمَل الشيلان الثقيلة السوداء، ويَتَزَرْنَ بملاءات مُزركشة زاهية اللون من الخصر إلى القدم، أما رداء الصدر فمن القطيفة الثقيلة الموشاة بالنسيج الذهبي في شيءٍ من الإسراف. والانزلاقُ فوق الجليد خيرُ ألعابهم الشتوية التي تُنْشِط جِسمهم وتُدْفئُها، وعند شاطئ البحر رأيتُ القوم نساءً ورجالاً وصِبية يَعدُّون محصولهم من الأسماك، فبعضهم ينشره

للتجفيف، والبعض يُنظفه ويُعده للتمليح، والبعض يجمعه في كومات كأنها التلال تغطى بالأقمشة الثقيلة، ثم تُعبأ بعد التمليح في الصناديق. ومهنة الصيد وإعداده على اختلاف أنواعه هي المورد الرئيسي للبلاد؛ ولذلك تجد أغنياءهم ومتوسطي الحال يمتلكون زوارق ويستأجرون الفقراء؛ ليخرجوا بها للصيد لحسابهم في مواسم معينة، بعضهم إلى فيوردات شمال آيسلندا وغربها، والبعض إلى بحار جرينلندة التي تبعد عن بلادهم كثيراً، وأنت ترى الأطفال إلى شاطئ البحر يصيدون السمك ويشقون جوفه ويستخدمون أحشاءه طعاماً لغيره، ويحفظون السمك في صفائح نظيفة، وقد رأيت طفلة وفي جعبتها نحو عشرين سمكة، يزيد طول الواحدة على قدم، وهي ما زالت تثابر على صيده، ولم تعد العاشرة من عمرها. وطبيعي أن يصبح السمك أشهى طعام لديهم، يُعد على أشكال متنوعة، وأينما حللت قدماً إليك، ويغلب أن يكون مسلوقاً، وإلى جانبه إناء من الزبد السائل وآخر من البطاطس المسلوق، وقد كان هذا من سوء حظي؛ لأنني أعاف السمك على وجه العموم.



الفتيات ينشرن السمك على الشواطئ.

أدى بي السير في الأطراف القاصية من المدينة إلى الفؤارت التي يستخدم القوم ماءها الحار في غسل ملابسهم، وقد أقيمت حول العيون التي لا تحصى شبك الحديد كي تقى الغاسلات أن يهوين إليها، والبخار يتصاعد من جميع جوانبها إلى عنان السماء، وتسمى

تلك الجهة في عُرفهم: «لوجارنار»، ولكثرة ما يصعد من بخارها بدأ القوم يُعدون الأتابيب الضخمة لنقل البخار إلى المدينة، واستخدامه في تدفئة المساكن، وقد بلغ من استفادة بعض السكان من تلك الحرارة أنهم يطهون لحمهم، ويُنضجون خبزهم بواسطتها، فتأتي ربّة الدار وتضع اللحم أو العجين في إناءٍ، ثم يُدفن أسفله في الأرض، فلا تلبث الحرارة أن تؤتي أثرها فيه وتنال منه كثيرًا، فينضج ويُعدُّ للأكل. ويغلب أن تكون الزوجة في أيسلندة، وكذلك في النرويج أكبر سنًا من الزوج، وبيوت الريف تُبنى من الطين والحشائش والخشب، ويُقام البيت في حِجرات منفصلة تصل ما بينها ممّرات ضيقة، وتُصَفُّ الفرش قرب الجدران لتُستخدم للجلوس نهارًا وللنوم ليلاً، فينام اثنان على كل جانب؛ الرجال هنا والنساء هناك، ولرب البيت وزوجته ركنٌ يفصله ستار عن باقي حجرة النوم. ونسبة التعليم بين نساء الريف قليلة، وأن التعليم هناك لا يكون في مدارس مُقامة بقدر ما يعتمد على المدرّسين المتجولين.



تتوسّطنا سيّدة من أيسلندة قُرب بركان هكلا.

إسبانيا

لعلّ أخص ما يميز الإسبانية على سائر نساء العالم أنوثتها المطلقة الكاملة؛ فهي أنثى ليس غير، وإن عدّ ذلك نساءً البلاد الأخرى نقصًا وعيبًا، فالإسبانية تُعرَف بطراوة تقاطيعها،

وسحر عيونها الدُّعج، وانسجام قَوامها، ورَقَّة دلالها، وجمال بساطتها، فهي أبداً في صحة جيدة؛ بفضل جوِّ بلادها، وعدم احتمالها لمسئوليات جسيمة. وهي أمُّ مرحة، تأخذك برشاقة مشيتها وبديع قَدَميها وشفيف بشرتها الخمرية، التي تنمُّ عن حُمرة الدم الجذاب. ويدَّعي البعض بأن شطراً كبيراً من جمال الإسبانيات يرجع إلى الأزياء القومية البديعة؛ فـ«الباسكينا والمانتيا» تُظهر السيدة العادية جميلة، والجميلة ساحرة؛ لذلك تزيد نسبة الجمال في الريف اليوم عنها في المدن؛ لأن الأزياء الباريسية أخذت في الانتشار في المدن. وأجمل ما يُرى النساء هناك في حفلات صراع الثيران، حين تبدو أجمل الأزياء. وترى المانتيا من الدنتلا البيضاء تعلو مُشرِفةً على أمشاطٍ عالية، تزينها زهرة جميلة، وترى الأيدي وهي تحمل المراوح التي لا تفتأ تنتشر وتنقبض، وكأنها الفراش المتنقل.



الأندلسيات كلفات بالمغازلة، وهنَّ أبداً رشيقات مرحات.

ونسبة العفاف بين المتزوجات هناك عالية جداً بفضل تدينهن من جهة، وقيام الزواج على سندٍ من الحب والرغبة ثانية. وأنت لا تكاد تجد للمهر أثراً في الزواج؛ فالسواد الأعظم هناك ينفر من فكرة تقديم النقود أو التمسك بنصابٍ من الثراء في الزوجة أو الزوج، على أن الزوج هناك لا يزال يعتقد أن الزوجة خلقت لسروره وتسليته فحسب، ولا يكافئها على ذلك بأكثر من انحناء لكل سيدة جميلة تمرُّ به، أو كلمة غرام، أو مغازلة على الطريق،

حتى شاعت العبارة بينهم (إشاندو فلورس echando flores)، أي: نثر الزهور عليهن، وتلك الزهور هي كلمات الإعجاب التي تنهال عليها في الطريق. وكل فتاة تتمنى أن يُصيبها في طريقها قسطٌ كبير من تلك الزهور الكلامية، فكثيراً ما ترى رجلاً أوقف حديثه الجدّي مع عُملائه لكي يسوق شعراً غرامياً أو جملةً مغازلةً لفتاة تمرّ في الطريق، ثم يعود لاستئناف عمله مع رفاقه دون أن يستنكر أحد ذلك. أذكر مرة في قادس أن جمعاً من الشبان استأجروا زورقاً لنزهة بحرية، فحاولت غادةٌ حسناء أن تخطّي شطاً رملياً مبللاً، فأسرع شابٌ وفرش لها على الطين حرامه المخطط Capa، وانحنى على رُكبتيه ومدّ يده إليها وقال: تفضلي مُرّي على ذاك البساط. فمرّت وهي فخورة بذلك الجمال الذي أغرى الشاب أن يفعل هذا.



الرقص الأندلسي على أنغام القيثارة وتصفيق الأيدي.

وأول ما حلّت من أرض إسبانيا ميناء ملجا، وفي طرقها الرئيسية ذات الحركة الصاخبة والمتاجر والمقاهي العدة، لا تكاد تشق طريقك وسط الجماهير التي تتبخر ذهاباً ورجعة، وتظل كذلك إلى ساعة متأخرة من الليل. على أن البلدة لا تروق السائح كثيراً، وخير ما يُعطي الزائر فكرة عن أهلها أن يركن إلى مقهى في الشارع الرئيسي ليُشاهد المارة ومُداعباتهم بعضهم لبعض عند الأصيل.

وصلت غرناطة، وقمت مبكراً قصد زيارة «قصر الحمراء»، فلم أكد أرى حانوتاً قد فُتح، فخلت أنه يوم الأحد، على أنني علمت أن القوم لا يبدءون عملهم إلا بعد التاسعة صباحاً،

وذلك من أثر إسرافهم في السهر، فهم يلبثون في الطرقات نساءً ورجالاً إلى ساعة متأخرة من الليل كل يوم، أخذت الأتوبيس إلى «الهمبرا»، وسمي كذلك نسبةً إلى بني الأحمر، وهناك قضيت يوماً كاملاً بين آياته الفنية وذكرياته الخالدة، وقد استرحتُ طويلاً في مقصورة «الحريم» وقاعة بني سراج، وكانوا من نبلاء غرناطة منهم القضاة والوزراء، ويقولون إن بنت أحد ملوك بني الأحمر أحبّت أحد بني سراج، وكانا يتبادلان لوعة الحب في جوانب قصر الصيف تحت شجرة صنوبر رأيتهما قائمة إلى اليوم، وتسمى شجرة الملكة من أجلها، ولمّا علم السلطان بذلك غضب على بني سراج، واستقدمهم وضرب أعناقهم في تلك القاعة، ويقول الإسبان إن أرواحهم ما زالت تُرفرف وتصرخ في وحشة الليل لما أصابهم من ظلم. وقيل إن مصرعهم كان على يد أبي عبد الله، آخر ملوك بني الأحمر؛ لأنهم مالتوا الفرنجة سرّاً. وبتلك القاعة خبايا وتَقُوسات عليها خمسة آلاف شكل، كل واحد يُغيّر الآخر. والحمام الرائع يتقدمه فناء الراحة، كان يجلس الخليفة فيه، وفي شرفاته المطلة كان الغواني يعزفن الموسيقى قبل الاستحمام وبعده، ثم يتبعه من داخله مكان التزيّن (التواليت). ثم داخل كل أولئك: الحمام بأحواضه الثلاثة من الرخام، حوض الرجال، وحوض السيدات، وحوض الأطفال، وسُوفها أقبية تتخلّلها كُوى من زجاج.



أزياء الأندلسيّات أقرب إلى الأزياء الشرقية.

قُمت بجولة في قرطبة ليلاً، فهالني تهافتُ القوم على دُور السينما والمقاهي، وعلى الإسراف في الشرب والتدخين، حتى الفتيات الصغار، لا بل والأطفال. أما المغازلة فذاك أمر

طبيعي شائع بين الجميع، فكأنهم فهموا في الحياة معنى غير الذي نفهمه؛ هي أن يقضي المرء ساعات عمله، وبعدها يكون المجون ومُخاصرة الغانيات واللهو والسهر، فما الحياة لديهم إلا متاع، وعلى الإنسان أن يأخذ بنصيب كبير منها ما استطاع. وحبهم للمقاهي فائق الحد، فبعد كل وجبة للطعام يذهبون نساءً ورجالاً، ويجلسون لشرب القهوة، وفي المساء يطول بهم الجلوس على موائد السكر إلى ساعات متأخرة من الليل؛ لذلك لا تبدأ أعمالهم نهائياً إلا بعد التاسعة أو العاشرة، حتى في مصالح الدولة. وهم يؤخرون وجبات الطعام، فالغداء لا يكون قبل الثانية، والعشاء بعد التاسعة، وجلهم يشرب الدخان، وهو ليس «مفروماً» كما نراه عندنا، بل مُهشماً، ويلفونه بأيديهم جميعاً.

ويكرر الإسبان عن حكومتهم القصة الآتية: طلب أحد ملوك الإسبان إلى آلهة السماء أن تمنح بلاده ضوء الشمس، فأجيب سؤله، ثم طلب للنساء الإفراط في الجمال، وللرجال حُسن الأدب، فمُنح ذلك أيضاً، فعاد وطلب أن تُوهب البلاد حكومة رشيدة وإدارة حازمة، فصاحت الآلهة قائلة: كلاً، كلاً، لا يكون ذلك، فلو مُنحت هذا لهجر جميع الملائكة السماء وآثروا عليها أرض إسبانيا! ومعنى ذلك أنهم يعترفون بفساد حكومتهم. ويدهش الناس لتدهور نظام الحكم الإسباني رغم سيادة إسبانيا للعالم كله زماناً؛ وتعليل ذلك أنهم مدينون للعرب بالكثير من دمائهم وحضارتهم وشجاعتهم وخصب بلادهم، بل وسعادتهم جميعاً، فالعصبيّة التي أعقبت طرد العرب «بين ١٦٠٠ و ١٧٠٠» خلقت نقصاً فادحاً في الكفايات؛ لأن سيادة العرب وإشرافهم الأبوي كان كبيراً ومتغلغلاً في الناس وفي الأرض، لدرجة أن محو تلك الآثار ومحاولة تحويلها إلى حضارة أوروبية كان أمراً متعذراً، لا يتم إلا في قرون عدّة، ولقد اختلطت اليوم حضارة العرب الممتازة بحضارة المسيحيين التي هي دونها رقيّاً، والتي شابها كثير من حضارة الصليبيين التي كان أساسها العنف والعصبيّة الدينية العمياء، وأنت اليوم ترى وقار العرب وأدبهم سائداً بين جميع الإسبان، إذ تلمس أثر الأرستقراطية في الغني والفقير، وكذلك أثر الديمقراطية فيهما على حدّ سواء، إلى ذلك حبهم لأطفالهم وتقديرهم للزهور؛ فالأطفال يُمنحون نصيباً كبيراً من الحرية، والزهور تُزَيّن نوافذهم وشرفاتهم وأثاث دورهم، بل وصدورهم وأذانهم، كذلك شبه الحجاب الذي نراه بين السيدات، فالفتاة لا تُبيح لنفسها أن تكلم رجلاً إلا وهي تلبس المعطف، كذلك ميلهم للمغازلة واختلاس النظرات، تلك التي تُغضب أهل الشمال في أوروبا مثلاً.

ومن المناظر المألوفة في كل بلاد إسبانيا وقوف الرجال على نواصي الطرق، يغازلون السيدات ويلقون عليهم عبارات المديح جهاراً، وكثيراً ما ترى العشاق يقفون إلى جوانب



الرقصة القومية الإسبانية أصبحت أشهر من نار على علم بدورتها الرشيقة العنيفة، وردائها الفضفاض الجرار، وبشعرها المرسل.

الجدران تحت النوافذ يُعبّرون عن آيات حبهم وغرامهم بأنغام القيثارة، ومن العجب أن هذا المنظر لا يسترعي اهتمام المارة؛ فهو لديهم أمر عادي، ولا يُغضب ذلك أبا الفتاة وأهلها؛ لأنهم يعتبرون ذلك نوعاً من الإطراء لفتياتهم. وغالب عقود الزواج تتم دون أن يسبق ذلك تعارف وثيق بين الزوج وزوجته. على أن الحياة الزوجية هناك رغم ذلك هائلة سعيدة، ولا يُحب الإسباني أن يُكثر صاحبه من زيارته في داره، ولا يُباح للزوجة أن تستقبل ضيفاً إن كان زوجها خارج المنزل، ولا يزال النسوة يلبسن في الحفلات وعند الرقص «طرح» الدنتلا فوق تاج من شبك «الباغة»، والطرح من قماش أبيض، وفي المواقف الدينية يلبسُنها من لون أسود، ويسمونها «مانتيا»، وكذلك يطرحن على ظهورهن الشيلان الحريرية المبهفة. وهنَّ أكثر حشمة من غيرهن من نساء أوروبا، وأجسامهنَّ أقرب إلى الامتلاء لقلة الحركة من أثر لزومهن الدار طويلاً، وذلك لا شك من أثر الحجاب العربي. وهن أقل استخداماً لأدهنة الوجه، وبهذا يُفسر بطء شيخوختهن عن غيرهن ممَّن يُسمَّم الطلاء بشرتهن. وخير ما يُجمل الطرق مشهد السيدات في ملابسهن الأندلسية البديعة، وكثيراً ما تمر بهن في حلقات يرقصن على أنغام القيثارة على قارعة الطريق، ولا يشاطرهن الرجال المخاصرة، بل يقفون متفرجين.

على أن المرأة في إسبانيا سيدة بيتها، وصاحبة الأمر والنهي فيه، وليس الرجل، وتلك بقية لعهد الأمومة أو حكم الأم الذي ساد إسبانيا قديمًا؛ فقد حدثنا التاريخُ أن المرأة الإسبانية كانت في القرون الوسطى أكثرَ نساء العالم حرية؛ إذ كانت على قدم المساواة مع الرجل، وكثيرًا ما كان يحمل الولدُ اسمَ أمه بدل أبيه. ورغم أثر الحجاب الذي خلفه العرب فإنها سيدة العائلة؛ فالأولاد يلبثون تحت إمرتها حتى بعد الزواج، مما أعفاهم من احتمال المسؤوليات التي تخلق في الإنسان الرجولة، وتُربي فيه الجرأة والاعتماد على النفس. ويوصف أهل الأندلس بخفة الروح والإهمال، والقناعة والتسويق، فأنت لا تفتأ تسمع كلمة «مانيانا»، أعني: غداً، وإذا انتقدتهم في ذلك قالوا: ولكنَّ ألسنا مع كل ذلك سعداء! ولا يزال يَعدُّ الناسُ بلاد الأندلس من البلاد الشُّعرية، ويرمون أخلاق أهلها بالانحلال، وحتى سكان شمال إسبانيا يعتقدون في أهل الجنوب ذلك، فهم وادِّعون مُسالمون، يميلون إلى رغد العيش، ولا يهمهم أمر الغير ما دام في جيب الواحد منهم «أونابسيता»، أي قرش واحد.



الأندلسيات في نوافذ دُورهن.

ويُتهم الإسبان بأنهم قُساء، وهم حقًا معروفون باحتمال الآلام، لكنك تلاحظ إلى جانب ذلك كثيرًا من العطف على الغير، مما يبدو متناقضًا. هذا إلى الكرم العربي، وإن أفسد من هذا تدهور أداة الحكم، وتفكير الحكام في إثراء أنفسهم على حساب الصالح العام، وكذلك كانت سيطرة الكنيسة هناك عنصرًا من عناصر الفساد والتدهور، والعصبية

في أوروبا



مثل من الرقص الأندلسي.



في ريف إسبانيا تلبس العروس تلك الطبقات المثقلة بالتطريز الفاخر يوم الزفاف، ثم يُحفظ الرداء لابنتها عندما تصبح عروسًا، وهذه لابنتها ... وهكذا.

الدينية هناك بالغة أشدّها، ولا تكاد تُحصى الحفلات والمراسيم الدينية التي تُضَيِّع كثيرًا من الوقت والمال. ومن عاداتهم التي جاءتهم عن أثر الكنيسة: أن الأمهات يُحرِّمن على الأطفال

الغُسل والاستحمام؛ مخافةً أن يتشبَّهوا بالمسلمين، وذلك ما ساعد على زيادة الوَفَيَّات من الأطفال هناك. ومن أثر عصبيتهم الدينية التي شجَّعها القسُّس بعد طرد المسلمين: ما يُعرف عنهم من تعصبهم لرأيهم، وذلك خلَّفَ فيهم تلك النزعة الثورية التي تُصيب البلادَ دائماً بالفوضى والاضطراب، ولقد أضعفَ ذلك فيهم عصبيتهم القومية إلى حدٍّ كبير. ولا تزال الكنيسة تنشر في الناس كثيراً من خُرافاتها، وهم يحاربون تعليم البنت إلى اليوم؛ لاعتقادهم أن ذلك يُساعد على الزندقة والإلحاد.



الجمال الأندلسي الساحر.

ونساء إسبانيا يُصيبهن السَّمَن مبكراً، لكن أخص ما يمتَّزَن به على سائر نساء العالم: وجوههن الجميلة المشرقة التي تظل رغم وهج الشمس ناعمةً البشرة وضّاءة الجبين، كذلك رشاقتها وقدرتها على الإطراق في تفكيرٍ عميق، ومشيّتها في جلالٍ ودلال، وكم يروقك منظر أغطية رءوسهن المشرفة، والشَّيلان التي يَلْفُفُنها على أكتافهن في ألوانٍ جذابة. على أن اللون السائد في ملابسهن الأخرى: الأسود، وهل أجدرُ منه في الكشف عن فَرَطِ جمالهن؟ وخيرُ ما ترى تلك أيامَ الأعياد والمواسم والآحاد، وعند مُشاهدتهن صراعَ الثيران، أحبُّ أنواعِ الرياضة عند الإسبان، ولا تكاد تخلو منه بلدة من بلدانهم.

في أمريكا الجنوبية

لقد ألفتُ الطابعَ العربي يسود أهل أمريكا الجنوبية إلى أقاصي جبال الأنديز؛ فالملامح العربية واضحة في تقاطيعهم، وحمرة ألوانهم، وسمرة عيونهم، وسواد شعورهم، وبخاصة النساء اللواتي يلبسن أرديةً هي أقرب إلينا منها إلى أزياء أوروبا، فهي أردية قصيرة مهفهفة، أفاريها هادلة منتفخة بعضها فوق بعض، وغالبُهن يُرخي على الرأس «الطرحة» السوداء فوق تاج من شبك العاج، وكأنها شبه حجاب. وهن في رقصتهن لا يُخاصرن الرجال، بل يرقصن في حلقات والصنج (الصاجات) في أيديهن. أما الموسيقى فأحبها لديهم القيثارة، شبيهة المزهر (العود) بضخامة رنينه، ويألفون منه نظام «التقاسيم»، ومن الغناء: التأوه والتوجع (كالغناء البلدي عندنا). والفتيات يقفن ويختلسن النظرات من وراء أبواب نصف مغلقة، فإن نظرت إليهن انزوين وراءها أو عجلن بإغلاقها. ولا يجوز للغادة أن تحضر مجلس الرجال عارية الصدر، ولا يُباح للصدّق زيارة منزل ما إلا في حضرة صاحبه. والزواج يتم بدون تعارف سابق بين الزوجين، ويظل الشاب في كنف أبيه بعد الزواج، وقد تفعل الفتاة ذلك. وهم كرام مؤدبون، لا يمر أحدهم على الغير دون أن يُقرئهم السلام، سواء أعرفهم أم لم يعرفهم، وعند الطعام أو العطاس يُبدي الواحد تمنياته الطيبة لرفيقه كأن يقول: «بالهناء، أو بالصحة»، والسلام عندهم عناق متواصل. وكثير منهم يعتقد في التشاؤم والتفاؤل، فتراهم يُعلقون جريد النخل على أبواب دُورهم مهما كانت فاخرة؛ لأن ذلك بشير بالخير ودافع للسوء، وهم يُقدِّرون الأدب والأدباء والشعر والشعراء التقدير كَلَّه. وفي لغتهم بقيّة من العربية في كثيرٍ من الكلمات.

ومن الأسماء العربية الشائعة بينهم: سارة، وبروكة، وبخيتة. وهم ينطقون بعض الحروف الإفرنجية نطقاً عربياً، فحرفا Z وC يُنطق بهما: ث، وحرف J يُنطق خ، وV يُنطق ب، وD يُنطق ذ، فهو سهل على لسانهم سليل العربية من النطق الإفرنجي. أما بيوتهم



فتاة من أرجنتيننا تحتسي «الماتي»، وتلك العيون العسلية والشعر الأسود واللون الخمرى والوجه المربع يُذكّرنا بالدم العربي.

وهندستها فلا تزال عربية إلى حدّ كبير، فمدخل البيت يكسوه القيشاني، ويلتوي على نفسه كي يحجب الداخل عن أنظار المارة، ويتوسطه فناء رئيسي مكشوف تطل عليه أغلب الحجرات والنوافذ، في أعمدة وبوائك نحيلة، تُزينها المصابيح التي تحكي قناديل المساجد تمامًا، وتُحلي جوانبها أضّص الزهور البديعة، وتتوسّط هذا نافورة عربية أنيقة، وجميع النوافذ والأبواب تغشاها شبك الحديد الثقيل. وكنت ألمس وقار العرب وأدبهم ظاهرًا، فهم يجمعون بين مظهر الأرستقراطية والسيادة والإمارة، وبين بساطة الديموقراطية ورفع الكلفة، واختلاط الغني بالفقير في صعيد واحد.

ونساء أمريكا الجنوبية خليط لا أول له ولا آخر، ولقد نشأ عن هذا الاختلاط (الأبيض والأسود والأصفر) مولّدون قد تجد بينهم آياتٍ في الجمال. والمرأة هي معبود الرجل هناك، لا يكاد يُفكر إلا فيها، فهو يعيش من أجلها، وميوله الجنسية أبدًا ناشطة، حتى قيل عنه بأن الشهوة عنده أضحت فناء الدعارة في نظره ضرورة مشروعة مباحة. وعند ميلاد الطفل لا يسأل الأحباب والأقارب أذكر هو أم أنثى، بل: أيميل إلى البياض أم السُمرّة؟ ولا عجب؛ فإن الدم السائد هناك إسباني وبرتغالي، وفي هؤلاء جمال دونه أي جمال، خصوصًا وأن الطابع العربي يكاد يكون جليًا فيهنّ جميعًا. وقلّما تجد الإسبانية هناك صافية؛ ذلك لأن



تلمس الدم الأندلسي العربي في تلك الغادة من أهل بيرو في أمريكا الجنوبية.

الغزاة الأوائل لم يُحضروا زوجاتهم معهم، فتزوجوا من الهنود الحمر وبخاصة شعوب الأنكا، هذا إلى الاختلاط بالبرتغاليين والطلّيان والألمان والزنوج الذين وفدوا على البلاد في فترةٍ تالية، وسواءً أسادَ هذا الجنس أم ذاك فإن موقف المرأة في أمريكا الجنوبية واحد متشابه؛ فهو وليد تقاليد الإسبان التي ورثوها عن العرب، وهي أن المرأة قعيدة بيتها، تقوم بشئونه وتعمل على سعادة ساكنيه، وحتى في المطاعم والمقاهي كنتُ أرى جمهرة من النساء يجلسن إلى منضدة واحدة، وأخرى من الرجال في منأى عنهن. ونساء أمريكا الجنوبية جميعاً متديّئات، يَخْتَلِفْنَ إلى الكنائس بكثرة، وأظهرُ ما يتزَيَّنُ به صليب من ذهب يتدلَّى من سلسلة دقيقة. وأكثرهنَّ وجاهة وأبَّهة نساء بونس إيرس بسبب ثروتهن، وهن محافظات على قواعد «الإتيكيت» إلى درجة كبيرة.

ولقد عجبْتُ لما علمتُ أن نسبة النساء تفوق الرجال في بارجواي بدرجة مُروعة؛ فهي هناك كنسبة ١١:١، أعني: لكل إحدى عشرة امرأةً رجلاً واحداً؛ وذلك بسبب ما تعاقب عليها من حروبٍ بينها وبين جاراتها البرازيل وأرجواي وأرجنتين وبوليفيا؛ لذلك كاد زواج النساء يكاد يكون معدوماً في الريف إلا لمن كُنَّ جميلات أو ثريّات، وقد دعا ذلك إلى تراخي الرجال وخمولهم في عملهم، ونشاط النساء ومهارتهن، فعليهن تقوم الزراعة والتصرف



سليلة الأنكا من نساء بيرو.

في المحصول بالبيع والشراء، وكذلك سائر المنتجات، لكن السلطة أخيراً للرجل رغم خموله وكسله.

ومن المدهش أن النساء في أمريكا الجنوبية رغم تدينهن، يتسامحن في العلاقات الجنسية لدرجة نَعْدُها شائنة، فبونس إيرس وسنتياجو تُعَدُّ أشنع بلاد العالم في تجارة الرقيق الأبيض.

ولعلَّ في كثرة الوافدين والنازحين من الغرباء الذكور، وبخاصة فيما له علاقةً بمراعي البامباس الشاسعة، مُبرراً لهذا الفساد، هذا إلى جوِّ البلاد الدافئ الذي يُثير الميول الجنسية، ولا يجعل منها جريمة خُلُقِيَّة لا تُغْتَفَر كما هي الحال في كثيرٍ من البلاد الأخرى. وفي أرجواي يشجعون النسل جدًّا، سواءً أكان ذلك عن طريق مشروع أو غير مشروع؛ لذلك كثيرًا ما ترى الأسرة تعمل عددًا من أطفال السَّفاح إلى جانب الأطفال الشرعيين، وأرجواي أولُّ دول أمريكا الجنوبية التي خولَّت للنساء حق الانتخاب، وحق الطلاق، والقيام بالوظائف والأعمال الحرة على قدم المساواة مع الرجل.

ثم كانت جولتي الليلية في أحياء «باريس أمريكا»، كما يُسمُّون عاصمة أرجنتيننا، وما كاد الليل يَنْتَصِف حتى أيقنْتُ أنه جديرٌ بالفرنسيِّين أن يُسمُّوا عاصمتهم «بونس إيرس» أوروبا؛ لأنها تفوق باريس في مجونها وخلاعتها وملاهيها ووجاهتها؛ فدور السينما

والتياترات لا تدخل تحت حصر، ففي بعض الشوارع نراها مُترَاصةً بالعشرات إلى جوار بعضها، في أبنية تروّع المرء بجمالها وثرائها وحُسن تنسيقها، وهم يُبالغون في وجاهتها إلى أقصى حد، فترى الجدران تُكسى بالمرمر الملوّن في نقشٍ بدیع، وتُفَرَش مداخلها ببُسط وثيرة، لا يكاد يُسِيغ المرء لنفسه أن يطأها بحذائه. أما أضواؤها مختلفة الألوان فتخطف الأبصار، حتى ليُخَيَّل إليك أن الشارع كله شعلة من نيران تتغيَّر ألوانها بين لحظة وأخرى، أما المراقص والمقاهي الفاخرة فحدّث عن كثرتها وجمالها! وفي كثيرٍ من المقاهي تُعرَف جوقة موسيقية في شُرْفَةٍ عالية من دونها مناضد الجالسین، وأما جمهور القوم في تلك المحالّ والذين نراهم يَجوبون الطرق، فيبْدون في هِنْدَامٍ أنيقٍ نساءً ورجالاً، وهم يُبالغون في الوجاهة ويحبون الزهو والفخفة، ويَطربون لاستحسان الناس لأزيائهم وهم غادون أو راثون، وتلك النزعة يُعرَف بها أهل أرجنتينّا كلهم، وقد علمتُ أن جُلهم يُنفِق ما يَزيد على دخله؛ مخافة ألا يبدوَ وجيهاً بين بني قومه؛ لذلك كان ادّخارهم قليلاً.



لا تزال القبائل الهندية تعيش على الفطرة في بيرو.

وسكان الريف من الجوكا، ولا يزال أثر الرعاية في الأهليين واضحاً في نظام سيادة رب العائلة، فالشابُّ إذا تزوّج يَظَل في كَنَف أبيه، والحفيد كذلك، وقد تفعل البنتُ ذلك إذا ما تزوّجت. والجوكا جَمَعوا الأدب الإسباني إلى الوحشية الهندية، فتراهم ساعة طُروبين لسماع الموسيقى الشجّية، وبعد لحظة مُنهمكين في ذبح حيوان أو عدوّ لهم بدون رحمة. ويروّق منظّرهم في هندامهم المزرکش تزينه الأزرار والمهاميز، ولمن أراد أن يتعرّف شيئاً صادقاً

عن الأرجنتين فليُخَالطِ الرعاة ويأكل معهم شواءهم (Asado) الذي يوضع حول سَفُود (سيخ) كاملاً وبجلده (Carne con cuero)، وكل واحد يقطع منه شرائح يأكلها طازجة، ويقولون بأن بقاء الجلد يُكسب اللحم رائحة زكية. والجوكا لا يبدو مرحاً ضحوكاً كما يبدو الإسباني، وحتى في رقصته التي يقف الرجال والنساء فيها دوائر يرقصون ويفرقعون بأصابعهم تجدهم مُقَطَّبِينَ، وجل الملاك من الإسبان وزوجاتهم من السود، أو سلائل أخلاط السود والهنود، وتحببهم شاي الماتي تُقدِّمه الزوجة، والقوم جلوس على مقاعد من جماجم الثيران الكبيرة. وقد يلاحظ على أبناء المالك تَغْيِيرُ السَّحْن؛ لأنهم من زوجات مختلفات. ويقتني فتياتُ صاحب المزرعة عادةً نعامتين؛ واحدة من السهول المجاورة، والثانية — وهي الأصغر حجماً — من بتاجونيا.



نساء سلائل الأنكا في جبال أنديز.

أما سَحْنُ الناس في سنتياجو عاصمة جمهورية شيلي فتسترعي النظر بكثرة تنوعها واختلاف تقاطيعها؛ فبينهم الجمال الفاتن، والسَّحْنُ المنقُرة؛ وذلك لكثرة اختلاط أنسابهم مع الغير من الأجانب ومع الهنود الحمر، وذلك واضح جداً في الطبقات الوسطى والدنيا، وأجلى ما يرى ذلك في سُمرة الوجوه والشعر المغولي الأسود المرسل، الذي كان يُذَكِّرُنِي في بعض السيدات بشعور بنات اليابان. وقد تصاهر الإسبان الأوائل عندما حلُّوا البلاد بالهنود؛ لأنهم لم يُحضروا نساءهم معهم، أما الإسبان الأصفياء من أبناء البلاد فيمُتَّلُون

الطبقات الأرستقراطية، وكنتُ أعجب لوقوف الرجال على جانبي الطرق ساعاتٍ طويلة في أحسنِ هندامهم، ولا عمل لهم إلا استعراض المارة من السيدات وإبداء الملاحظات والمغازلات، وقد هالني أمرُ رجل خلع قُبْعته وانحنى، وصاح في وجه سيدة جميلة، ثم تبعه صحبه ضاحكين، والسيدة لم تُبدِ أيَّ امتعاض، ولم يَستنكر أحد الناس هذا العمل. وحرية النساء هناك بِالْغَةِ الحد، فالسيدة تُصَادِق مَنْ تشاء على علمٍ من زوجها، ويُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُنَّ لا يَقْرُن في بيوتهن قط؛ لكثرة مَنْ ترى منهن في الطرقات في كل آن، وقد أذكرني ذلك بإحدى الشهادات التي طلبتها مني مفوضيتهم في مصر لتثبت لهم رسمياً بأنه لم يسبق لي الاشتغال بتجارة الرقيق الأبيض، وذلك كثير الانتشار عندهم.

وفي فلبريزو كم كنتُ أتألم لمظهر البؤس الذي كان يتجلى على وجوه الكثير وأزيائهم، وغالب القوم هناك مُنكبُون على إدمان الخمر وعلى الإسراف في اللهو والمجون ليلاً، ويكادون يظنون كذلك حتى الصباح، على أن وسائل اللهو هناك ليست بالكثرة والفخامة التي رأيتها في بونس إيرس؛ لذلك كنت أسألك نفسي: ماذا عسى أن يفعل هؤلاء لو أوتوا من الغنى ووسائل اللهو ما أُوتِيَهُ أهل بونس إيرس؟

أما جمال السيدات وتدلُّهن في السير ففائق الحد، وكثيرٌ منهن ممن يَمْلَن مع الهوى، وبيوت الدعارة لا حصر لها، غير أن البوليس يراقبهن في شدة وصرامة، فلا يَسمح لإحداهن بالمرور في الطرقات أو معاكسة المارة، غير أَنَّهُنَّ يَتَلَمَّسن غفلته ويجتذبن المارة ويُصفرن لهم ويُثرن بأيديهن. والأمراض السريّة منتشرة في طول البلاد وعرضها حتى بين صغار الأطفال، وبخاصة أبناء السبيل. وسكان البلاد الأصليُّون وهم قبائل أروكانا من الهنود لم يَغلِبوا أبداً، ولا تزال منهم فئةٌ من مائة ألف في الجنوب، ويسمون أنفسهم Mapuches، أي أهل البلاد. ويُفاخر كثير من أهل شيلي باختلاط دمه مع تلك القبائل، وهم ذُو أجسام ممثلة وقامات متوسطة، وأجمل ما ترى حفلات الرقص، وفيها يقفون نساءً ورجالاً في دوائرٍ مُتلاصقي الأكتاف، ويدورون في هرولة غريبة على نقرات الموسيقى تُدَق على قطعٍ من خشب، وفي ختام الحفلة تُشوى بعض الخيول وتُؤكل مع الذرة، ويُشرب الخمر في إسرافٍ فظيع، وأسوأ ما يتعرضون له اليوم إدمان الخمر الذي يبتاعونه بالجلود، وكثير منهم يعيش على الفطرة، خصوصاً في الجنوب، ويؤثرون أكل لحوم الخيل. والأمراض منتشرة في شيلي كلها، وبخاصة الجدري والكوليرا، ونسبة وفيات الأطفال كبيرة لجهلهم وقذارتهم، فنحو ٤٠٪ منهم أميُّون، ولا تزال لدى الأمهات الخرافة التي تقول (بأن تسعة ملائكة صغار خيرٌ ضميرٌ بدخول الجنة)، أعني أن الأم التي يموت لها تسعة تدخل الجنة،

وقيل إن تعصبهم الديني الكاثوليكي عاون ذاك التأخر؛ فالكنيسة تُشاطر في قسم كبير من موارد الدولة.

وصادف يومنا يوم الأحد، فكانت جميع المتاجر مغلقة وحركة البلد نادرة، إلا النساء اللواتي كُنَّ يُشرفن من نوافذ بيوتهن ويحاولن اجتذابنا بالإشارات والنداء والابتسام.



سيدات الأروكانا بسحنهن المنفرة في أمريكا الجنوبية.

وأهل ليمابيرو: يسودهم الاختلاط، وفي غالب السحن تتجلى التقاطيع الهندية الأمريكية، وفي كثير من الظروف كنتُ أحسبهم صينيّين، لكنهم سكان البلاد الأصليّون اختلطوا بالجنس الأبيض. وقد استرعى نظري ورقٌ أخضر يمضغونه جميعًا وبخاصة الرجال، وهو ورق شجرة الكوكا التي يُؤخذ منها الكوكايين، ويقولون عنه بأنه عظيم الأثر في إمداد الناس بالقدرة على العمل واحتمال المتاعب؛ إذ بمضغه يستطيع الرجل أن يسير في الجبال أيامًا متتالية دون شعور بتعب، وفي غالب دول غرب أمريكا يشربون منقوعه بالماء الساخن ليُسكّن أوجاع المعدة.

وكلما أوغلنا في الداخل لأقينا شعوبًا أكثر سذاجة وأبعد عن المدنية من أهل الساحل، سلائل الإسبان الذين لم يختلطوا بالهنود، وهم على جانب كبير من الثقافة والتحضّر، ونساءهم أجمل نساء أمريكا الجنوبية، خصوصًا في ليما، اجسامهم في ميلٍ إلى السمنة



قبائل الجفاروس صيادي الرؤوس يسرون عُرة في إكوادور.

لكثرة استقرارهم في البيوت ولقلة اشتغالهم بالرياضة، ويكثرن من التزيّن ولبس الحلي، ويبي الإِسبان في بلاد الوسط هنود كوتشوا النشيطون، ولغتهم هي السائدة. ولكثرة مضغهم لورق الكوكا قلّ ذكاؤهم؛ ولذلك ترى النساء أذكى من الرجال؛ لأنهن لا يمضغنه إلا نادرًا. وتعد الزوجات شائع بينهم خصوصًا حيث يكثر النساء عن الرجال. وبين بعض قبائلهم من يعتقدون أنهم إذا قتلوا عدوهم وأكلوا لحمه انتقلت إليهم قوته، وهذا ما حدا بهم إلى أكل لحوم البشر أحيانًا.

وأعجب القبائل في إكوادور جيفاروس Jivaros، ومن عاداتهم الغريبة أنهم إذا استيقظوا في الصباح دفعوا ريشة في حناجرهم؛ ليتقيأوا ما تخلف في معداتهم من طعام اليوم السالف؛ محافظة على صحتهم، ويعرف عنهم أنهم أصحاء ومُبَالِغون في مُراعاة صحتهم، ويعيشون على اللحوم المصيدة وعلى أجهزة «الكسافا» التي تشبه البطاطس، ومنها يُعدّون خمرهم، وذلك بأن يمضغ النساء الجذور ويتركونها تتخمّر، وهو شراب مُنعش مهضم يساعد على عدم إضرار اللحوم بجسومهم. ويتزيّن رجال الجفاروس بعقود من الأزهار وغاب في الأذان، ويرسلون شعورهم ويضفرون فيها ريش الطير الأصفر، ولا يلبسون سوى قطعة قماش تُلف حول الخصر ونصفهم الأعلى عارٍ، وقد لا يرتدون شيئًا قط، وهم أشرس الهنود هناك، يُطلق عليهم اسم: صيادي الرؤوس. ومن أعجب عاداتهم

أنهم يقطعون رءوس أعدائهم ويثقبونها من الخلف، ويُخرجون ما في جوفها ثم يملئونها رملاً ساخناً، فينكمش الرأس إلى ربع حجمه ويُصبح شبه مُحنَّط، وعليه الشعر الهادل الطويل وأجزاء الوجه وبشرته، فيبقى شبه الشخص كاملاً، ثم تُعلَّق في البيوت تفاخراً بالنصر، ولا بد أن يُحصَر بعض نساء الأعداء ويُكَلَّفن أن يرقصن ويبكين على مشهدٍ من ذاك التمثيل بأهلهم. ولا تزال تلك العادة شائعة بينهم رغم تحريم الحكومة لها، وتُباع تلك الرءوس في كثيرٍ من ثغور بيرو وإكوادور خلصة، وقد غلت أثمانها حتى بلغت ما بين خمسة جنيهاً وعشرة؛ لأن القانون يُحرِّم بيعها. ومن عادات هؤلاء الهنود كثرة الوشم والتجريح، والنقش على الوجه بأشكالٍ تدل على قبيلة الفرد منهم، وهي في الرجال أكثرُ منها بين النساء، وكثير من القبائل تُلبس موتاهن أردية جديدة مُزركشة لتنفعهم في الآخرة. وهم صيَّادون مهرة، يستدلُّون على قنصهم بحاسة الشم المرفهة لديهم، إذا أراد أحدهم الزواج اصطاد قنصاً وألقى به إلى قدمي خطيبته، فإن أخذته وطبخته كان دليل الرضى والقبول، وإن أعرضت عنه باحتقارٍ كان عنوان الرفض. وهن يجمعن بيض الأفاعي من الغابات ليأكلوها.



المولدون من أهل كزكو في بيرو.

قُمنا نخترق قناة بنما: أما عن الحياة ليلاً في بلادها فحدثت في دهشة، ليس لها حد، وإسراف في المجون لا يُوصَف، حتى خِيلَ إليَّ أن جميع نساء البلدة داعرات يقفن في الطرقات

وأمام بيوتهن في كل مكان، ومَقاصِف الخمر والمراقص تعم البلدة، ولا عمل للناس فيها إلا السكر والنساء، وحتى نساء الزنوج تراهنَّ قد غالَيْن في التبخُّر في المشية، والتأنُّق في الملابس، والتبرُّج في زينة الوجه وطلائه بألوان تؤثر في اللون الأسود وتُحيله قَرْنَفُليًّا، وهنا تجلَّت الإباحة الأمريكية التي كنتُ أسمع عنها من قبل، فهُم من الشعوب الذين يستبيحون أن يأتوا في سُويعات الفراغ ما يروقهم، ويُعطون النساء من الحرية حدًّا نراه نحن مَعيبًا. وسكان الإقليم خليط من شعوبٍ عدَّة، جلُّهم من السود، ثم الإسبان والهنود والصينيُّين والأمريكيين، وأخلاقٍ من كل أولئك، فأنت تدهش لاختلاط الألوان وتغيُّر السَّحْن أيما سرَّت. وقسم من البلاد تحت إشراف الولايات المتحدة؛ لأن قناة بنما ملك لها؛ لذلك كان الأثر الأمريكي الاجتماعي سائدًا بين أفراد شعب من الزنوج، يُسيء فهُم الحرية ولا يدري ما حدودها، والمستعمر يتركه في غيِّه؛ لأن في ذلك غَضًّا عن المقاومة، وخطًا من العصبية القومية.

في أمريكا الشمالية

أخيراً حلتُ نيويورك، وأسعرتُ إلى أشهر أنحائها وأمعنِها إسرافاً في اللهو، وهو برودواي. أما سيل الناس وبخاصة مساء الأحد فذاك أمره عجيب، الأكتاف تتلاصق في غير مبالاة، وأينما كنتُ أسير كان يقودني تيار الناس ودفعهم لي، والسيارات الفاخرة تسدُّ الطرق، وكنا نسمع أصوات الراديو منبعثة من كل سيارة في جلبّة كبيرة. وظل جميع الناس إلى ما بعد الثانية صباحاً من بينهم الأطفال الصغار، ولهم العذر؛ إذ المكان يُبهر العقول ويستهوِي من الناس الحكيم الرزين، فما بالك بالأطفال ضِعاف الأحلام. وكنتُ كلما هممتُ بالعودة إلى الفندق لأنام ووجَّهتُ خطاي إليه، أجدها تُسائر التيار وتأبى إلا التجوُّل في تلك المنطقة الساحرة. أما خروج الغانيات والشبان عن الحد المألوف في تبخُّرهم وعناقهم وتقبيْلهم على قارعة الطريق، فذاك ما كان يروعني كثيراً، فكأن الإباحة قد بلغت هناك غايتها وامتنع الحياء بتاتاً، والمدهش أن ذلك لم يكن يسترعي من المارة لفتة استنكار أو امتِعاَض، فالكل راضون بذلك، وهل الحياة في نظر برودواي إلا هذا المتاع والإسراف في المجون؟ وهل أنسى دهشتي وأنا أجوب جوانب ذاك الشارع الخلاب (برودواي) والأكتاف تكاد تتلاصق، وإذ بحسناء تجري وسط تلك الجموع الكثيفة وتُعاكس الناس يميناً ويساراً، وما أن وجَّهت نظري إليها حتى أمسكتُ بصدري وأدارتني بعنفٍ، ثم «زغزغتني» وضجَّت وهي تصيح قائلة: Excuse me, I am crazy. ومضت في مرحها هذا، ولم يُثر ذلك من استنكار المارة شيئاً، ومن أمثال ذلك كثيرٌ وقع لي مرات عدة!

وكم أدهشني الفرق الشاسع بين الأهلين هناك وبين الإنجليز، رغم أنهم أبناء لسان واحد، فأخلاقهم مُتباينة، فالأمريكية تستنكر من الإنجليزية ترَفُّعها عن الدخول في محادثة الغير، وترميها بأنها صمَّاء خاملة الفكر، والأمريكية سريعة التعارُف ورفع الكُلفة عن

غيرها، ولا تُخفي عن الغير حتى دخائل بيتها، فهي تتحدث للناس عن مبلغ كسبها، وعن نشأتها الوضيعة، وعن طريقة إثرائها، تلك الأمور التي تجعلها الإنجليزية سراً مكتوماً. ولعلّ أُمَيَز صفاتها: شدة بساطتها عن نساء أوروبا جميعاً، فأنت لا ترى فرقاً بين هندام الممول الكبير والعامل البسيط هناك كما ترى ذلك واضحاً في أوروبا، ولا تكاد تجد من الأنزال والمطاعم ما يخصّ طبقة دون غيرها، فالكل سواسية على عكس ما ترى في إنجلترا مثلاً. والأمريكي في رياسته للأعمال مَدِين لكفayaته ودهائه. وهو نشيط، يقظ، مُقدام، مُغامر، يحاول أن يستعين بالنظريات العلمية على تذليل الصعاب كلّها، وهو أقل سكان الأرض قناعة، وهو أبداً نزاع إلى السمو والنمو، فهو يَعْبُد النجاح، ورمز ذلك المعبود «الريال القادر» The almighty Dollar كما يسمونه. ومن العجيب أن ذاك الإخلاص «للدولار» لا يصحبه بخلٌ أو تقتير أو حقد على الغير؛ إذ يرى العامل على صفاء مع مُزاحمه، يكلمه في غير كُلفة كأنه أخٌ له حميم.



أبعد ما يرى جمال الجسم الآدمي في هذا الوضع من الراحة والاسترخاء، بعد العجالة وعناء العمل في أمريكا.

والولايات المتحدة أكبر مصهر للأجناس، تندمج فيها خيرُ كفايات العالم، وقد كان ينزح إليها إلى طلائع الحرب الكبرى مليون وربع في كل عام، وإنك مُدركٌ هذا الاختلاط



إحدى جميلات أمريكا اللاتي يشتغلن بالطيران.

العجيب لمجرد قراءة الأسماء التي تُكْتَب على رءوس الحوانيت في نيويورك، فأنت تكاد تمر على كل اسم من الأسماء المعروفة في كل بلاد العالم المتحضّر، فمن اليهود مثلاً في مقاطعة نيويورك وحدها عدد يزيد على يهود فلسطين كلها خمسة عشر ضعفاً، ومن الطليان عدد يفوق سكان روما كلها، وفي كليفلند زهاء ثمانين في المائة من السكان من عنصرٍ أجنبي، وتشتهر مدينة ملووكي بأنها ثالثة المدن الألمانية في الدنيا.

وكثيراً ما نحكم على مركز المرأة الأمريكية مما نشاهده من السائحات الأمريكيات اللاتي لا يمثلن عامة النساء هناك، بل يُظهرن ثراءهن وفاخر ثيابهن في شكلٍ قد يُثير السخرية؛ ففي أمريكا يجب أن نعلم أن المرأة صديقة الرجل، وأن كلاً من النساء والرجال يعتقدون أن المرأة أم على كل حال، فالرجل يحترم المرأة هناك أكثر مما تُحترم زميلتها في أوروبا مثلاً، فهي تستطيع السفر والتنقّل آمنة مُستريحة، وتلقى كل عطف وإجلال أينما سارت. وقد اعترف الرجل في أمريكا بأن المرأة أرقى منه وأسمى مكاناً؛ لذلك بالغ في احترامها وعمل وُسْعَه على تزويدها بوسائل الراحة والترف، ولقد كان لذلك أثر سيّئ على كثيرٍ من النساء هناك؛ إذ أسأَن فهمه وبالأغْن في اللهو والمجون وفي تبديد ما وفره لهن أزواجهن من مالٍ وفير، وكثير من الأزواج يُسايرون زوجاتهم في ذلك، ويتحدّثون عن ثروتهم، ويُفاخرون بما يُقيمون من ولاءم وحفلات تُكلّفهم بين ثلاثين وخمسين ألف ريال. ويُنفق نساء الولايات المتحدة على وسائل التجميل من أدهنة ومساحيق وما إليها

زهاء ٣٠٠ مليون جنيه سنوياً، وقد سرت تلك العادة حتى إلى الإنجليزيات، فبلغ ما يُنفق في إنجلترا على هذا السبيل ٧٠ مليون جنيه سنوياً، ولقد أغرى هذا مُروجي الترف من أهل باريس وفيينا أن يجدوا لصناعتهم أحسن الأسواق في نيويورك، فسافروا إليها وأقاموا أفخم «الأبرات»، زُوِّدَت بخير الموسيقيين والملحنين والمغنين، يستمع إليها جمهورُ الوجهاء من الأمريكيين الذين قد يجهلون الموسيقى جهلاً تاماً، وقد أخذ أولئك يُنفقون الملايين؛ فسبب ذلك ارتفاعاً في كُلِّ الحياة بين سائر الطبقات، وسرعان ما زادت فوارق الطبقات وضوحاً، ممّا أدّى إلى زيادة التبرُّم بالحياة، والعمل على الإخلال بالأمن.



يستريح الطالبات من عناء الدرس في فترة الظهر في جامعة مسوري.

ولقد مُنح النساءُ حقَّ المساواة العامة مع الرجال في الأعمال والوظائف والتعليم (وإن تأخر حقُّها في الانتخاب بسبب كثرة الدخيل من النساء الأجنبية بين الزوجات في أمريكا). وفي الجامعات يُنفق الرجل على أولاده وبناته جميعاً، فإن لم يستطع فضل أن تبقى البنت في دور التعليم، وعجل بإلحاق الولد مصنعاً أو محلاً للكسب؛ لذلك أصبح المستوى الثقافي عند النساء أرقى منه عند الرجال هناك، ونلاحظ ذلك في سعة الاطلاع؛ فبلاد أمريكا من أوفر البلاد عناية بطبع الكتب والمؤلفات في كثرة لا تُبارى، وتعجب لو علمت أن أكثر قرائها من النساء؛ لذلك حشي البعض سوء العاقبة وزوال السعادة الزوجية في القريب، بسبب الفرق الشاسع بين عقليّات الأزواج والزوجات.

ولقد أحدث النساء أثرًا اجتماعيًا عظيمًا بفضل الأندية والجمعيات التي شكّلنها لتحسين الأحوال العائلية والصحية لسائر الناس، وقد جعلن قيمة الاشتراكات زهيدة، لدرجة أن أفقر النساء يَسْتَطِيعن المساهمة فيها، ومما تقوم به تلك الجمعيات: تعليم الجاهلات، وتنظيف الأسواق وأمكنة الاجتماع العامة والشوارع، وإلزام البائعين أن يلفوا المبيعات في ورق نظيف، وهُنَّ يدخلن البيوت ويتعهّدنّها بالنظافة، وتعليم الأمهات أصلح الوسائل لرعاية الطفل وتلقّي المحاضرات في دور التعليم ليلاً، ويعمل الأعضاء على تيسير أبواب الرزق للخريجين الحديثين من الشبان والفتيات، ومبَدُوهم أن المدينة أو القرية كالبيت، فما دام الواجب يُحْتَمّ على الأم المحافظة على نظافة مسكنها، كذلك وجبت المحافظة على البيت الكبير، ألا وهو القرية. ولقد زاد عدد تلك الجمعيات على مليونين، ولا ننسى أثر هذه الهيئات — وكلُّ أعضائها من النساء — في إنقاذ أوروبا من المجاعة في سنة ١٩١٨ حين استنجدت بأمريكا، فقررت تلك الجمعيات أن يُوقَف عمل الخبز من القمح إلى موسم الحصاد المقبل؛ وذلك لكي يُرسل الفائض إلى أوروبا وينقذها، وهكذا سجّل نساء أمريكا لهنَّ يدًا بارزة بأوروبا وأهلها. ولا شك أن الصداقة والولاء المتبادل بين المرأة والرجل هناك هو سبب هناء العائلة، فالأولاد والبنات يتربّون في مدارس واحدة إلى آخر مراحل التعليم، وتنشأ بينهم علاقات ودية كثيرة لا يقف الآباء في سبيلها، وحتى حق الطلاق تتساوى فيه المرأة مع الرجل تمامًا.

وللمرأة أن تتقلّد أكبر المناصب والأعمال، ولا يحقد الرجل عليها بحجة أنها تزاحمه، فميدان العمل يتساوى فيه الجميع. ونجد أكثر الرّحالة من النساء، وتلك وسيلة من وسائل الثقافة عندهم، وكلما قامت سيدة برحلة حاضرت ذويها فيما رأت، وبعضهنَّ يُشجعن الرحلات الداخلية أولاً. ولبعد الشُّقة بين طرفي المملكة؛ ذلّت طرق النقل وزوّدت بوسائل من النعيم لا تتوافر في غيرها، وإذا اتُّخذ عدد الطلبة في الجامعات أساسًا للحكم على ثقافة الشعب فسكان الولايات المتحدة لا شك أكثر أهل الأرض تهذيبًا وثقافةً. على أن كثيرًا من الطالبات يلزمن آباءهن بالإنفاق عليهن في الجامعات، لكنهن لا يتخذن الدراسة أساسًا، بل هي فرصة للاختلاط بالشبان وتمضية وقت سعيد معهم *a good time is had by* all، وكثيرًا ما يكون ذلك مُنشطًا للزواج المبكر في تلك البلاد، وكثير منهنَّ يوثقن علاقة الزوجية سرًا مع الشبان، ويخفيان ذلك عن الآباء؛ إذ إنهم لم يبلغوا بعدُ مرتبة كسب عيشهم، ولا تكاد ترى فتاة ليست على علاقة من أي نوع مع أحد زملائها من

الشبان، ولعلَّ أمريكا أكبرُ البلاد سُمعةً في تلك الناحية؛ لأن أهلها — وبخاصة فتياتها — عُرِفْنَ بالانقياد للعواطف، والحرية التي تبلغ بهن حد الإباحة، ولا يرى الآباء في ذلك عيبًا. وأمريكا هي البلد الوحيدة التي يكاد عدد خريجي الجامعات من النساء يُكافئ المتخرجين من الرجال، وذلك دليل على المساواة التامة بين الجنسين.



يعتقد الأمريكيَّات أن الاستحمام برغوة اللبِن منشطة للأعصاب والعضلات، ويُكسب الجلد نعومة.

فتحرير المرأة هناك قارب نهايته وفاق سائر البلاد الأخرى، ويكفي أن تمر داخل حدائق إحدى الجامعات لترى كيف بلغت الإباحة هناك حدّها المزدول.

لذلك يصف غالب الناس الأمريكية بأنها «خليعة»، وهي حقًا ساحرة في عِشرتها، لكن يقول الكثير بأنه جدير بنا أن نُدافع عن خلاعتها هذه؛ فهي لم تتلقَّ في تعاليمها قط بأن الرجل ممتاز عليها كما هي الحال مع فتيات العالم أجمع، فلقد شَبَّتْ مُختلطة معه في جميع أطوار حياتها، وساوَتْه في كل شيء، فلم ترَ له تلك الميزة، ولم تُطَبَّع فيها منذ الصغر تلك العقيدة التي تجعلها تظن أن الزواج المبكر أمر لازم لها، وبذلك تُضطرُّ أن تُرحَّب بأي شخص يَخطب يدها، بل هي تترَيِّث في أمر اختيار الزوج طويلاً.

والأمريكية تمتاز بحضور بديعتها وسرعة فهمها، وليس ذلك بمستغرب؛ فقد حلَّت البلادَ مع زوجها مهاجرة إليها، بل ومجاهدة، حتى وصلت جبهة الباسفيك، كذلك فهي

خلاصةً لخير ما أنتجته البشرية من أجناسٍ لا يخبو نشاطها ولا يركد ذهنها أبداً. والأمريكية أم بكل معنى الكلمة؛ فهي التي ترعى الأطفال وتعلمهم وتثقفهم، أما الرجل فمُنهمك وراء الحصول على ذاك «الريال السحري»، وقلماً تُسلم أطفالها للمربيّات؛ لذلك فإنها تفهم نفسيّاتهم في دقائقها، وإذا ما بدأ الأُنجالُ سنَّ اختيار الجامعة الملائمة كانت هي خير مُرشد لهم في ذلك؛ لأنها عليمّة كالآب بمستوى التعليم، وهي تفوقه في أنها درّست أولادها دراسة سيكولوجية عملية، وهم إن ابتعدوا عنها في جامعاتهم يُثابرون على الكتابة إليها، فلا يَحرمون تثقيفها إياهم حتى في آخر مرحلة من مراحل تعليمهم.

وفي المدارس يشبُّ الطالب على ضرورة العمل للكسب مهما بلغ جاهُ أبيه، ولقد كان لاختلاط الجنسين في التعليم فضلٌ في منع التكلّف والتمويه من أخلاق النساء؛ لأن ذلك علّمهن الصراحة في القول والعمل، هذا إلى أن ذلك أكسبها خبرة بنفسية الرجال، فوفّقن على عيوبهم وفضائلهم واقتبسن منها الكثير.

وصلنا لوزنجلين، فكانت حياة الليل فيها وخصوصاً في شارع الملاهي برودواي يُبهر النظر ويستهوِي الحكيم، فالمقاصف والمقاهي تعددت أشكالها وبُولغ في تنسيقها، ودور الملاهي وبخاصة السينما فاقت كل وصف جمالاً، وحركة المرور في الشوارع تُسد الآفاق سداً.

وقد ألقنني الترام إلى هوليوود فدُهشتُ للحياة كيف تسير في تلك الناحية، كنت أرى النساء قد ظهرن في أزياء الرجال؛ من سراويلَ وجاكِتات، وأربطة رقبة، وشعر مقصوص، بحيث يصعب التعرف إليهن بين الذكور. ومن الرجال مَن دهن وجهه، وحمّر شفاهه، وأرخی شعره، ولَمَع أظافره، وسار بتبختر، وبيته عجباً كأنه الأنثى الحسناء. أما عن جمال السّحن ودلال المشية وفاخر الهدام فذلك لم أره في مكان قبل هذا، وكثير من أولئك من سَراة العالم أجمع، وبعضهم من نجوم السينما الذين طبّقت الآفاقُ سُمعُتهم. ومنهم مَن وفد من النساء والرجال طامعاً في الغنى، راغباً في الجاه، ساعياً بجماله وخفّة حركاته ورشاقة قدّه وشجّيّ صوته أن يُصبح في عداد تلك النجوم. ولا عجب أن تُصبح هوليوود بُغيةَ الناس من أقصى الأرض، وهل يُتاح لهم من المجون ووسائل اللهو والإسراف ما يُلّقونه هناك؟ وهل في الدنيا سوى هوليوود واحدة؟ وما أبدع ما يَرى شارع «هوليوود بوليفار» قلب المدينة النابض، وشارع «هوليوود أفنيو» الذي يليه فخاراً ويقطعه متعامداً عليه! ما أبدعهما ليلاً حين تكاد الأضواء فيهما تُبهر النظر وتستهوِي الرزين. وقديماً عَرِف الأمريكيون بالإسراف في سُبُل الإعلان، ومن أخصها الإضاءة الملونة المتحرّكة ليلاً.

نساء العالم كما رأيتهن

ولم أكد أوغل في أطراف المدينة حتى بدت المساكن الأنيقة، بحدائقها المنسقة التي تُشعر
بغنى أصحابها المفرط وحُسن ذوقهم وجميل اختيارهم، وبخاصة فوق تل يُسمونه بيفرلي
Beverly حيث رأينا جل منازل النجوم في إبداع يفوق الوصف.



آية من آيات الله تَسطع في سماء أمريكا.

وعدتُ في اليوم التالي أزور هوليوود لأنني لم أَشَف من جمالها غلّة، وتزوّدت منه طوال
اليوم. وقد لاحظتُ أن الحياة أغلى منها في سائر البلاد؛ فلا أكاد أخرج الريال حتى لا أرى
له بقية، وأنت لا تزال تُنفق الريال تلو أخيه حتى يُصبح وفاضك خُلوا من المال، وعندئذٍ
تُففق لنفسك، ولا تندم على ما أنفقت في سبيل الوقوف على حال هوليوود وأهلها. ولقد
جنّت هوليوود في ظني على الجمال الطبيعي فأفسدته وجعلته جامدًا موحدًا؛ إذ ترى نجوم
السينما ومن يلف لفهم يَسرن على نمط واحد في تجميل وجوههن من أسنان ورموش
وشفاه وأظافر، وما إلى ذلك، حتى كان وجه الأنسة وكأنه «كليشيه» واحد طُبِع على ورق
مختلف، فلم يترك لكل ضرب من ضروب الجمال شخصيته الممتازة الساحرة. ولكن برغم
هذا التكلّف فإن الجمال في هوليوود ليأسر الزائر ويستهويه.

قامت بنا الباخرة تبرح لوزانجليز وضواحيها بعد أن أقمنا فيها يومين كاملين، ولم
يبق في السفينة من الستمائة مسافر الذين وفدوا من زيلنده وهنولولو سوى مائة، والباقيون



عيون في طيِّها السحر الذي جعل أمريكا مطمَح أنظار الكثير.

أسرعوا إلى المقام في هوليوود، وقد أقفرت الباخرة من أنسهم وخفة روحهم، فجلهم ممن ألفوا حياة المجون واللهو في غير قيد لدرجة كانت تهولني، فالأنسات يَختلفن إلى الفتيان، ويغازلون بعضهم البعض جهارًا، ثم يكون التقبيل «والزغزة» والاحتضان، وما فوق ذلك مما كنتُ أستنكره كثيرًا، والعجب أن ذلك لم يكن يَسترعي من أنظار الآخرين أو يُثير سخطهم، بل على النقيض من ذلك، كانوا يساهمون فيه. وحتى الأمهات أو الآباء كانوا يُساعدون بناتهم على ذاك اللهو، وكثير من الفتيات كنَّ يَسنرن عرايا في غير حياء، وكانوا يسخرون مني إذا ما غضضتُ الطرف عنهنَّ وعمَّا يأتين. ولم أشهد من الإباحة في أسفاري السالفة ما شهدته هذه المرة! ولا عجب؛ فجل القوم من الأمريكيين «الهوليووديين» والنيوزيلنديين والأستراليين، وكلهم سواسية في الأخذ بأكبر نصيب من الإباحة في كل شيء. وفي سان فرانسيسكو كانت حياة الليل صاحبةً مائجة، تزينها الأضواء الملونة التي ألّفناها في هوليوود ولوزانجليز في إسرافٍ كبير، ودُور الملاهي لا تُحصى، والمطاعم والفنادق تُعدُّ بالمئات؛ ففي سان فرانسيسكو ١٥٠٠ فندق، وفوق ٣٠٠ مطعم، مع أن سكانها لا يزيدون على سبعمائة ألف، وقد عجبت كيف تجد تلك الفنادق والمطاعم من الزائرين ما يكفيها، لكنني علمتُ أن نحو ٥٥٪ من سكان المدينة من رواد تلك النزل والمطاعم، مما أفقد البيوت رونقها وكاد يقضى على نظام العائلة البديع، فلا يكاد أحدهم يأكل في بيته قط،

وكثير منهم ينام في الفنادق — نساءً كانوا أو رجالاً — وإذا أضافك أحدهم على طعامٍ أو شرابٍ دعاك إلى أحد تلك المطاعم، أما البيت وما له من حُرمة مقدسة وجميل أثر في تربية النشء فذاك ما لا تراه هناك قط. وكثير من تلك الأماكن باهظة التكاليف؛ إذ أجرة البيت فيها يفوق ستة ريات في الليلة الواحدة، على أنك تجد الكثير بين نصف الريال والريال. وجل المطاعم على النظام «الوقافي»، تخدم نفسك وتدفع ما بين خمسة قروش وعشرة في العادة.



إحدى فتيات الهنود الحمر من غرب أمريكا، ويندر أن تجد بينهم مثل هذا الجمال.

وفي جاسبر وسط جبل الركي استرعى نظرنا عمودٌ يسمونه Totem Pole، يذهب عهده إلى ١٨٠٠ سنة قديمًا، وهو رمز سيادة الأسرة عند الهنود الحمر، يحتفظون به ليدلّ على أنهم من أصلٍ عريق شريف، وكنا نرى قليلًا من الهنود بوجوههم القبيحة ولونهم الأغبر الكدر وقاماتهم القصيرة وأكتافهم المقوّسة، وعجيب أنهم بعيدون عن أي استعدادٍ للتقدّم؛ فمستواهم العقلي منحط، وهم بطيئو الفهم رغم محاولة الدولتين الأمريكية والكندية تحسين حالهم، وهم لا شك آخذون في الانقراض. وشَتان بين عقليتهم الراكدة وسحتهم المنفرة وبين الماوري من أهل زيلنده الجديدة، بذكائهم المفرط وجمالهم الجذاب. والهنود الحمر قريباو شبّه بالصينيّين؛ لذلك رُجّح أنهم وفدوا من الصين عن طريق سيبيريا وألاسكا،

وانتشروا في الأمريكتين، ولا يزيد عددهم في كندا عن مائة ألف. ولقد استرعت نظري آنسة منهم بجمالها الفاتن، فقليل لي بأنها نادرة تُعرض نفسها فخورةً بجمالها على السائحين. اخترقتُ أمريكا من الغرب إلى الشرق، ووصلتُ منطقة شلال نياجرا، وتقع عليه بلدة «نياجرا فولز» الصغيرة التي قامت على شئون السائحين، فأسرفت في الفنادق الفاخرة والمطاعم الكبيرة، ونسقت من المتنزهات في كل ناحية، ولا يكاد ينقطع عنها سيل السائحين ليلاً ولا نهاراً، وهي لا شك خيرُ مُستراضٍ للنفس التي أرهقها كدُ العمل أو أضناها مضضُ الوجد والهوى، فهي أكبر عون للنفس أن تستعيد نشاطها الكامل في أيام قليلة. إلى ذلك فهي ملتقى المحبين، حتى آثرها كلٌ حديثي عهد بالزواج، أو كلُّ أليفين على أهبة الاقتران؛ لذلك أطلقوا عليها: «أرض شهر العسل».



خير ما ترى الجمال الأمريكي في «سنترال بارك» بنيويورك، حيث يلتقي الأحباب والمتريضون.

ثم قمتُ إلى مُنتريال، أكبر بلاد كندا، وسابعة بلاد أمريكا الشمالية، ويُطلق عليها أحياناً: باريس أمريكا؛ لأن الحياة فيها تحكي حياة باريس إلى حدٍّ كبير، وحتى دور الملاهي أضحت من المراقص الباريسية (كابريه)، وغلب شرب النبيذ غيره من المشروبات. ثم عرّجتُ على كوبك، وكأنه من كثرة الكنائس الهائلة مقرٌ ديني للكاتوليك، زُرنا به معبد Franciscan Sisters، وأعجب ما فيه أن الراهبات يتناوبن الركوع أمام الهيكل صباح

نساء العالم كما رأيتهن

مساء، بحيث لا تخلو ساعة منهن طوال العام، وقد رأينا خمس فتيات رُكَّعًا مُطَاطئات الرؤوس يقرأن أو رادهن، ولا ينصرفن حتى تُوافيهن صُويحباتُهن. ولم أُلحظ إصراف النساء في المجون والتبرُّج كما رأيتُه في أوروبا وسائر بلاد أمريكا، فالنزعة الدينية والصبغة الجدِّيَّة هي السائدة في بلاد شرق كندا، وبالطبع كان للنساء الحظُّ الأوفر في تلك العصبية والرجعية والتمسُّك بالتقاليد.

في أستراليا وجزائر المحيط الهادي

كم كان يدهشني — والباخرة تُقلّني إلى أستراليا — إيمانُ السيدات التدخين، وجلّهن أستراليّات، فأنت لا تكاد ترى الواحدة إلا والسيجارة في فمها، وصندوق السجاير الكبير في يدها إلى جانب كتابها، تلك ظاهرة لم أشهدها في سيدات الشعوب الأخرى إلا على سبيل الاستثناء. والأستراليّون معروفون بالإباحة الشديدة؛ فهم يُطلقون حرية كبيرة للنساء، ومما كان يثير عجبِي مظهرهن يَسرن عرايا إلا في ستر العورة، وكأن أزواجهنّ يستعرضون جمال جسومهن أمام أنظار الغير، وإذا ما أقبل المساء ارتدين مهفّف ملابسهن في أزياء عدّة، تتنوّع بين ليلة وأخرى. ويجلس الجميع رجالاً ونساءً حول حلقة المرقص، ولا تكاد تُعرّف الموسيقى في التاسعة مساءً حتى يُقبل الكل على المخاصرة والرقص إلى ساعة متأخرة من الليل، وكانت تلك هي وسيلة التسلية الوحيدة تُقام كل ليلة. ونساء أستراليا أُعطين نصيباً من الحرية لا يُحد، فليس للأبوين على الفتاة سلطانٌ قط، وهن على جانب كبير من الجمال والرشاقة وخفة الروح، يُسرعن بالاختلاط والمعاشرة في غير تحرّج، إلا أن فيهن شيئاً كثيراً من الخجل، ولا يبدو عليهن شيء من الفجور الذي تلمسه في نساء أوروبا مثلاً، وأنت لا ترى الكثيرَ منهن يقف على نواصي الطرق مُتسكّعا، في الكثرة المزرية التي كنت أراها في البلاد الأوروبية، فالمتبذّلات هناك قليلات جدّاً.

وليس في البلاد دور للفجور، وما الداعي لذلك والبلاد معروفة بمجاوزة الحد في الحرية، يأتي الواحد ما يريد في غير رقيب، اللهم إلا إذا صحب ذلك اعتداءً على كائنٍ من كان.

وكم تحدّثت الفتاة الأسترالية عن نفسها قائلة: كنتُ أمرح مع شاب يُنفق عليّ ثلاثين شلّناً في الأسبوع، ولمّا لم يزد على ذلك هجرته إلى غيره، ولكن سرعان ما هجرني ونأى

عني! فهلاً عاد إليَّ حبيبي الأول!! والنساء في أستراليا أميلُ إلى الإباحة والانقياد وراء الحرية المطلقة، حتى قيل إن حرمة المنازل هناك ضعيفة، ولا تحرص الزوجة كثيراً على حقوق زوجها، حتى قال بعض القضاة في حكمه مرة: «يسود البلاد أزواج مُنطَلُون، وزوجات بعيادات عن الوفاء.» وقضايا الطلاق هناك لا تدخل تحت حصر.



اشتهر نساء فكتوريا من مقاطعات أستراليا بالرشاقة ورفع الكلفة عاجلاً.

ويعنى الأستراليّات بجمال ملابسهن وبريقها الخاطف، وتُعدُّ بعض الشوارع لديهم مكان الاجتماع والسمر؛ لذلك يلبسن أفخر الأزياء، وسرعان ما تتجاذب معهن طرفاً من الحديث، فتصبح أعزَّ صديق لهن، وتنزل ضيفاً وكأنك أحد أفراد العائلة، وتلك من بقايا عصر الرعاية الأولى يوم حلُّوا أستراليا لأول مرة، فالغريب ينظرون إليه نظرة ود ولا يرتابون في أمره. والأستراليّات معروفات بكرم النفس وسخاء اليد معاً، ولا يتقيّدن بالتقاليد ولا يعبان بالمسؤوليّات، وهن ديمقراطيّات إلى حدٍّ كبير، لا فرق عندهن بين فقير وغني، وأقربُ شيء لديهن عند أول لقاء لك أن تُدعى ليُطْفَن بك أرجاء البلد، ثم يُجهّز لك من ألوان الطعام الكثير يُحمل معك إلى نُزهة خلوية. وما أكثرَ ما يشربن من الشاي حتى على الطعام يُشرب بدل الماء، ولعلَّ الأسترالي أكثرُ أهل الأرض شرباً له. ومن أحب وسائل الرياضة لديهن العوم والاستحمام على الشواطئ، الذي ساعدهم عليه وفرة الشواطئ الرملية الجميلة، وقد حسّن ذلك في أجسادهن وزاد في صحتهن، وحب الرياضة لديهن أضحى ضرباً من الهوس، لا تخلو منه واحدة. ولقد حبَّب إليهن ذلك جوهُن الصافي، وما ورثن من أجدادهن الرعاية الأوائل، عُشاق الخيام والخلاء الفسيح.



روعة الفطرة تلمسها في جمال نساء الماوري من زيلنדה الجديدة.

ولقد بلغت أستراليا من التقدم والثراء حدًا كبيرًا، فمستواهم الثقافي عظيم بفضل جهود الدولة في التعليم الذي تُنفق عليه فوق ثمانية ملايين من الجنيهات، هذا خلاف مجهود المدارس الأهلية، وحتى النساء يُساهمن في الشهادات العالية، وغالبهن يؤثر جانب التربية، فجل الدراسات في المدارس الابتدائية والصناعية والثانوية منهن، وكثير من المحاضرات في الجامعات من النساء، ولهن حق الانتخاب منذ سنة ١٨٩٤، ومنهن كثير من البوليس وبيدهن سلطة كبيرة.

ومستوى المعيشة بينهم مرتفع جدًا، فالمنزل الصغير يتطلب خمسة عشر جنيهًا نفقات شهرية على الأقل، وأجر الطباخ الماهر جنيهان في الأسبوع، وأجر الخادمة أربعة جنيهاً في الشهر. ويُرْمى الأستراليون بأنهم يفتقرون إلى الحياة المنزلية، ولعل ذلك راجع إلى جوهم الشمس الصافي الجميل الذي يُشجع الحياة خارج المنزل، وإلى أنهم جميعًا موسرون يُنفقون كثيرًا من المال في الخارج؛ لذلك كثرت الأندية التي قد يشترك الرجل والمرأة في عشرة منها في آن واحد، إلى ذلك حياة الخلاء والشواطئ والمراقص التي أُعْزِمَ بها الجميع، فلا تكاد تُكَلِّم أحدهم عن بلاده حتى يسألك قائلًا: هل رأيت شواطئنا؟ وإذا دعا أحدهم صديقًا له أضافه في فندق؛ لأن المنازل يُعوزها الاستعداد والخدم، ولقد خُلِقَ فيهم ذلك حب الديمقراطية والرياضة التي وُلِعوا بها إلى حد الجنون.

وهم متفائلون مُستبشرون دائماً، فترى الواحد يقول: ذاك الضنك سيَزول في غير رجعة. ولمَ لا! أليست بلادنا غنية وفيرة الخيرات والموارد؟ ويُعزَى ذلك التفاؤل الجميل إلى جوِّهم المشمس الباسم. إلى ذلك فهم نَزَّاعون إلى التساهل والتسامح وتيسير الأمور، وأنت تسمع على ألسنتهم دائماً عبارة: give it a go، أي: «خليها ماشية»، وهم في ذلك يُشبهون المصريين، ويعزو البعض تلك البساطة إلى عُزلتهم عن العالم وإلى المساحات الشاسعة التي يَقطنها عددهم القليل، ومثل ذلك لا يُساعد على إنتاج العقول الراجحة، وبُعد النظر في تصريف الأمور.



التحية بين الماوري في زيلندة بمسح الأنوف.

ومَظهر الغنى واليسار غالبٌ على كل فرد، فيكاد كل واحد يملك سيارته ومسكنه الذي يتراوح ثمنه بين ٣٠٠ و ٣٠٠٠ جنيه، ولا تزال البلاد ناشئة وتثق في مستقبلها ثقة كبيرة، وكثيراً ما كنت أسمع تلك العبارة تجري على ألسنتهم مجرى المثل، وهي: تعيش أوروبا على ماضيها، وأمريكا على حاضرها، أما أستراليا فعلى مستقبلها. ويُشبهها البعض بغادة لما تستيقظ من نومها بعد، فيقولون: She is a sleeping beauty.

ومن السكان الأصليين عددٌ يقارب ستين ألفاً، يتفرق جلُّهم في الصحاري الداخلية وغابات الشمال، ولا تزال منهم بقية من أكلة لحوم البشر، ويعيشون إلى اليوم في عصر لا يَزِيد على سكان العصر الحجري، وكانوا يعيشون بحالتهم هذه منذ مائتي ألف عام، وهم أخطُ أجناس البشر عقولاً، وسُحنهم منفرة، وليسوا على استعدادٍ للتقدُّم أبداً، فهم

يَعيشون على صيد الحيوان، وجمع بيض الطيور من أوكارها فوق الشجر، ومن أحب الأُطعمة لديهم النمل، ولكي يربوه يقتلون عدوًّا لهم ويدفنونه، فيجتمع النمل حول جثته، وعندئذٍ يجمعون النمل ليأكلوه، ويُعدُّون طعامًا محبوبًا من أعشاش الطير، ويكسرونها وينقعونها في الماء بأوساخها ونملها، ثم يُسحق ذلك في الماء فيكون شرابًا حمضيًّا المذاق لذيذًا عندهم. ويتزوج الرجل منهم من أي عددٍ شاء من النساء ما دام قادرًا هو وأصدقاؤه على تقديم الهدايا، ولما كان ذلك يَسْطِيعه الطاعنون في السن من الرجال دون الشبان لم يبقَ من الفتيات مَنْ يكفي لزواج الشباب، وذلك قد أضعف النسلَ وأنقصه. إلى ذلك فإنهم يَبْذُرُونَ البنات غالبًا لذلك انحدر جنسهم إلى طريق الفناء، رغم محاولة الدولة الإبقاء عليهم وتحسين مستواهم.



ملابس أهل زيلنده بسيطة جذابة.

ومن أعجب عاداتهم الحدادُ والنحيب على المتوفَّى، فتراهم يَصيحون صيحاتٍ منكراً عالية، ويبد كلُّ منهم مضرب أو حربة يَضربون بها أجساد بعضهم ضرباً مبرِّحاً، ولا يتألم أحدُهم لذلك، ولا يحاول تجنُّب تلك الصدمات، ثم تُشعل نار وهم حولها يُهرولون ودماءُهم تسيل من أجسادهم، ثم تُحمَل الجثة فوق شجرة ويُنزع اللحم عنها، ويكسر أخو الفقيد العظام ثم تُدفن في جُحرٍ تحت الأرض. وإذا بلغت فتاة الحلم فَضَّت بكارثتها

عجوز، ثم سلّمَتها لبعض الكهول من القبيلة يأتونها، وبعد ذلك يُقدِّم الزوج على طلب يدها؛ وذلك لأن الرجال يتشاءمون من دم النساء، فلا يقربون البنات إلا إذا ضَمِنوا زوال الدم منهن.

ويُباح للشبان أن يعاشروا الفتيات الواحدة تلو الأخرى، حتى تظهر الفتاة المرغوبة فيتزوجها الغلام.

زيلنده الجديدة موطن الماوري

لقد أبلى النساءُ بلاءً حسنًا في القتال ضد الجنس الأبيض (باكيها Pakeha كما يسمونه)، الذي كان يسلب الماوري أرضهم، ويعمل فيهم قتلاً وتشريدًا. وحرية النساء هناك تفوق نظراءها من بلاد الغرب؛ فالفتاة يُباح لها أن تُصادق من تريد قبل زواجها، فإذا ما تزوجت فُرض عليها الوفاء لزوجها، وكان تعدد الزوجات شائعًا عندهم، وكان الأزواج يُفأخرون بعدد زوجاتهم، وكان الرجل يستطيع أن يعلي مرتبته بين قبيلته إذا ما تزوج سيدة من قبيلة أشرف من قبيلته، وإذا تزوجت السيدة من رجل أقل منها مقامًا احتفظت بمركزها الممتاز؛ ذلك لأن المرأة مسوَّدة بين هذا الشعب العجيب. والعادة أن يُقصر الزواج على أفراد قبيلة واحدة، فإن حدث وأحبَّت فتاة غلامًا من غير شعبها وجب أن يوافق الشَّعبان على ذلك، وعندئذٍ وجب أن يصيد الرجل غادته أو يختطفها وسط مقاومة ذويها! وكثيرًا ما كان يُصاب عدد من هؤلاء وأولئك، وتعجب إذ تعلم أنهم ينفرون من ميلاد البنات ويُعدُّونه كارثة، وكثيرًا ما كانوا يئِدُونهن، كذلك كان ميلهم إلى الدقِّ والوشم على الشِّفاه والذقون، وكان ذلك دليلًا الجاه عند الفتيات. ولباسهن من قطعَتين من جديل الكتَّان، إحداهن تُلف حول الخصر، والأخرى تُطرح فوق الأكتاف، وكان رجالهم يأكلون اللحوم البشرية، ولم يكن يُسمَح للمرأة ذلك إلا انتقامًا ممَّن قتلوا زوجها في الحروب. وكان جُلُّ غذائهم من النبات؛ لأن حيوان اللحوم كان معدومًا في جزائهم، اللهم إلا الكلاب، وكانت الزراعة أخص عمل للنساء، وصيد السمك للرجال. وممَّا يؤسَف له كثيرًا أنه لم يبقَ من هذا الجنس سوى أربعين ألفًا، وتحرص الحكومة الحاليَّة على حُسن معاملتهم على قَدَم المساواة مع البيض، فليس هناك «حواجزُ لونيَّة» تميز اللون الأبيض على الألوان الأخرى. ورغم أن نسبهم اليوم لا تزيد على ٤٪ من أهل زيلنده، فإن نفوذهم اليوم أضحى يفوق تلك النسبة بكثير؛ لأنهم شعب قابلٌ للتقدم، لا يزال يحافظ على شخصيته رغم إغراء المدنيَّة الأوروبيَّة له،

ويُخَيَّلُ إلى البعض أنه هو الذي يحاول تحويل الجنس الأبيض وإدماجه فيه كي يَسِيرَ مع تقاليدِهِ، وذلك لا شك راجعٌ إلى الرجعية التي امتاز بها النساء هناك.



الرقص ضروب شتَّى عند الماوري.

دخلتُ قريتهم الشهيرة «رتوروا»، فكان كثيرٌ من السيدات في «فرنديات» بيوتهن دائبات على شغل النسيج، والجَدْلُ من ألياف الكتَّان، لَوْنَتُ بالأَسود والأحمر في أحزمة حول الجبهة وحول الخصر، وداليات من عيدان الكتان كُسِرَتْ أجزاء منها في قتل رفيعة، وتُرِكَتْ أخرى كأنها قصب الغاب الرفيع، وتلك تُلَبَسُ من الخصر وتتدلَّى على الثوب أو على الجسد العاري، فتروح وتغدو وتُعطي صوتًا جميلًا يَسْتَرعي الأنظار، ويلبسه النساء والرجال، ووجوه القوم سمراء عريضة التقاطيع جَمِيلَتُها، والشعور غزيرة هادلة سوداء بَرَّاقة، يرسلها السيدات إلى ما دون الكتفين، والأجسام أَمِيلُ إلى الغلظة والسَّمنة، وبخاصة النساء، وفيهِنَّ جاذبية كبيرة وخفة روح؛ إذ لا تكاد تفارق البسمات تُغَوَّرهن أَبَدًا، والكل أَمِيلُ إلى الاجتماع، يُسارعن إليك بالحديث والسؤال عنك وعمَّا حولك في رَقَّة زائدة، ويعيشون عيشة مريحة سعيدة لا يَحْمِلون همًّا، وسواءُ أَكثُرَ رزقهم أم شَحَّ فهم سعداء في كِلتا الحالتين، ولا يَعبَأون بالدنيا أَبَدًا؛ ولذلك لم يَعْرِفُوا قيمة النقود، ومنهم بعض الأثرياء الذين يمتلكون مئات الألوف من الجنيهات، لكنهم يَبْدُدون منها بمقادير غير معقولة، وبعضهم بَدَّدَ ماله

كلُّه ولا يزال يشعر بالسعادة، ولا يحمل من الهم شيئاً، وحتى فقراؤهم وحُفاتهم الذين كنا نراهم في ثياب خَلَقَة كانوا يتقدمون إليَّ في رقة ويتطوَّعون للإرشاد، ولا يبدو عليهم إلحافٌ في طلب شيء من الهبات قط، فإن قَدِّمْتَ إليه شيئاً تسلَّموه شاكرين، وإن لم يكُ من ذلك شيء انصرفوا باسمين غير مُمتعِضين، ومنطقهً عذب سائغ موسيقي، وجميع الحروف تبدو ممطوطة ناعمة، تشبه اللغة الطليانية، وكل حرف في الكلمة لا بد أن يُنطَق في وضوح وفي غير أضغام. وكنا نرى جُلَّ أسماء البلاد والجبـال تحتفظ بأصلها الماوري، وتُحاول الدولة الاحتفاظاً بتلك الأسماء ما استطاعت. والماوري فصيح، زَلِقَ اللسان، خطيبٌ بالفطرة، وهم يُباهون بأدب لغتهم، ويُفاخرون بعضهم بعضاً ببلاغتهم في القول.



يغتسلن في مياه الفورات الطبيعية.

وكان حظِّي سعيداً أن حَضَرْتُ حفلة راقصة وطنية، فأخذ فتيات الماوري بجمالهن الساحر وأرديتهن الجذابة وإلى جوارهنَّ الفتیان، يَعْرِضُنَ علينا طرْفًا من غنائهم ورقصتهم Poi، فكانت الأنغام مشجية، وجلها مُحزنة من نَغْمَة «الصَّبا»، وقريبة شَبِهَ بأنغام «هواي»، وكان الجميع يغنُّون سويًّا — ومنهم الصوت الرفيع والغليظ — في انسجامٍ بديع، ثم عَرَضُوا رقصاتٍ مختلفةً؛ فرقصة الزوارق وهُنَّ جلوس بعضهن وراء بعض وأرجلهن ممدودة، وأذرعهن تلمس الأكتاف، ويُحرِّكن الأذرع والأرجل، فيُخَيَّلُ إليك أنهم جمعٌ من البَحَّارة يُجذِّفون ويرتلون. وتلك أحبُّ الرقصات إليهم؛ لأنهم شُهِروا بقدرتهم على بناء الزوارق النحيلة وركوبها في عُرْض المحيط الهادي المديد. ثم رقصة الفرح، ويقفن صفوفًا

متباعدة وكل صف يُبدي حركاتٍ تُغايِر الآخرَ بالأيدي والأرجل، وصفٌ واقفٌ والتالي له راكعٌ أو جالس. ولعلَّ أغرب الكل ما يسمونه Haka، وفي ذلك تنتهي الرقصة أو الأغنية بتكشير السَّحْن وليَّ الجباه وتعويج الخدود، وفتح الأفواه وإخراج الألسن في شكلٍ بشع، ويُشَفَع ذلك بصيحة مُزعجة. ويحاول كلُّ رجل وسيدة أن يُظهر حركاتٍ غير التي يُظهرها الثاني، إلى ذلك الرفس بالأرجل، وتلك يُقصدُ بها تخويف العدو أو التهكم عليه، أو إدخال السرور على الإخوان، كل نوع حسب ما يقتضيه المقام، وتلك من أقسى الدروس التي يُدرَّب عليها الأطفال، ولا يُحترم الواحد منهم إلا إذا أتقنها، مع أنها تبدو في ظني مظهرًا وحشيًا منفّرًا، وقد تُعرَف هذه برقصة الحرب أحيانًا، وكنتُ أرى الأطفال يتمرّنون عليها في ألعابهم الخاصة وسط الطرق، وكلما تحدثتُ إلى أحدهم بدرني قائلاً: هَلَّا رأيت الهاكا Haka؟ كأنها أهمُّ شيء في نظرهم.



تنتظر الغادة ريثما تُشوى سلة البطاطس في حرارة الفوارات.

ومن فنونهم التي كانت شائعة: النقش على الوجوه في رسوم مختلفة، ولا يزال يُرى أثر ذلك في المسنين منهم، وبخاصة النساء، فكنتُ أراهنَّ وقد خضبن دُقونهن بالوشم الأزرق في أشكالٍ عدّة، لكن تلك العادة أخذتُ في الزوال اليوم؛ إذ قلّما كنتُ شاهداً في الجيل الناشئ.



رقصة البحر عند الماوري.

وأكثرهم ينزل حول منابع المياه الحارة؛ لأنهم استخدَموها في شئونهم. ولا يزالون يحتفظون بالكثير من عاداتهم، من بينها التحية بمسح الأنوف ووضع اليد في اليد، أما التقبيل فيحتقرونه ويمجّونه.

رَسَوْنَا على جزائر فيجي، فانفسَحَ أمامنا خليجٌ مستطيل، تحفه جوانبُ جبلية تكسوها الخضرة الكثيفة، ويزين مدخله عقدٌ من زبد البحر ورغاويه يبدو أبيض، ويكاد لا يترك من المدخل إلا شطرًا ضيقًا، وذلك حاجز مرجاني Coral reef كنا نرى بعض نواتئ شعابه بارزة فوق الماء، وعليه تنكسر الموجات فتزغى، وتعطي ذاك اللون الأبيض الجميل. رَسَوْنَا على رصيف الميناء، وكان الجو أغبرَ ماطرًا، لكنه ما لبث أن تكشّف، وما مضى الظهرُ حتى بدت الشمسُ ناصعة بين بُقع السحاب المنثور.

أخذنا سيارة طافت بنا زهاء ساعتين بين وهاد ونجاد تسدها الخضرة سدًا، وهنا وهناك تبدو الأكواخ الخشبية في الأحياء الراقية، وأخصاصٌ من الحشائش للأحياء الفقيرة، والناس جلهم من الفيجيين ذوي الوجوه السوداء المفلطحة والتقاطيع العريضة والأجسام المفتولة الطويلة؛ فهم من العمالقة نساءً ورجالًا.

وأعجب ما يسترعي النظرَ فيهم شعرهم؛ فهم جميعًا يتركونه ينمو رأسياً، في هالة قد تزيد على الشبر طولًا للنساء والرجال معًا، والشعر أجعدُ خشن أسود، وقليلٌ منه مصفر،



الجنس البولونيزي معروف برشاقتة وجماله، وتلك الغادة يَلِفَت النظرُ قُرطُها من الخرز الذي ينتهي بحلقتين من الباعة الشفافة.

وهم يَسِيرُونَ حُفَاةَ الأقدام عُرَاةَ الرءوس دائماً. أما الملابس فتَحْكِي لفائفَ الهنود أسفل الجسد في ألوانٍ مُزركشة، واللون الأحمر غالبٌ عليها، وقد يَتَرَكُ أعلى الجسد عارياً. والنساء على جانبٍ كبيرٍ من الرقة والوداعة، ينظرن إليك ويبتسمن ثم يُسارعن بالحديث والتودُّد إليك، ولا يُهمهنَّ من أمر الدنيا شيء، فهن قانعَاتُ أبداً، وَيَشْعُرْنَ بسعادة الحياة كاملة. أما سَحَنَهُنَّ فمُنْفَرَّةٌ في الغالب، وإن كانت أجسادهن جميلة أميلُ إلى السَّمَنِ، وكنا نرى القوم دائبين على أكل جوز الهند وشرب مائه اللذيذ، وهم يجهزون دهنه ويبيعونه ليدهنوا به جسومهم؛ مقاومةً للحر، وتقويةً للشعر، وتجميلاً للبشرة كما يقولون؛ ولذلك كانت رائحةُ الجزائر كلها أينما سرت والناس جميعاً، تُشعُّ هذا الدسم الذي قد يكون زناً كريهاً. وفي المساء آذنتُ الباخرة بالرحيل، وعزفتُ موسيقاها كما هي العادة كلما أَقْبَلْنَا على مكانٍ جديد أو انصرفتُنا عنه، فأخذتُ جوانب الميناء تتقارب، وينحصر جمالها بخضرتها الناصعة، وبيوتها الحمراء نُثِرَتْ على المنحدرات، وجماهير الناس يودِّعوننا بهزُّ أيديهم ومناديلهم. والفيجيُّون يُشبهون الماوري في رِقَّتِهِمْ وأجسامهم وخَفَّةِ روحهم ومرحهم الدائم، لكن شَتَانَ بين جمال الماوري وبين وجوه هؤلاء التي يَنْدُرُ أن تَرى فيها مَسْحَةً من جمال.

نساء العالم كما رأيتهن



«ها أيري راي» أو نظرة الترحيب.



«ها أيري ماي» أو نظرة الوداع.

قُمنا إلى جزائرِ سَمُوَا، وحلَّلنا القرية الرئيسية هناك واسمها نوأوأولي Nuuuuli، هناك
استقبلنا الأهالي بوجوههم السمحة وسَحَنهم الجميلة نساءً ورجالاً وأطفالاً، ودُعينا إلى



رقصة ماورية مشتركة.

ساحة الرقص، فدخلنا وجلسنا، فإذا بثلاثة صفوفٍ من فتيات لبسن حول الخصر حزامًا عريضًا له ذؤابات تتدلى إلى القدمين، وتركن النصف الأعلى عاريًا بلونه الأسمر الخمري الجذاب، وأجسادهن الممتلئة صحة ونشاطًا ووجوههن الجذابة، وأخذ قائدهن ينقر على صفيحةٍ بعصاه نقراتٍ منتظمة، وهنَّ يرقصن وقوفًا وقعودًا ويغنن، ثم يختمن الأغنية والرقص بضربة من الأقدام وصيحة عالية. وكان الرجل يعلن عن اسم كل رقصة. ويطوف علينا الفتيات بجوز الهند الطازج، وقد شطفن ناحية لنشرب ماءه اللذيذ، وتلك تحية لقدمنا.

خرجنا نطوف البلدة، وإذا بها مجموعة أكواخ من قوائم خشبية، يُغطّي ما بينها القش والعشب، وقد يكون البيت مستطيلاً منحدر السقف، أو دائريًا مخروطي الغطاء، وفي وسط البلدة دارٌ فسيحة لعقد الاجتماعات. وللقرية أربعة رؤساء (زعماء)، وهم الذين يتكلمون ويخطبون في المجتمعات مدافعين عن صوالح ذويهم. وكنا نرى أطلال بيوت مُهشمة قيل لنا إن «إعصار الهركين» مرَّ بها فاجتاح منها الكثير.

وقد استرعى نظرنا جمال السّحن وجاذبيّة اللون الخمري خفيف السّمرة، وهم قريبو شبه «بالموري» في زيلنده الجديدة، ولكنهم بعيدون البعد كلّ عن أهل فيجي الزنوج، وكثيرٌ منهم خصوصًا النساء يُرسلن شعورهن السوداء البراقة الهائلة التي تزيدهن رونقًا



زهرة عباد القمر في يد آنسة جميلة من هنولولو.

وجمّالاً. وليس بالجزيرة عددٌ كبير بل هم قليلون، وهم من الجنس البوليزي، ويبدو لنا من أشكالهم أثرُ الجنس الصيني واضحاً. وكم كان سرورهم بوفودنا كبيراً! فهم يشعرون بالأنس الكبير كلما وفدت عليهم باخرة، وكانوا يتطوّعون جماعات لإرشادنا ولا يبتغون من وراء ذلك نفعا، وكثير منهم كان يعرض علينا صداقته وعنوانه لِنُكاتِبَه نساءً ورجالاً، وبعضهنّ كان يُقدِّم عقود المرجان وبعض أشغال الخشب المنقور هدية لنا، ويرفض أن يتقاضى ثمنها. وقد عرّض الكثير منهم سلّعهم علينا، وجُلّها من منقور الخشب الملوّن، في أسلحة وزوارق وعِصيّ، ثم أشغال القش من سِلالٍ ملونة، ثم أرديتهم، خصوصاً الحزام الذي تتدلّى منه الأهداب الطويلة وقد نقشوا عليه اسم بلدتهم. ومن أجمل ما عرضوا قطع الأقمشة الملونة التي دقوها وصقلوها من قشور الشجر، تبدو كالورق أو القماش المنشّى، وهو متين جدّاً. ومن أبدع المناظر عقود الزهور الضخمة الملونة الطويلة، يلبسونها جميعاً رجالاً ونساءً، وكلما ذُبِلَ واحد أعضوه بغيره، وهم يفتنّون في تنسيقه فيبدو رائعاً، ولا تكاد ترى واحدة تمشي بدون ذاك العقد يتدلّى على صدرها، وقد ألَبَسونا تلك العقود لما أن دخلنا دارهم، ولقد عزّفت فرقة الموسيقى وغنى معها جمعٌ من الفتيات على شاطئ البحر تجاه السفينة؛ وداعاً لنا عند قيامنا.



أنسات هنولولو الرشيقات.

ثم أقبلنا على هنولولو، جنة المحيط الهادي «وجبل طارق الباسيفيك»، فاستعرضنا الطبيب، ثم تقدمت الباخرة من الرصيف، وكانت شرفاته وجوانبه تغصّ بجموع المستقبلين، تتوسطهم الموسيقى الرسمية التي تُعزَف استقبالا لكل باخرة ووداعا لها، وتلك عادة اتُبعت منذ عهد مَليَكم كاميهامياها الخامس سنة ١٨٧٢. وكان برج الميناء الشاهق الأنيق يُشرف علينا، تعلوه ساعة كبيرة، وتزين جوانبه الأربعة كلمة: ألوها، كُتبت بالخط الكبير، ومعناها مرحبا ووداعا. وما كادت تقف الباخرة حتى هاجم المستقبلون أحبابهم وبيد كل منهم مجموعة من عقود من الزهر مختلف ألوانه في جمال لا يُحد، وأخذوا يُحلّون بتلك العقود أعناق أصحابهم، وكان باعة هذه العقود — وغالبهم من الفتيات — ينتشرون في جميع الطرق المؤدية إلى الميناء في كثرة تلفت النظر، وتسمع نداءهن في كل مكان، وزُهاء مائتي نفس مهنتهم إعداد تلك العقود، ويسمونها Leis في هنولولو، ولا يقل ما يُباع منها سنوياً عن ٦٦٠ ألفا بسعر شلن لكل واحد، أي نحو ٣٣ ألف جنيه، هذا خلاف ما يُباع في الجزائر الأخرى. ولا يقل ما يلبس هناك عن مليون عقد في السنة، وتلك من أجمل الظواهر التي تسترعي نظرك وأنت تسير بينهم، وبعض النساء يلبسن عشرة عقود كبيرة في ألوان مختلفة.



تُحلي عقود الزهر جيدَ الناس جميعاً في هنولولو.

وجماهير المارّة في الطرق كثيفةٌ متعددة الأجناس، فإلى جانب الوطنيين ذوي الشعر الأسود المُرسل، والسّحن المفلطحة، واللون الأسمر، والعيون الكبيرة، والقامات الطويلة، رأينا عددًا غالبًا من اليابانيين في أرديتهم الفضفاضة، ثم البرتغاليين، ثم الصينيين والفلبينيين بسّحنهم العجيبة، وقليل من الهنود في جُسومهم الناحلة، ثم الكوريين في أكامهم المنتفخة، هذا إلى الأمريكيين والغرباء من سائر سائحي العالم، فكأنها بلدةٌ عالمية، ترى أحدث أزياء باريس تسيّر جنبًا لجنب إلى جوار الأردية القومية ذات الذّوابات من العُشب، وتشاهد ملاعب الجولف والبولو إلى جوار اللعب بالزوارق انزلاقًا على حافة الأمواج، وتلك أحبُّ صنوف اللعب عند الوطنيين، فهي بلدة بولينيزية تعيش في جوٍّ أمريكي بلّغ من المدنيّة شأوًا، فالحياة البولينيزية الفطرية تُظّلها أحدثُ المدنيّات وأرقاها. ثم وصلنا بعد ميلين إلى أجمل شطوط الجزيرة، ويُسمّى Waikiki، هنا انفتحت مدرجات الرمال النقية إلى مدّ البصر، وأُقيمت «الفيلا» الأنيقة، واكتظّ الشاطئ بالمستحمّين وبالمقاهي والفنادق الفاخرة، ومن بينها نزل Waikiki الذي بلغ من الواجهة والامتداد حدًا كبيرًا. جلسنا إلى الشاطئ لنرى أعجوبة الرياضة البحرية هناك، ويسمونها Surfing، ترى الفتيان والفتيات يمتطي كلُّ منهن زورقًا نحيلًا أو لوحًا من خشبٍ مدبّب الأطراف، ثم تحركه الفتاة برجليها وهي واقفة عليه، فيجري الزورق ويعلو ويهبط وفق تكسّر الموج على الشطوط هناك، في

سرعة وخفة حركة لم أر لها نظيراً، وهي خلال ذلك تميل وتجلس وتنام، ثم تعود واقفة، والزورق يجري في اهتزازٍ مخيف، ويساعد على تعاقب الأمواج الخفيفة كثرة شطوط المرجان. وتلك لعبة ملوكهم منذ القدم يتعلقون بها إلى حد المخاطرة.



أجساد فتيات هنولولو ممثلة متناسبة.

أخذنا نتجول في أحيائها الغاصّة بالناس سيراً على الأقدام، وكان «الهوائيون» أهل البلاد يسرون في وجوههم التي تحكي وجوه الماوري، إلا أنهم أكثر سُمرّة، وهن أجمل نساء المحيط الهادي، وأجسادهن ممثلة وتبدو عليهن علامات الصحة؛ لجودة مُناخ بلادهن، وبساطة معيشتهن في المأكّل والملبس والمسكن، فأخصّ طعامهم السمك المشوي، يُصبّ عليه مرق أُعدّ من جوز الهند، وهذا هو الطعام القومي المحبوب، كذلك فاكهة الخبز بعد تخميرها، أو مطبوخ الموز وجذور التارو (البوي Poi)، ثم الفاكهة الاستوائية. ومن آدابهم في المائدة أنه لا يصح الحديث في موضوع مادي، وإلا عدّ ذلك مُحرمًا مُنكرًا Tapu، ويجب قصر الحديث على ما يُدخل السرور على النفس. وعند الجلوس إلى المائدة تُقدّم آنية البوي، وهي «سلطنيّة» يغمس كل منهم أصابعه فيها ويتناول بعض بندق Kukui مع الملح وبعض أعشاب البحر، ثم يأكل قطعة من قديد السمك، وكلما تناول الرجل «إصبعا» من البوي تناول النساء اثنتين، وعلى الضيف أن يقول بين آن وآخر: heono، أي: ما ألدّ

هذا! وجلّ ملبسهم من قشور الشجر، خصوصاً شجرة tapa التي إذا ما بلغت بين ٣ و٤ أمتار قُطِعت، ثم حاول النساء سلخ قشرها في قطعة واحدة، ثم يُصَقَل ظاهرها بالأصداف وتُعَطَّن في النهر وتُدَق ثم تُجَفَّف، وكثيراً ما ترى القطعة الواحدة تفوق «ملاءة السرير» كبراً، وإذا دُهن بزييت النرجيل أضحى «ووتربروف»، وهو متين جداً لكنه غير قابل للغسيل، ولرداءة رائحته يستخدمون معه مسحوق خشب الصَّنْدَل، وشكل الملابس يحكي ملاءات الهنود، ويُسمونها: Holuku. وهم يُفَضِّلون السَّير عُرَاة الرؤوس والأقدام، ويُحِبُّون التَّحْلِيَّ بالعقود والخواتيم نساءً ورجالاً، وإذا جنَّ الليل كثر الرقص والغناء على أنغام الموسيقى الشَّجِيَّة الساذجة، وإذا ما رَغِن في النوم خلَعن زينتهن من الزهور وأَلَقَيْن بها في المهملات؛ لأنهن سَيَقْمُن في الصباح الباكر لقطف غيرها ونظمها عقوداً وأقراطاً وقلائد جديدة.



لا يفتر ثغر فتيات هنولولو إلا عن ابتسامات دائمة.

ولا بد أن تعاشر الفتاة أحد الشبان زماناً في «بيت العُرَاب» قبل أن تتم خطبتها، وذلك البيت يُقام منه الكثير في أرجاء القرية. وقد يَخْتار والدُ الفتاة أحدَ وُجْهَاء الجزيرة ليزور بنته ويفضَّ بكارتها، فإن خلت الجزيرة من الوجهاء استدعى واحد من جزيرة مجاورة للقيام بذلك. وقد حَضَرْنَا رقصة Hula، وأغنية ukulele ونحن في فندق شط waikiki، فكانت ساحرة، والرقصة بدَتْ في تمويج الجسم في ثُنَيَات عدة وتحريك الأيدي

والأذرع حركاتٍ تُعبانيّة، لتحكي حركات الموج وأوراق النخيل إذا ما داعبتها الرياح. أقلعت بنا الباخرة، فبدأ الرصيف مائجًا بالمودّعين وبائعات الزهور والعقود، وقد لبس كلُّ من المسافرين والمودّعين عَشْرَات العقود البديعة، وقد ركب الباخرة في الدرجة الثانية من هنولولو ١٤٠ مسافرًا، يعودون إلى أمريكا بعد تَمْضية عطلة الصيف. وبدأت موسيقى الوداع تُعزَف وأشرطة الورق الملون تصل ما بين فريق المسافرين والمودّعين، ثم أخذت الباخرة تتنحّى عن الميناء تدريجيًا حتى غابت تلك البلادُ الممتعة عن الأنظار، وكان آخر ما يُرى برج الميناء وعليه كلمة aloha تودعنا، وخرجنا إلى عُرض المحيط ونحن آسفون أن برحنا جنة الباسفيك، أو جوهرة المحيط الهادي كما يسمونها غالبًا. عندئذٍ أخذ المسافرون والمسافرات يُلْقون بعقود الزهور الجميلة إلى المحيط حتى لم يُخَلَّفوا معهم منها شيئًا؛ لأن ذلك فالٌ حسن يؤكد لهم عودتهم لزيارة الجزيرة مرة أخرى. وكنتُ ألبس من تلك العقود اثنين، لم تُسِغ لي نفسي أن أُلقيَ بهما إلى اليم، لكن لم أنج من لومِهِنَّ فكلما مرّت بي آنسة قالت: ألا تريد أن تعود إلى زيارة هنولولو ثانية؟ فأقول: بلى؛ فتلك أمنيّتي. فتقول: إذن سارع بإلقاء عقودك إلى البحر. ولمّا أن غلبتني كثرتُهن أُلقيتُ بالعقدين على الرغم مني.

في إفريقية

بلاد المغرب

وصلنا طرابلس فاسترعت أنظارنا أزياء النساء الجميلة؛ سراويل ملونة تعلوها ملاءات مخططة زاهية، وتتحلّى الأيدي بالخواتم الثقيلة، وفي الرُسخ وأسفل الساق سوارٌ فضي عريض كأنه أسطوانة من صفيح منقوش. والحركة في البلدة خافتة، وعند الظهيرة تُقفل جميع المتاجر، ويلحظ الإنسان بين أهلها على قلّتهم الهدوء والرغبة عن الكلام، حتى الأطفال تراهم يسيرون متجاورين، وهم لا يتجاذبون من الحديث إلا اليسير. وذاك الهدوء لا شك من أثر وحشة المكان، فمن ورائه الرُّبى المجدبة تحميها الصحاري الممدودة، ومن أمامه البحر المائج الرهيب. أما لهجات الناس فلا تكاد تُفهم؛ فهي بقيّة من لسان عربي سقيم، مازجته الكلمات الدخيلة من اللغات الأجنبية وبخاصة الطليانية، وغالب القوم يُجيدون الطليانية، والصّبية بعد انتهائهم من المكاتب الأولية يلتحقون بالمدارس الابتدائية، ولا يُدرّس فيها شيء من العربية قط.

وكم يروك حديث القوم باللهجة العربية الغامضة المحرّفة، وأنت طوال الطريق تسمع صيحات المارّة فتيةً وفتيات «بالك جواردا» بالعربية والطليانية معاً، كذلك كلمة «برمسو» يقولها النساء وحتى أجلاف المارة وصعاليكهم. وأحبّ الطعام لديهم: «البازين»، وهو أشبه «بالعصيدة المالحة»، تُعدّه السيدة من الماء والملح، يُغلى ويُمزج به الدقيق، ويُرشّ عليه بعض الزيت أو المسلي، ويرون في تناوله اللذة كلّها، ولو لم يرُقني مطلقاً.

ثم أقبلنا على تونس، وهناك أضافني أحدُ أبنائها في داره، ولما استقرّ بنا المجلس مدّ السّماط التونسي في حضرة مجموعة من علية القوم، فكان الطعام شهياً وغريباً في جملته، أخصّ بالذكر «الكوسكسي» الذي أدهشني بدقّة حبيباته ولذيذ طعمه، يعالجونه

على صنوفٍ عدّة، ويُجفّف ويُصدّر إلى الخارج في أكياس. وكذلك «الملوخية» التي تبدو في سائلٍ أسود، لا يروقك لونه وإن راقك تناوله؛ لأنهم يسحقونها ناعمة ويُضاف إليها الزيت والبهار. ومن أشهى الأطعمة لديهم «العصبان»، ويُعدّ من نثر أحشاء الشاة «السقط» والقلب والكبد، يُلفّ في قطعٍ من الكرش «الكرشة»، ويُخاط في كور ويُغلى وعليه البهار والملح والبصل، ويُعطى بمصفاة يملؤها الكسكسي الذي يتشرب البخار من أسفله، وعندما ينضج اللحم السالف يُصبّ هو والمرق فوق الكسكسي، فيكون طعاماً لذيذاً.

خرجتُ أجوب أرجاء المدينة، وكم كان يروقني مسير السيدات في أزهرنّ البيضاء الناصعة من الحرير الموشي، وكأنهنّ الملائكة يسرن على بُعد، وتونس نظيفة، وهندام أهلها غير مُنفّر، ويقل الحُفاة بينهم.

والزواج في تونس غير مبكر، فالآباء يكرهون أن يُزوّجا أبناءهم وبناتهم صغاراً، فيندر أن تتزوج الفتاة قبل العشرين والفتى قبل الثلاثين، ويُعزى ذلك إلى غلو المهور، فهي لا تقل عن مائة جنيه للطبقات المتوسطة أو ما دونها، وكذلك إلى انصراف الفتیان إلى مصادقة بعض الخيليات الفرنسيّات، وقد جلبهنّ الفرنسيّون من أيتام الحرب من بناتهم وبنوّهن في البلاد يتصيّدن الشباب.

قمتُ إلى الجزائر مُختَرِفاً جبالها الشرقية البديعة، وتُسمّى نجاد شرق الجزائر هذه: بلاد قابيل، يقطنها قومٌ لا يزالون يحتفظون بدمهم البربري وبعاداتهم الأصلية، ويكادون يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وهم زُرّاع مهرة اعتنقوا الإسلام، لكنهم إباحيّون في قوانينهم المدنية وفي نسائهم اللواتي يخرجن سافراتٍ مثل جيرانهم من الطوارق في الصحراء. ومركز النساء لديهن محترم، يحتفظن بحقوقهن قبل الرجال، ولا يكادون يُبيحون تعدد الزوجات قط، وإقليمهم غاصّ بالقرى والأهلين، ولا يزال الكثير يتكلم اللغة البربرية الأصلية هناك، وأظهر القبائل البربرية: «شاويا»، و«قابيل» يعتصمون بجبالهم، ولقد سادهم الفينيقيّون، ثم الروم، ثم الوندال، لكنهم أدمجهم فيهم وحفظوا شخصيّاتهم، ثم جاء أهل آسيا من العرب واليهود، وكادوا يدمجون البربر فيهم، ولكن يخال الكثير أن أثر البربر أغلب. وفي مدينة الجزائر نرى من الأزياء خليطاً لا أول له ولا آخر؛ هذه ارتدت المعطف من الصوف الأبيض الثقيل، وفي أرجلها البلغة، وفوق رأسها اللبادة لفّ حولها طيّاتٌ من حبل سميك، وتلك السيدة دُثّرت بإزارٍ مهفّهف من صوف أو حرير أبيض، وأرخت على وجهها قناعاً أبيض دون العينين، وتدهش إذ تسمع خليطاً من العربية المشوّهة إلى جانب الفرنسية.

تبدأ السيدة أو الرجل الكلام بالعربية، وسرعان ما يعوّجُ اللسان وتتدفّق الألفاظ الفرنسية في طلاقة تفوق الوصف، وحتى فتيات الشوارع يتحدّثن بها رغم مظهرهن الرث الفقيّر. والعَوَز هناك منتشر إلى حدٍّ مخيف، على أن الحياة هناك رخيصة رفّهت عنهم بعض الشيء. وتعجب إذ ترى الفرنسية إلى جانب الوطنية في المسكن والقهوة، يتجاذبن أطراف الحديث على قدم المساواة في ديموقراطية راققتني كثيرًا، هنا ذكرتُ الترفّع الإنجليزي والصلف السكسوني الذي يفصل ما بين أبناء التاميز وأهل البلاد التي يحكمونها، وهذا كما يقول الفرنسيون مما جعل الاستعمار الفرنسي أهونَ أمرًا وأبعدَ أثرًا في نفوس المحتلين عن الاستعمار الإنجليزي؛ لذلك شعر الجزائريون بأنهم فرنسيون بُسُوِي القانون بينهم وبين سادتهم، وبذلك نسُوا عصبيتهم الأولى رغم ما هم عليه من خلافٍ في الدم والعادات.



إحدى جميلات الأعراب في ليبيا وطرابلس.

هداني سيري بعد لأيٍ إلى زقاق الشيطان المعلق المتلوي الزلق، الذي نزلتُ منه إلى شارع كاسبا «القصبَة»، ومنه تعرفتُ طريقي، وتلك الجهة هي الوحيدة في كل الجزائر التي حفظت شكلها القديم الجميل. هنا انحدرت قَدَماي إلى ناحية من تلك الأزقة المتعرجة، وإذا بي وسط مجموعة من بيوت كان يجلس على أبوابها نساء، هن خليط من الوطنيّات والفرنسيّات في شكلٍ يُنافي الآداب، يتعرّضن للمارة ويُحاولن ضمهم إلى صدورهنّ أو

تقبيلهم، وكثيرٌ من أولئك الفرنسيَّات كُنَّ عرايا كما ولدَتْهن أمهاتهن، يتمايلن ويتهادَيْن ويُشرْنَ إلى أماكن منكّرة من أجسادهن العارية، والرطانةُ الفرنسيةية تحاول استمالة الناس واستهواءهم، ولا رادع ولا رقيب، وقد عَنَّ لي أن آخذ بعض صورهنَّ الفوتوغرافية خلسة، وما كِدَن يُبصرن بي حتى ثارت ثائرتُهن وتجمَّعن حولي وأفسَدن الفلم، وقد اعتذرتُ لهن في شيءٍ من المداعبة، ثم انسحبتُ بعد أن قاسيت في سبيل ذلك كثيرًا. وأمثال أولئك هن اللائي يدسُّهنَّ المستعمر كي يُفسِدن من أخلاق الوطنيِّين ويصرفوهم عن كثير من واجباتهم الوطنية، وهكذا يُحارب الغاصب الناس حتى بتلك الوسائل الدنيئة.

وكنت أعجب لاختلاط الوطنيِّين بالفرنسيِّين في كل مكان حتى في السكنى، فبعض البيوت يقطنها عائلتان: وطنية وفرنسية، ويشاطرون بعضهم كل شيء، وتلك من خصائص الاستعمار الفرنسي، فهم يُخالطون العامة ويُشاطرونهم طعامهم ومعاشهم، وكثيرًا ما كنت أرى فرنسية ووطنية في بيتٍ واحد على مائدة الكسكسي يُعدَّانه سويًّا، ولو أن في ذلك تغلُّلاً من المستعمر في صميم البلاد لتعرَّف حقيقة حالها، إلا أن فيه فضيلة الديمقراطية الظاهرة التي كنت ألمسها في تعامل أبناء البلاد مع الفرنسيِّين على قدم المساواة في كل شيء، فالصبي الصلوك الوطني يخرج مع «الخواجا» الوجه الفرنسي كأنه نِدُّه أو زميله، وفي المتنزَّهات والمقاهي نرى الرجل في هندامه القذر المهلهل يجلس إلى جوار فرنسي أو فرنسية في هندام أنيق وجهه، ولا تلحظ على أولئك شيئًا من الامتعاض.

ومن قبائل الصحراء قُرب واحة بسكرا «أولاد نايل»، ينزلن المدن لكسب المال من وراء احترافهنَّ الرقص أو البغاء، ثم يَعْدن ليستأنفن الحجاب في بلادهنَّ ولينتظرن الزواج، ويمتاز رقصهن بحركاتٍ عنيفة في جميع أجزاء الجسم، خصوصًا «رقص البطن»، ووجوههن في غاية الجمال، وحركاتهن رشيقة، ويكاد يُثقلهن ما يحملن من حلي يكسو الرأس والوجه والأذرع والصدر، ويُسمَّون: «جيشات الصحراء»، وكما أن الجيشتات من أساس النظام الاجتماعي في بلاد اليابان، كان راقصات أولاد نايل من أخصِّ مميزات بلاد الجزائر.

وكان يركب إلى جواربي ذات مرة رجل جزائري وقور، يشتغل بالتجارة بين حدود القطرين، ومن نوادره أنه قال للفرنسيِّين الذين كانوا معنا بأنه متزوج بامرأتين، وله بيتان! أحدهما في حدود الجزائر والآخر في «أوجده» في مراكش؛ لأن عمله يقتضي أن يُمضي نصف الأسبوع هنا ونصفه هناك، فكانت سخريَّة وضحك منه على زوجتيه، وكيف أنه يستطيع الإنفاق على بيتين؟ لكن الرجل ردَّ عليهم ردودًا مُسكِتة، إذ قال إن ذلك خير له



فتاة من أولاد نايل تلبس كامل حليها الذي جمعته من احتراف الرقص استعدادًا للزواج.

من طريقتهم هم، وهي ترك أمراتهم في مكان والاختلاف إلى الغانيات حيثما وجدوا إلى ذلك سبيلًا، وأفهمهم أن ذلك مُحَرَّم في دينه، وأن البيتين لا يُكَلِّفانه بقدر ما يتكلفه لو كان أعزب.

قام بنا القطار إلى فاس وهو يشقُّ أرض مراكش، التي بدت لأول وهلة سهولاً شبه مُجدبة مملّة، غالب أهلها يَقطنون الخيام وَيَسْتَنبِتُون الغلال، وهناك تجلّى القديم وظهرت معالم الإسلام والعصبية له في مظهر الناس وتعدّد المساجد، التي يُحصى منها هناك ٢٧٠ مسجدًا، ولم أكد ألمح كنيسة واحدة. وأول ما استرعى نظري كثرة الأسوار الشاهقة وتعقيدها، فلم أدِر لها أولًا ولا آخرًا، تُزيّنُها بوابات ذوات ثلاث فتحات؛ الوسطى كبيرة تُجانبُها اثنتان صغيرتان، ويكسوها القيشاني الأزرق البديع، وتلك البوابات تؤدي إلى طرق المدينة، وهي مختنقة مسقّفة في الغالب في جهات الأسواق التي لا تخبو حركتها، وكلّهم في الرداء المغربي العجيب، وهو أبسط من أردية تونس، وأظهره «الجلاب»، وهو كالعباءة الفضفاضة المقفلة من أمامها، ولها «كبود أو طرطور» هائل متصل بها، يضعه الرجل على رأسه فيرى منتفحًا، أما النساء ففي أزُر بيضاء من الصوف، وعليهن القناع الأبيض الثقيل. وأجمل ما في أزيائهن «البلغة» التي تُصنّع من جلد أو قماش قد شُغل بالقصب في نقوش عربية بديعة. والناس جميعًا يلبسون تلك «البلّغ»، حتى المثقفين منهم الذين ارتدّوا



الموسيقيّات المحترفات في مراكش.

الحُلّ الإفريقية والطرابيش المصرية، وبعض النساء يلبسن «جلباب» الرجال؛ ولذلك كان يصعب عليّ التمييزُ بين النساء والرجال أحياناً، خصوصاً إذا كانت المرأة غيرَ مقنّعة. ومن المارة عدد كبير من السود، وقد وفدوا على البلاد من أواسط أفريقيا وتوطّنوا وأضحوا من الأهلين. أما مساكن الأهلين فمدهشة، أزقة بعضها لا يكاد يسمح لشخصين بالمرور، والبعض في سراديب تحت الأرض، أذكرتني ببيوت الواحات الخارجية عندنا في مصر، وإذا أوغلَ الإنسان فيها أضحى وسط تيه لا أول له ولا آخر، وسكان تلك البيوت يكادون يكونون مقشوري اللون، وسخّنهم آية في الجمال، والمغاربة أفتحُ لوناً من المصريين؛ فلقد دخلهم الدمُ الأوروبي يوم كانت إسبانيا مُتصلة بأفريقيا. ومما يروّك عند الأصيل الفتياتُ الصغار، كلّ تحمل لوحة عليها رغيف أو اثنتين تخرج بها إلى المخبز لتنضجها، والخبز شبيه «بالخبز الشمسي الكبير في صعيد مصر». وقد دخلتُ مَغْنَى مراكشياً في بلدة مكناس، ظهرت على مسرحه سيدتان في الأردية المغربية، وبيد كلّ «طبلّة» أسطوانية نحيلة طويلة، وقد جلس في الصدر ثلاثة رجال، بيد الأوسط «كمنجة» يعزف عليها مقلوبة كأنها الرباب، ويُمسِك الآخران بالطبل الأسطواني النحيل، وترقص الغواني على نقرات الطبل وهنَّ يُغنين بأصوات كأنها أصوات المعزى، وفي فترة الراحة تطوف واحدة تجمع الهبات (النقود).

وفي الدار البيضاء قَصَدْتُ إلى مكتبة أنتقي منها ما يروقني من «الكرتات» المصورة عن البلدة، كما هي عادتي عندما أنزل البلد لأول مرة، فرأيتُ بعض المناظر الجذابة كُتِبَ عليه «درب السلطان»، فاعتزمتُ زيارته، فسألتُ رجل الترام: أَيْصِلُ هذا إلى «درب السلطان»؟ فابتسم وأشار بالإيجاب، ثم همس في أذن زميله همسات مُربية، وأخذ كلُّ آونة يرمقني ويضحك، وما كدتُ أصل وأجتاز البوائك البديعة حتى فهمتُ أنني في مكان البغايا، فعجلتُ بالانسحاب بعد أن عانيتُ منهن كثيراً، وهنا فهمتُ غمزات السائق وسخريته وأنا أركب الترام إليه!

ومن أجمل ما يروق الغريب في تيطوان مظهرُ السيدات يَسِرْنَ في ملاءاتهن البيضاء من الصوف الثقيل، وقد يحملن وراء ظهورهن أطفالهن، فترى الطفل وقد وُثِّقَ إلى ظهر أمه يبدو في كرة منتفخة وراءها، وعند الأصيل يتزاحم القوم من وطنيين وإسبان عند الميادين، بعضهم يمشي ذهاباً ورجعةً، والبعض يؤمُّ المقاهي الكثيرة هناك يستمعون لأنغام الموسيقى الإسبانية الجميلة، التي يخالها المرءُ شرقية بحتة. وتُشْرِف على المدينة «القصبة»، وحولها المباني القديمة في بيوت كأنها الأحجار، بعضها مُرَكَّب فوق بعض، وأزقتها مُلتوية مُختنقة، يعلوها الإنسان في صعودٍ وعُر، وهي قدرة. وقد صادف أن دخلتُ زقاقاً مغلقاً، فما كاد يُبصر بي السيدات حتى صَحَنَ: «النصراني، النصراني»، وأخذن يُشبعُنني سباً وشتماً، فعجلتُ بالرجوع.

في آسيا

سوريا

لا يكاد الإنسان يُفَرِّق المرأة من الرجل في الهندام؛ فهو سروال ضخم وقميص، ثم حزام عريض، وتلف المرأة حول الرأس عصاية سوداء. وهُنَّ سافرات، ويكثرن من التزيّن بالجواهر والحلي، والسيدة تقوم بعملٍ شاق، فهي تحمل جرار الماء، وتجمع الحطب، وتساعد الرجل في الحقول، وأسعدُ وقت لديهن: وقت الحصاد، عند جمع الزيتون وجني العنب، حين لا ينقطعن عن الضحك والغناء. والزواج هناك مُبَكَّر؛ فقلّما تجد فتاة في سن العشرين غيرَ متزوجة، وميلاد الولد يُعدُّ منةً كبرى، وهم يُدُلّلون الأولاد ويُفَسِدونهم، ولا بد أن يُلفَّ الولد الصغير في قماشٍ نثرٍ بمسحوق الملح؛ لمنع العين الخبيثة من جهة، ولتخفيف الرائحة الكريهة التي يُسببها العرق، وهل يمكن لك أن تُلَاطِف طفلاً قبل أن تقول: «ما شاء الله»؟ وجلّهم يُعلّقون خرزة أو زجاجة مُستديرة زرقاء اتقاءً الحسد، وإذا كان الطفل ضعيف الجسم يُسمّونه باسم أحد الوحوش الكاسرة، ولو علّق الولد قطعة من فقرات الذئب حول رقبتِه أَمِنَ المرض. ومن سوء الحظ ونكد الطالع أن تُلاقِيَ سيدة تحمل جرّة فارغة، خصوصاً عند مرور حفلة زواج، على أن الشر المتوقّع من هذا يخف أثره إذا كسرت المرأة الجرّة أو أدخلت فيها ذراعها! ولا يمكن أن تترك المرأة من بقايا شعرها أو قلامة أظفارها شيئاً، وإلا أثارَ فيها من يحرز جزءاً منها! ونساء الأغنياء من المسلمين محجّبات، يخرجن وعليهن «الإزار» الأبيض أو الأسود يُلقى فوق الرأس، ويضمّ إلى الجسد بحزام في الخصر. وسكان الشمال من العرب، وفي نسائهم مَسحة من جمال يُفسدها الوشم على الشفة السفلى، ويفاجئهن الكبر عاجلاً؛ وذلك لأنهن يتزوجن في سنٍّ صغيرة جداً، فإذا بلغت السيدة الثلاثين أصبحت في عداد العجائز. والعصبيّات الدينية هناك بالغة مبلّغها،

نساء العالم كما رأيتهن

وترى أهل كل ملة يقطنون في حيٍّ منفصل عن الأخرى، وتتعدد تلك الملل جدًّا، لكن المذهب السائد: المسلمون السنِّيُّون في جميع المدن ما عدا بيروت، وفي الجبال الغربية يسود مذهب الشيعة، وهم يُبيحون شرب الخمر، ولا يمكن أن يُؤتمن النساء في عُرفهم على سر؛ لذلك خبثت أرواحهم وقلَّ أن يدخلن الجنة.



الدروز يَرُدُّون الآبار بِجرارهم.



آنسات في بيت لحم في أزيائهم العجيبة.

ونساء الشام مُكْتَئِزَاتِ الجسمِ ببيضِ الوجوه، وهُنَّ على جمالٍ فَتَّانٍ يفوقُ الجمالِ المصريَ بكثيرٍ، وكُنَّ يتحدثنَ معي مُفْتَخِرَاتٍ بجمالهن على مصر، ومعجَبَاتٍ بخفةِ الدمِ المصري، تلكِ الخفةُ التي تُعَوِّزُهُنَ جميعًا.

وأجلى ما يبدو ذلك عند ما يسترسلن في الحديثِ بُلُغْتِهِنَّ الممطوطةِ وكلماتهن المنفُرةِ، ولن أنسى موقفَ إحدى السيداتِ الجميلاتِ، مع طفلها الذي خالفها مرةً وجمَحَ عنها وشرعَ في الجري بعيدًا عنها، فصاحتَ تنهره بصوتٍ جَهْوَري وهي تقول: «ولا فشخة، ولا فشخة»، أعني: قف مكانك، ولا تتحركَ حَظْوَةً واحدةً.

تركيا

ونساء الأتراك رغم سفورهن بعباداتٍ عن الخلاعة والإسراف في التزيُّن، فهُنَّ يسرن في وقار، وهُنَّ في نظري لسنَّ ساحراتٍ في الجمال، والجمال الفاتن نادر بينهن، فالشامياتُ أوفُرُ جمالًا، كذلك تعوزهن الرشاقة، ولم يَقَعْ نظري على سيدةٍ تحكي «كرمان هانم» ملكة الجمال لديهم؛ ولذلك لم أعجب لانتخابها رغم أنها دون ذاك المقام في ظننا. لكنني أعود فأمُتدح فيهن هذا الاتزانَ والوقار، فالتركية زوجة فاضلة لا محالة، فكنتُ ألاحظُ الكثيرَ منهن يلبسن ملاءاتٍ وفوق الرأسِ قناعَ أسود كالستار، لكنه بدل أن يُسدَلَ على الوجه يُرَفَعُ فوق الرأسِ، فظننتُ أن هذا من أثر الرجعية الأولى. وقد أسفر النساءُ جميعًا اليوم، بحيث إنك لا تفرقهن عن الغربيات.

وهن على أدبٍ جم، حتى في المجتمعات العامة لا تكاد تسمع لهن هرجًا، ففي أنقرة تُفَتَّحُ حدائقُ البرلمان للجماهير؛ للنزهة وسماعِ الموسيقى، وكثير منهم من النساء يسرن في كمالٍ زائد ووقار كبير، ولا تحينَ منهم تلك اللَفَتَاتُ التي يراها الإنسان في غيرهن من سائرِ نساءِ بلادِ أوروبا، وفيهن شيءٌ كثير من رزانة الإنجليزيَّاتِ وبرود طباعهن، فلا تهتزن لما يقع حولها، وحتى في المغاني الرئيسية في حي «تاكسيم» في إصطنبول حيث يَعْرِضُ بعضُ الرقصِ التركي، ويَسْمَعُ الناسُ أشهرَ المغنياتِ هناك، خصوصًا «حميت وصفيت»، وهما في مقام أم كلثوم عندنا، كان المستمعات على قُلَّتِهِنَّ يَسْتَلَفَتُنَ أنظارنا بهدوئهن وكمالهن، رغم أن المفروض في رِوَادِ تلك الملاهي أن يخلعن عنهن بعضَ التكاليفِ ويخرجن على بعضِ التقاليد.



سيدة تركية تلبس رداء الرأس الجديد.

وعناية القوم بأطفالهن زائدة، فكنْتُ أرى الأب المدقع في ثيابه البالية، يحمل طفله في هندامٍ نظيف ووجه أبيض ناصع لا تشوبه قذارة قط، والرجال يُعَنُون بأطفالهم ونسائهم، فتَرى زوجةً هذا الفقير في أردية نظيفة، فلا تَكَاد تُصدِّق أنها زوج ذاك الصعلوك.

العراق

حللتُ بلاد كردستان وافدًا من تركيا، والناس هناك خليطٌ عجيب من الأرمن والكُرْد والعرب والشوام، في أشكالٍ قذرة ومظهر مخيف! فكأنهم جميعًا من قُطَاعِ الطرق. وكانت تسترعي النظرَ الكرديَّةُ بعيونها السوداء البرَّاقة الواسعة، وأنفها الأنثم، وقامتها الطويلة، وشعرها الأسود الغزير، والنساء هناك يلبسن خِرْقًا مرَقَّعة، ويُدلين من الصُدغين خصلتين ثقيلتين طويلتين من الشعر، وتُرَبِّط الجبهة بمنديل ملون وكأنهن «العجبر»، والبلاد يَظهر عليها الفقر والجوع بشكلٍ مخيف.

ثم نزلتُ على بلدة الموصل التي أذكرتني بهجير بلاد الهند، وعلى ضفاف دجلة كان يُلقِي القومُ قُمَاماتهم وأقذارهم، وترى النساء يغسلن ثيابهن وبيد كلِّ مطرقة لدقِّ الثياب، ومنهن فئةٌ من عبدة الشيطان، ومن عاداتهن أن تُقرَعَ الطبول عند زواج أي فرد منهم

لإشهاد الناس أن فلاناً قد تمّ زواجه من فلانة، وهم يُبيحون تعدد الزوجات، لكنهم لا يُبيحون الطلاق قط. ونسأؤهم سافرات إلا في الأسبوع الأول من الزواج، حين تظل الزوجة في عزلة تامة، والأمير يستطيع بسُلطته أن يسلب أية فتاة شاء، ولا عيب على الفريقيّن في ذلك. والشيخ هو الذي يقود الزوجة إلى بيت زوجها ليلة الزفاف، ولا تخطو عتبة الباب إلا بعد ذبح شاة دهما وهي داخلة، ولتوثيق صلة الزوجية يضرب الزوج جرّة (قلة) بها مجموعة من أجراس في الحائط فوق رأسها، ثم يكسر رغيفاً ليُعلّمها كيف تكون شقيقةً بالجانعين.

أخيراً أقبلنا على بغداد من موردٍ مُتهدّم مترب منقر، فكنا كأننا ندخل في قرية صغيرة، ووقفنا قليلاً على محطة «بغداد شرق»، ثم نزلنا في «بغداد غرب»، فكانت مني خيبة أمل؛ لأنني كنت إخالُ بغداد رائعة المناظر طليّة البُنَيان، تليق بعاصمة دولة ناهضة ذات ماضٍ مجيد. نقلتني عربةٌ واخترقنا الشارع الوحيد فيها، وهو شارع الرشيد الذي يقطع البلدة من طَرَف إلى طرف، وبه كثير من المتاجر ودُور الملاهي والمقاهي، مبانيه قديمة وفي غير انسجام، ولا تكاد الأبنية تعلو طبقتين، وتمد على جانبيه الأعمدة على نحو ما تراه في شارع محمد علي بمصر، وفي جانبٍ منه وقف بي السائق أمام «نزل هلال»، وما كاد يستوي بي المجلس ويُخيم الليل حتى كان الفناء الرئيسي للفندق، وهو الذي تُشرف عليه كل الحجرات، مكاناً للغناء والموسيقى والرقص، مما أذكرني بِرَفّه بغداد إبّان عُرْها البائد، وجال الفكرُ في ألف ليلة وما رُوي لنا من أعاجيب. نزلت فإذا المكان غاصّ بالمستمعين المترنحين والغانيات الجميلات وقد لعبت الخمرُ بعقولهم، ثم خرجتُ إلى الطريق فإذا سيول من الناس في لهوٍ ومجون، رغم أن الهدام الشرقي العربي كان يتنافر مع كل أولئك.

وعند الأصيل يدهش المرء لسيل المارّة الدافق فوق القنطرة الرئيسية «أو جسر مود»، وجماهيرهم المتلاصقة الأكتاف من نساء ورجال يروحون ويغدون في نشاطٍ وحركة، كأن البلدة في يوم عيد، هنا يعتقد المرء أن الشعب العراقي مَرِح، ميّال إلى الرفه والمجون بشكل يفوق كل وصف. وقد استرعى نظري جمال السيدات ورشاقتهنّ، يسير السافرات منهن — وغالبهن من اليهود — في هندام أنيق، عليهن المعاطف المهفهفة تتدلّى من فوق الرءوس وكأنهن يُفاخرن بإزارهن هذا؛ فهو لا يقل ثمناً عن عشرة جنيهاً، وللأغنياء بأضعاف ذلك، والمسلمات يسمونه «العبا» ويلبسنه حتى صغار البنات، وهو من حرير يُنسج على اليد، وبعضه تتخلله خيوط الذهب. ويلفت النظر في نساء العراق شعورهنّ المرسلّة الغزيرة التي تزيدهن جمالاً، ويقولون إن الحنّاء التي يغسلون بها الرأس عند الاستحمام هي سبب



لا يزال نساء الإسرائيليات في بغداد محجّبات.

ذلك، ولعلّ نقطة الضعف في جمال النساء طول الأنوف ودقّتها. ويندر أن ترى بينهم القامات الطويلة والأجسام الممتلئة السمينة بين كلا الجنسين، على أن منطقهم جميعاً منقّر غير موسيقي.

وبغداد كلها فيما عدا شارع الرشيد أزقة نظيفة، أرضها مرصوفة، يتوسّطها مجرى صغير لصرف المياه. وتكاد الشرفات «المشربيات» المتقابلة تتلاصق فتحجب الطريق عن الشمس والنور، والبيوت جلها في هندسة شرقية ذات فناء سماوي تُطل عليه نواحي البيت الأخرى، ويتوسّطه حوض ماء، وأبواب البيوت مُنقّلة بالحديد والنحاس كأنها أبواب القلاع في نظامٍ شرقي بحت، والنساء زاهبات غاديات، وبعضهن يتجاذبن أطراف الحديث من النوافذ في جمالٍ فاتن ونغمات موسيقية ساحرة. هنا ذكّرت المجتمع عهد أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد، حين كان الرشيد يُنفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم، وعلى السماط ثلاثون صنفاً من الطعام تُقدّم في أواني الذهب والفضة، وقد أقام وليمة لزبيدة كلّها خمسة وخمسين مليون درهم، وكان يُقدّم للناس أطباق الذهب تُملاً بالنقود الفضية، وأطباق الفضة تُملاً ذهباً. وقد أثقل زبيدة بالحلي حتى إنها لم تستطع النهوض والسير خطوة، ولقد كانت زبيدة مُسرفة، ومن ذلك أنها صنّعت بساطاً من الديباج جمّع



الأكراد في أردية الحفلات.

صورة كل حيوان وكل طائر؛ الأجسام بنسيج الذهب، والعيون باليواقيت والجواهر، وقد كلفها مليون دينار، وكان ثمن ثوبها الواحد خمسين ألف دينار. هنا ذكرت أيضاً البرامكة وما وصلوا من رفه وسلطان؛ فقد كانوا أكثر ترفاً، مجالس الطرب في دورهم كل ليلة، والراقصات من الغواني أمثال «فوز، وفريدة، ومنة» لا يغبن عن تلك المجالس، وقد كانت تُعرض الغانيات من كافة جهات الدنيا للبيع في سوق النخاسين، وكان الدلال يُنادي ويصف الجوارِي ويُعدّد في جمالهن ومحاسنهن، فساق الله عليهم زبيدة، وقد أسلم الرشيد لها كل شيء حتى مالىة البلاد، فأخذت تُنفق عن سعة وإسراف، فأحصوا لها أنها أنفقت وحدها ثلاثين مليون دينار، وبنت مسجداً على دجلة باسمها، وأنشأت عين زبيدة في الحجاز، وأوصلت ماءها إلى مكة وكلفتها مليون دينار. وقد بلغت موارد بيت المال في عهدها خمسمائة مليون درهم من فضة، وعشرة ملايين دينار ذهباً، وهي أوفر ما حصل في دول الإسلام جميعاً. ولما مات أبو جعفر قال للمهديّ في وصيته: إنه خلّف له من الأموال ما إن كُسر عليه الخراج عشر سنوات كفاه لأرزاق الجند، ومصلحة البيوت، وغيرها.

خرجت يوماً إلى المقابر وزرت قبر زبيدة زوج هارون الرشيد، ويمتاز عن باقي القبور حوله بأنه نُحت في مُثَمَّن، تعلوه قبة في شكل مخروط مجزع يسترعي النظر، وحولها مدافن

أخرى ممدودة، أهمها مدفن بهلول سمير هارون الرشيد، يَوْمُهُ كثير من الناس وبخاصة السيدات يوم الأربعاء، دخلته فإذا في فنائه عدة مبانٍ نموذجية صغيرة من القش والخرق، وتُسد منافذها بالحناء، منها واحد وُضع داخله مهدٌ طفل أقامته سيدة عقيم لا تلد؛ رجاء أن يمن الله عليها بمولود، وآخر داخله سرير تنام عليه دُميتان متجاورتان وضعتته فتاة تطمح إلى الزواج، فإذا ما أُجيب السؤل ذهبت صاحبة البيت وهدمته وقدمت القرابين.



خير ما يرى الجمال العربي الصميم اليوم في نساء العراق من المسلمات.

واليهود في العراق شرفيون في كل شيء؛ في الأزياء، والعادات، والخرافات، وحتى في الزواج؛ لا يخالط الفتى خطيبته ولا يراها إلا يوم الاتفاق على المهر! والفتيات يتزوجن مبكرات بين الثانية عشرة والسابعة عشرة، وفي الزفاف يحضر الحاخام (الربي) ومعه كأس يملأها نبيذاً يباركه، ثم يشرب منه الزوج نصفاً والزوجة الباقي. وفي المآتم يحتشد أقارب الفقيد في بيته نساءً ورجالاً، ويصيحون عاليًا، والجميع يشقون ثيابهم حزناً ويلقون بالثرى على رؤوسهم.

ولقد استرعى نظري في النجف كثيرٌ من الأطفال الذين يلبسون في آذانهم حلقاتٍ خاصة، هي علامة أنهم من ذرية زواج المتعة المنتشر بين الشيعة، ففي موسم الحج إذا ما حلَّ زائرٌ فندقًا لاقاه وسيطٌ يعرض عليه أمر المتعة مقابل أجر معين، فإن قبل أحضر له

الرجلُ جمعًا من الفتيات لِيَنْتَقِيَّ منهن، وعندئذٍ يَقْصِدُ معها إلى عالمٍ لقراءة صيغة عقد الزواج وتحديد مدته، وهي تختلف بين شهور وسنوات، والمهر نحو أربعة جنيهاً للشهر، ولا عيب على الجميع في ذلك العمل لأنه مشروع، ولا يَلْحَقُ الذرية أيُّ عارٍ مطلقاً. وعند انتهاء مدة الزواج يفترق الزوجان، ولا تنتظر المرأة أن تعتد، بل تتزوج بعد ذلك بيومٍ واحد، فإن ظهر حمل فللوالد أن يدَّعيَ الطفل له ويأخذه من أمه إذا بلغ السابعة.

ويرى أهلُ السنة في ذاك الزواج وزراً كبيراً؛ إذ حرَّمه النبي ﷺ، وكان مُباحاً في الجاهلية وفي الحروب في الإسلام، ويخال البعض أن منشأ تلك العادة بابل، يوم أن كانت الفتيات يُستأجَرْنَ للحُجَّاج في معابد «أشتر ومردوك»، ولا تزال لها بقية في «عاهرات الإله» بين الهندوس كما سيُرد في الكلام على نساء الهند.

ولا يزال كثيرٌ من الناس يُسمِّي بلاد العراق ببلاد السحر؛ لأن خرافاتهم لا حدَّ لها رغم أن الإسلام محامٍ منها الكثير، ومن ذلك اعتقادهم في الحسد وأثر العين الخبيثة، فبعض الناس حُسَّاد بفطرتهم، تُؤثِّرُ عيونهم في الغير أثراً سيئاً، ولو كان ذلك خارجاً عن إرادة أولئك الحساد، والويل لمن عُرف عنه ذلك، وكم من مرة طُلِّق الزوج زوجته لاعتقاده أنها حاسدة.

وهم يتَّقون العينَ بلبس اللون الأزرق وتعليق الخرز الأزرق في بيوتهم وزوارقهم وسياراتهم. ويظهر أن تلك العادة أثَّرت حتى على بعض بلاد أوروبا؛ لذلك كنتُ أرى لون القيشاني بالمساجد جميعاً في لونٍ أزرق، وحتى السيدات يَحْكُن في طَرَفٍ إزارهن بقعة زرقاء. كذلك كنتُ أرى كثيراً من أبواب البيوت قد دُقَّ عليها حذاء قديم، وأنت تسمع دائماً عبارة «ما شاء الله» يقولها الناس جميعاً. ويتركون عيون الأطفال قدرة وأرديتهم مهلهلة مخافة العين، وقد تطوف الأم على سبع فتيات عذارى في بيوتهن، وتعطي كل واحدة قطعة من رصاص تضعها في فمها وتَبْصُقُها بين ثوبها وجسدها حتى تسقط على الأرض، ثم تأخذها الأم وتَصهرها في روث البقر، ويُوَضَّعُ ذلك على رأس الطفل. وكثيراً ما كنتُ أرى الطفل يُرسل شعره ويلبس لباس الفتيات خشيةً أن يحسده الناس؛ لأن الفتيان مفضَّلون على الفتيات.

وكثيراً ما يلجأ الزوج إلى «فَتَّاح الفال»، فيكتب له ورقة يَضَعُها على رأسه ثم يقرأ تعاويذ، ويأمره أن يُذَيِّبها في الماء ويشرب بعضه، ويحاول أن تشرب زوجته الباقي، ثم يعطيه بَخوراً يَحْرِقُه عند الغروب، وبعد ذلك تحبه زوجته. ورأيتُ رجلاً يغسل يده من دِجْلَةٍ ثم رمى فيه بيضة، وعَقَّبَ وراءها بحجر؛ وذلك لكي يُحَبِّب فيه مَنْ يريد من النساء.

ولشفاء السعال الديكي الذي يُسمونه هناك «حميرة أو خنزيرة» تذهب الأم إلى بائع أحمية وتفاجئه قائلة: «يا كلب، سوي لي كلب؛ خاطر الكلب ابن الكلب.» فيسلخ لها قطعة جلد يحملها الطفل المصاب فيُشفى! وبعضهم يسقي الطفل ماء ولغ فيه كلب أو خنزير. ويجب أن تحب المرأة العقيم تحت جمل واقف لينفك عُقمها، والمسيحية تركع تحت نعش في الكنيسة، وكل النساء من مختلف الديانات يُعلّقن خرقاً حول مدفع قديم يسمونه «أبو خزامة»، رأيتُه عند القلعة القديمة في بغداد، وقد رأيت سيدة تضع رأس طفلها في فوهة المدفع ليعيش طويلاً.

وروى لي البعض أن سيدة من الأغنياء مرض طفلها، فلبست خرقاً مقطّعة وخرجت بها وهي عارية الأقدام تستجدي من سبعة بيوت بقولها: «من بركاتكم.» وابتاعت بما تجمّع لديها قطعة ذهب، وكتبت عليها «يعيش»، ثم لبسها طفلها، وقد تستجدي من سبعة أطفال باسم محمد، ثم يصهر ما جمّع ويُعلّق في رقبة الغلام ليعيش طويلاً. وإذا خشيت فتاة ألا تتزوج أدّت فريضة الحج إلى الإمام الكاظم أربعين يوماً، تخرج كل يوم مبرّجة عارية القدم ولا تكلّم أحداً، وإذا وصلت الضريح قرّعت بابه ونهت الإمام أنها حضرت إليه، وبذلك تضمن زوجاً سريعاً. كذلك يهتم فتيات العراق بأخذ نصيب من الحلوى التي تُوزّع في الأفراح ويأكلن منه؛ لأن ذلك يُعجل بزواجهن. والشيعية يُعدون الأيام الأولى من محرم شؤماً؛ لأن الحسين قُتل فيها، وكذلك أيام صفر لأن النبي مات فيه، ويوم السبت والخميس أسعد الأيام، وإذا القمر خُسف في رمضان وجب إزعاج الحوت الذي يقرب من القمر في زعمهم، وقد يبتلعه؛ لذلك يعمدون إلى الطبول والصفائح يقرعونها إرهاباً له. وفي تقليد الأظافر يجب البدء بالخنصر، ثم الوسطى، ثم الإبهام، ثم البنصر، وأخيراً السبابة، هذا في اليد اليمنى، أما في اليسرى فيبدأ بالإبهام، فالوسطى، فالخنصر، فالبنصر، فالسبابة. وكثيراً ما يلجئون إلى سيد من سلالة الرسول — حتى اليهود والمسيحيين — لطرد الجن من الأطفال. وأكل قلوب الصبية الصغار شفاءً لبعض الأمراض؛ لذلك يحاول الكثيرون اختطاف الصبية وقتلهم لهذا الغرض، ويعتقدون أن الجن قد يحب فتاة آدمية، قد يُناديها فتقوم وراءه ليلاً إلى سراديب الدار ثم تعود. والجن في زعمهم لا يتعرض لمن يحمل طفلة صغيرة بأذى قط؛ لذلك لا تجرؤ امرأة أن تمر في مكانٍ مظلم موحش إلا وهي تحمل طفلة. والبيوت لا تُسكن إلا إذا شاع عنها الخير، وقد يبقى البيت الجديد طويلاً دون أن يستأجره أحد خشية أن يكون مجلبة للنحس. وكثيراً ما يسمون الأطفال: «مش عاوز»، أو «وحش»، أو «حصبة»؛ خوفاً عليهم. وإذا سقط إناء ولم ينكسر وجب كسره وإلا كان

شؤماً! وإذا طارت بومة فوق النائم صاح قائلاً: «ملح وسكين»، وإلا حلَّ النكد لا محالة. ومن أمثال تلك الخرافات شيء لا يُحصى، ويخيَّل إليَّ أن كثيراً من خرافاتنا وصلت إلينا عن طريق الجزيرة وبابل وما فيها من تخمين وأوهام وسحر، وللنساء هناك النصيب الأكبر في التمسُّك بكل أولئك؛ لِمَا عُرف عن المرأة من الرجعية والتمسُّك بالقديم.



مثل من الجمال الإسرائيلي في بغداد.

إيران

قمتُ إلى بلاد إيران، وما كاد الأصيل يُقبِل وأنا في كرمان شاه، حتى أدهشني جمال السيدات يَسرن نصف محجَّبات، يلبسن إزاراً شبيهاً بإزار أهل العراق، ولكن النقاب شبكة من قماشٍ أسود مقوَّى تقف مائلةً أمام الوجه، وجمالهن فائق لولا طول الأنوف وتحديقها، وهن أكثرُ حرية من نساء العراق.

أخذتُ أتجول في القسم المستحدث من طهران، وهو جميل، طرقه فسيحة يُجانبها الشجر، وتجري إلى جوارها قنوات الماء، وتقوم عليها المباني الوطيئة. وهناك بعض متنزهات لا بأس بتنسيقها، تكتظُّ بالمتريِّضين في كثرة هائلة، ومن بينهن كثيرٌ من الأرامل طالباتِ زواج المتعة، ويغلب أن يَكُنَّ من الفقراء، يقصد الرجل وإيَّاه إلى الفقيه العالم، مُعلنين إيَّاه أنهما يُريدان زواج المتعة، أو «الصيغة» فيقرُّهما، ويُعدُّ الأمر بعد ذلك مباحاً.



الآنسة «مجر»: ملكة الجمال في إيران لعام ١٩٣٥.

وملاهي القوم مقصورة على المقاهي ودُور السينما، أما الراديو والتمثيل والمراقص فنادرة. وموسيقاهم شرقية بحثة، وهي أقل تشذيباً من الموسيقى التركية، وأحبُّ الغناء ما كان صيحات، أشبه بأغنية الفلاح المصري وهو يسقي زرعه بالعود في صعيد مصر، وغالب الأنغام من نغمة «العجم»، مما يؤيد أن هذه البلاد هي أصل تلك النغمة. وأحبُّ الآلات الموسيقية لديهم عود يسمونه «تارة» ذو أربعة أوتار مزدوجة من السلك الرفيع، ولا تُشدُّ عاليًا، ورقبته بالغة الطول، وهي مقسّمة بأربطة، وبطن العود «القصة» دقيقة الوسط منتفخة الجانبين، وهي أصغرُ من «قصة» عودنا، ونغمته مُطربة «بين المندولين والطنبور»، والدفُّ والنائي مستعملان بكثرة، والكمان على قلة.

وحول بحر الخزر كان القوم يستأصلون الأحرار من مساحات يزرعونها من الأرز والطباق، والعمل يقع كله على السيدات اللاتي كنَّ يظهرن في ملاءاتٍ بيضاء ناصعة. وقد استرعى جمالهن نظري؛ فهو مُخالف للسَّخَن الفارسية، ويظهر أن اختلاط الروس بالفُرس هناك أكسبَ أولئك جمالاً عالج كبر الأنف الفارسية، وأشربَ اللونَ الفارسي الأبيض الناصع بعضَ الحُمرة الروسية الجذابة. والناس في تلك الجهات يَمونون أنفسهم بكل شيء من عمل أيديهم، وحتى الملابس ينسجونها، ويربُون دود القز.



مثال للجمال الفارسي.

وقد مُدَّت على شاطئ البحر الحداثُ والمقاهي، فكنتُ وكأني في إحدى مدن الرفييرا تماماً، وفي الحق أن تلك الجهة من فارس فريدة تختلف عن سائر جهات فارس في كل شيء؛ في طبيعة الأرض، وفي الجو، وفي النبات، وحتى في سكانها، فهم أكثر نشاطاً وجمالاً. والسّمك غذاء رئيسي للناس، فهو والأرز عماد الطعام، وكان لهما أثر حسن في أجسامهم؛ فهي هناك ممتلئة عن سائر جهات فارس الأخرى، إذ لم أعثر على القامات الطويلة والأجساد السمينة إلا في تلك الناحية من بلاد فارس كلها.

أصبحنا يوم الجمعة، والجو جميل والسماء تنتثر بالغيوم المتقطعة، وقد أمضينا ليلتنا في نزل «سافوي» في رشت، وهو يُطل على ميدان البلدة الجديد الذي تمتد منه الطرق المستحدثة البديعة وتزينه المتنزهات، والمنظر من شرفة المنزل رائع؛ السماء تنقشها الغيوم، والخضرة تمتد إلى الآفاق، والمباني حولنا فاخرة، وجماهير الناس في أنظف ثيابهم؛ لأنه يوم الجمعة، يوم الراحة القومية، يروحون ويغدون في كثرةٍ تسترعي النظر، ولا يخلو الجمع من طائفتين؛ الغانيات في إزارهن الأسود المهفّف، والمتسوّلات اللاتي يُمسكن بتلابيبك ويصحنّ في نغمة البائس المتماوت قائلات: أرباب ... أغا ... وأكفهن مبسوطة، وكثيرٌ منهن ممن يظهر في هندامٍ نظيف ووجهٍ مُشرق، مما أثبت أنهن على شيءٍ من اليسار.

نساء العالم كما رأيتهن



يحتفل النساء والرجال بعيد الميلاد في سفح جبل دماوند.



الموسيقيّات المتجولات في إيران، والجالسة تعزف على التارة، أحب الآلات عندهم.

قُمتُ إلى أصفهان، ولن أنسى جولتي في «خيابان جهار باغ»، أعني: طريق الحدائق الأربع، وهو في امتدادٍ عظيم، واستقامة تكاد تشقُّ المدينة كلها، وتعبّر النهر وتمتد إلى ضاحية «جلفا»، وكأنه ثلاثة طرق متجاورة؛ الأوسط الفسيح تحفُّه أشجار الشنار الهائلة،



فتاة من بدو إيران تزوجت ولما تبلغ السادسة عشرة.

وهي مُتجاورة تكاد تُظِلُّ الطريق كله، يُجانبه طريقان آخران أقلُّ سعة، وبينهما وبين الإطارين شجرٌ يُماثل الأوسط، وفي مجاورة صفوف الشجر مجاري المياه المألوفة في بلاد فارس كُلِّها، وهي مُستراضُ الناس طيلة اليوم، وبخاصة عند الأصيل حين يغصُّ بالغانيات. وفي إيران إذا ما بلغ الغلامُ السادسة عشرة حلَّ ميقات الزواج، وقلَّما تجد رجلاً أعزب هناك. ومن عاداتهم التي لا يكادون يَحيدون عنها: قَصْر الزواج على أبناء العمومة والخُولة من العائلة نفسِها، وعدم مصاهرة العائلات الأخرى؛ وذلك لكيلا تخرج ثروة العائلة عنها، ولأن الأقارب في نظرهم أكثرُ محافظَةً على الوُد، فلا يُثيرون متاعبَ للأمهات، على أن ضرر تلك العادة كبيرٌ من الناحية الصحية؛ لأن ذلك يُضعِف النسل تدريجيًّا. وحفلات الزواج شائعة جدًّا، فالزوج يقدم الهدية من «صينية» عليها زُهاء مائة نوع من العقاقير، وكذلك يُقدِّم مِراة وقماشًا أبيض لتُغطَّى به العروس ليلة الزفاف، كذلك بعض الشمعدانات (ماثلات)، والأحذية، هذا خلاف الحلي، ويقوم أهل الزوج في حفل للقاء أهل الزوجة الذين يَفدون في حفلٍ إلى بيت الزوج ويُرحَّبون بها، وهنا يُلاقبها الزوج نفسه ويُزيح عنها قِناعها، ثم يجلسان لتناول الطعام الذي أعدَّته الزوجة، ويحاول كلُّ منهما إطعام الآخر بيده، ولا تنطق الزوجة بكلمة حتى يُقدِّم لها هدية من حلي، والعادة أن تملأ العروس يدها ببعض الخبز والملح عندما تدخل بيتها الجديد لأول مرة تفاؤلاً. وهم

نساء العالم كما رأيتهن

يفرحون لميلاد الذكور ويُقيمون الحفلات، أما ميلاد البنات فيُقابَل بامتعاظٍ شديد، وقبل الوضع تُعدُّ الأم سريرَين للطفل، أحدهما فاخر يُكسى بأثمن الفرش، والآخر بسيط رخيص، وتُجهِّز حُلَّتَين؛ إحداهما من حريرٍ فاخر، والأخرى من قطن، فإن كان المولود ذكرًا تمتع بالأشياء الثمينة، وإن كانت أنثى خصَّها النوع الرخيص البسيط!



بدو الصحراء من الإيرانيين في سُويعات اللهو.

ويومُ النساءُ هناك الحمامات العامة بكثرة، وهي أشبه بأندية للسيدات يتلاقى فيها الصحاب، ويمضين سحابة اليوم في جوّها البخاري الدفيء ويتبادلُن الطعام، ويُحضرن معهن الوسائد الفاخرة من الحرير وصناديق التواليت الثمينة. وعند تناول الحمام تجلس السيدة في طَسْتٍ من نحاس أصفر، ويدعك جسدها كله بمسحوق كالتراب، ثم تنزل في حوض من الماء الساخن، وفي غرفة مجاورة تُكرّر هذا في ماء بارد، ثم يُجفّف جسمها ويدعك ويدلّك طويلاً، أما شعرها فيُصبغ بمخلوط الحناء والنيلج، وتُكحلّ العيون والحواجب والأظافر بالحناء.

أفغانستان

أما نساء أفغانستان فمُحجّبات لدرجة مُبالغ فيها؛ فالإزار الخارجي يحكي «الكيس»، قد زرَّ عند الرأس بحيث يُلْبَس فيها، وهو فضفاض من أسفله، وأمام العينين قطعة منه مُثقّبة



تلك العجوز قد أضافتنا في طريقنا إلى أفغانستان، وهي تُعِدُّ الفطير بيديها.

بخروقٍ للنظر والتنفُّس، وتحت الإزار سروال أسود سميكة يتدلَّى إلى الحذاء ويُربط فيه، فترى السيدة تمشي وهي تدبُّ دبيبًا في كتلةٍ واحدة تسترعي النظر، وبقدر ما رأينا من إباحة من قبلُ كانت الرجعية هنا في أشدها؛ لأنَّ غالب القوم هنا سُنيُّون يمقتون الشيعة وتصرفاتهم.

والحالة الاجتماعية تُثير الدهشة، فرغم الحجاب الذي يحوط المرأة فإن الفساد منتشرٌ سرًّا، والأمراض السرية شائعة، والعجيب أن ذلك يقع رغم إقامة الحدود، فإذا ثبتت جريمته بشهادة ثلاثة شهود، أو واحدٍ يُزكِّيه اثنان محترمان، أُلقيَ الجاني علانيةً من فوق قلعة البلدة إلى الأحجار المتراكمة من دونها، مسافةً لا تقل عن خمسة وعشرين مترًا، ويغلب أن يموت، والزانية توضع في كيس يحوطه الجند، ويؤمَّر المارَّة برجمها إلى أن تموت. ويلحظ الزائر الفرق الشاسع في أجسام الناس في تلك البلاد، فهي ممتلئة، تبدو عليها علائمُ القوة والصحة، عكس أبناء فارس النحال الهزال من سوء التغذية.

ثم كان وقوفنا وسط القفار والجبال إلى جوار رهطٍ من البدو، ضَرَبوا خيامهم بجانب الطريق يجاورهم مَجَرَى للماء، فأحاطوا بنا، وسرعان ما أحضروا خيمة أقاموها للنساء من رُكْبنا، ثم دعوا فريقًا منَّا لزيارة خيامهم، وكانت الداعية هي رئيسة القبيلة، عجوز شمطاء قد أحنى ظهرها كُرَّ السنين، وقد بدا لنا أنها صاحبة الكلمة النافذة في كلِّ مَنْ حولها.

نساء العالم كما رأيتهن



آنسة من الأفغانيات المسلمات في سن الزواج.



الحجاب في أفغانستان كامل هكذا.

جلسنا وسط الخيام، وكان عددها يُناهز العشرين أُقيمت في شكل هلال، وأخذنا نسمع
جلبة في داخلها وحركة اهتمام بأمرنا، وبعد قليل قُدِّمت لنا «قَصْعَة» مُلئت من فطيرٍ صُبَّ
عليه المَسْلِيُّ في كثرة عافته نفسي، وإلى جانب ذلك كثير من الرقاق وكعك أسمر، تُعَوِّز كلَّ

أولئك النظافة، ولم تكد النفس تُسِيغ الأكل لولا أنه فُرض علينا، وكم تعثّرت أسناني في الحصى والأوساخ، هذا إلى قذارة يد العجوز التي كنت أراها تكنس الأرض بها وبين أونةٍ وأخرى تَمْخُطُ فيها، ثم أعدتُ لنا بعض الفطير بنفسها. وقد تبَيَّنَ لنا أنهم فقراء مُدَقِّعون، فأدهشنا هذا الكرم الذي لا يُفَارِقُ البدو حتى في بلاد الأفغان. وبعد أن أكلنا نحن الأضياف نُقِلَ الإناء إلى العجوز بجوارنا، فأكلتُ منه قليلاً ثم سلّمتُ ما تخلف لرجال القبيلة، فأكلوا جانباً منه، وما بقي بعد ذلك حُمِلَ إلى النساء داخل الخيام. وأكثر من ثلث سكان الأفغان من هذا الفريق المتنقل، الذين يرحلون بقطعانهم من الإبل والحمير والخيول والأغنام.

الهند

لعلَّ مستوى الهندية لا يزال في أدنى الدرجات رغم الجهود العظيمة التي عُمِلت لتحسين حالها، ويرجع ذلك إلى شدة إخلاص النساء هناك لقيود الدين، وبخاصة الدين البرهمي الذي لا يقوم إلا على نظام الطبقات؛ فسلطان الرجل سائدٌ على المرأة في جميع الطبقات، وحتى طبقة «البرهما» أرقى الطبقات لا تُبيح لها أن تشترك في الحفلات ولا في الصلوات، وهم يُبغضون ميلاد البنات ويحتقرونه، وقد يَنْجُمُ عن ذلك أن يتخذ الرجل له زوجة أخرى، وتعدّد الزوجات شائع جداً خصوصاً بين الأثرياء. وقد تُخَطَّبُ الطفلة لغلامٍ تتزوج منه إذا بلغت الرابعة عشرة، وكانت من قبلُ تتزوج في طفولتها، لكن القانون حدد منذ سنة ١٩٣٠ السن الأدنى للزواج بالثامنة عشرة للذكور والرابعة عشرة للإناث، على أن الأبوين لا بد أن يُنمّا الخطوبة قبل بلوغ البنت الحُلُم، ويجب أن يكون الزوجان من طبقة واحدة، والمرأة التي تتزوج من طبقة أدنى من طبقتها تُصبح من المنبوذات، وتلك نكبة دونها نكبة الموت. والفتاة محظورة عليها التعليم، على أن الفتاة تجد في الزواج بعض الحرية عن بيت أبيها، خصوصاً إذا لم يكن للزوج أم، وعندئذٍ تصبح سيدة البيت وكلمتها تنفذ على الرجل، حتى جرى المثل على لسانهم: «بأن الرجل سبع خارج المنزل، وابن آوى في داخله». وأول عمل للمرأة الهندية في الصباح أن تَغْتَسِلَ ثم تلبس ملابسها، وتضع الطابع الذي يميز طبقتها فوق جبهتها، ثم تشرع في تنظيف أجزاء المنزل التي لا يصح للخدم من الطبقات الدنيا أن تمسّها مخافة أن تدنسها، كذلك تقوم بتنظيف الأواني، ومهما بلغ من سعادتها لا يصح أن تُغني أو تُصفر أو ترقص؛ لأن ذلك ينال من هيبتها. وهي قسيس الدار، تُصرف وقت فراغها في تلقين أطفالها أصول دينهم، والعجيب أن المرأة ترحب بالزوجة الثانية التي يتخذها زوجها؛ لأنها ستجد منها رفيقاً يُخفف من ألم عزلتها، أما الغيرة على زوجها من

ذلك فلا تجد إلى نفسها سبيلاً، فالمفروض وفاء الزوجة التامً لزوجها، أما هو فلا يُطالب بالوفاء لزوجته. وتَدَهَشُ إذ تعلم أن نساء الطبقات الدنيا أكثرُ حرية واستمتاعاً من نساء الطبقات العليا، وبخاصة الفقراء؛ لأن حالتهم لا تسمح بتعدد الزوجات ولا باتخاذ عاهرات الألهة Nautch girls أو دفاداسس، أو حيازة الخادِمات، ويُعنى الفقير بزوجه ويُنفق ما يَدَّخِر من دخله على تزويدها بالثياب والحلي، وكثيراً ما ترى المرأة يُثقلها الحليُّ وهي من بين أفراد طبقة دنيا، وعاهرات الإله فتنة من الراقصات والمغنيات يَهْبِهْن أَباؤهن للمعابد وهن صغار، وإذا بلغن الحلم استأجرهن الأغنياء فتراتٍ معينة بعدها يرجعن إلى المعبد، وفي المواسم يتخذهن الحُجاج والزوار محظيات إلى حين، ويتقاضى أجورهن القسيس مقابل تربيتهن، وإذا حملت الفتاة أنثى سارت سيرة أمها، وإن خلقت ذكراً أضحى من خدام المعبد، ولا عار في ذلك، وكم من عائلات عريقة وهبت بناتها للمعابد لتقوم بتلك الخدمات! وكثير من الهنديات يجدن في ذلك مُرتزقاً لهن، ويُجلهنَّ الناس جميعاً. ومن أعجب ما ترى في بعض المقاطعات مثل: «ترافانكور، كوشين» أن الميراث يُنقل إلى فرع النساء لا الرجال، والعرش نفسه لا يُنقل من الرجل إلى ابنه، بل إلى أكبر أولاد أخته.



آية من آيات الجمال البرهمي الهندي، وهن محجبات يقضين جلَّ حياتهن بين جدران منازلهن.

وأول ما استرعى نظري وأنا أركب البحر من جزيرة سيلان إلى الهند: منظر غني خلته سيدةٌ بادئ ذي بدء؛ لأنه كان يتدثر بملاءة بيضاء فضفاضة، ويتزيّن بالخواتم الجميلة الثقيلة في جميع الأصابع، وفي يديه السَّوار العريض، وفي آذانه قُرْط لامع، وفي رقبته عِقد

خاطف، وكان يتهادى في مشيته وكأنه الحسناء. ويحاول الجميع التزيّن ما استطاعوا رجالاً ونساءً، وتزيد زينة النساء بلبس الخواتم في أصابع القدم كلها، وبوضع قطعة من الفضة في جانب الشفة وأخرى في جانب الأنف، ولقد رأيت إحدى السيدات الغنيّات تسير عارية القدم ومن حولها الخدم حتى ركبت عربتها الخاصة. ولقد تعبتُ جدًّا في البحث عن مسّاح للأحذية، فلم أجد رغم كثرة أبناء السبيل والعاطلين. والنساء سافرات وليس في وجوههن مَسْحَة من جمال، وتتنوّع أزيائهن، لكن غالبهن يتركن الجزء الأعلى من الجسم عاريًا، أما الأقدام فعارية على الدوام.



فتاة من البرهما، وهي أسمى طبقات الهند مكانًا.

وعندما حلّت مدارس معقل الدين البرهمي لمست مبلغ سلطان القسس على أذهان الناس، وبخاصة النساء منهم، يتقاضون ضرائب من الناس جميعًا في مناسبات شتّى، من بينها: ميلاد الطفل؛ مخافة ألا يطول عمره عندما تكون سنه ١٦ يومًا، حين يغتسل بالماء المقدس، وعند تسميته، وعند حلق شعره، وفي تمام الشهر الثالث، وعند بدء تناوله للطعام في الشهر السادس، وعندما يبدأ المشي، وعند تمام السنة، وفي نهاية السابعة حين يبدأ تعليمه، وهنا يكتب له البرهما بالذهب على عضوين يُمسك بهما في يديه، ثم يأخذهما فيما بعد لنفسه، وعند عقد الزواج، وهنا تُدفع له مبالغ طائلة، وعند بلوغ سن الرشد، وعند

حدوث خسوف أو كسوف، وعند الموت حين يحضر ليبارك الجثة، وعند حرق الجثة، وبعد ذلك يُولم ابن المتوفى للبرهما وليمة كل شهر لمدة عام، وتُقدّم الهدايا والملابس إلى جانب الطعام، وبعد ذلك يُكرّر هذا مرةً كل سنة حتى يموت الابن! كل تلك حقوق للبرهما واجبة الأداء وإلا خسر الجنة! هكذا كانت قصة هندي متعلّم لي، وكان يرويهما وهو فخور بدينه. ومما أثار اهتمامي الزوجات الصغيرات اللاتي كن يحملن أطفالاً نحالاً لا يزيد وزن الواحد على أربعة أرتال أو خمسة، وكنتُ إخالهن يحملن إخوتهن لا أبناءهن، لكنني دُهِشت لما علمتُ أن زواج البنت يبدأ من سن الثامنة، فإن تأخّرت إلى الثانية عشرة عدّ بقاؤها عاراً لا يُمحى، ودلّ على وجود عيب فيها؛ ولذلك لم يكن عجيباً ما يبدو من جسمها الضئيل وبنيّتها الضعيفة، لصغر سنّها ولأنّها من سلالة ضعيفة مثلها، أما الزوج فقد يكون طفلاً مثلها، وقد يكون كهلاً أنهكت السنون قواه، وفي الحاليتين هو غير صالح إلا لإنتاج نسلٍ بائس ضعيف، وهم الزوجين أن يخلّفوا من الأبناء ما استطاعوا، وبخاصة الذكور. والأم لا تجد لها حديثاً أمام أطفالها إلا ما يتعلق بالزواج، فتُنشّط بذلك الميول الجنسية بين الأطفال وتفسد أخلاقهم عاجلاً، وهذا يُخلّف أثره السيئ في قوى النشء العقلية والجسمية. والزواج المبكر عند الهندوس واجب؛ لأن فيه عصمة من الأمراض وتعجيلاً بالخلف من الذكور، ذاك الذي يعدّه الآباء شرف العائلة.



إحدى الراقصات في أُرديتها الفضفاضة.

وقد نسي القوم الأثر السيئ لذلك في إضعاف الذرية وإنهاك القوى الحيوية؛ ولذلك ليس بعجيب أن ترى الهندي فاقداً لتلك القوى عند بلوغه الثلاثين كما أثبت الإحصاء الطبي ذلك؛ ولهذا لجأ الكل إلى تناول سموم المخدرات «خصوصاً الحشيش والأفيون» والمقويات التي يعلن عنها في جميع جرائدهم بشكل فاضح مُخجل، حتى إن الحكومة كثيراً ما تُصدر بعض الجرائد لجراتها على هذا النوع من الإعلان، وكثيراً ما كنت أرى من المدمنين على تناول الأفيون والحشيش، يركنون إلى الجدران في كل مكان بشكل قذر خامل، وكأنهم الذباب.



عجوز وشيخ وفتاة من سكان هملايا.

وكثيراً من النساء هناك عقيمات، وقد أيدَّ البحث أن ذلك راجع إلى ضعف قوى الرجال من جهة، وإلى تشويه الرحم من أثر الزواج المبكر من جهة أخرى، وكثيراً ما يلجأ الرجال إلى المعابد فيُرسلون إليها زوجاتهم بالقرايين كي يمن الله عليهن بالحمل، وفي العادة تظل المرأة هناك أياماً، فينوب القسيس عن الإله ليلاً فيبارك المرأة وتعود وهي حامل. ولعلَّ أسوأ نتائج هذا الزواج المبكر تقصير العمر خصوصاً بين النساء، وكثرة الموتى من الأطفال، فمتوسط العمر في بلاد الهند ٢٣ سنة، ويموت من الزوجات في كل جيل ٣ ½ مليوناً، تسعون في المائة منهن بسبب التهاب الرحم.

ومن العادات العجيبة أن الآباء قد يهبون المولود القادم للآلهة ابتغاء مرضاتها، فإذا كانت أنثى سُلِّمت لنساء المعبد، وإذا شَبَّتْ علَّمت الغناء والرقص، وإذا ناهزت الثامنة

أضحت خليلة أحد القسّس، وإذا ملّها أضحت راقصة المعبد، وفي مواسم الحج يستأجرها بعض الحجاج، فإذا ما ذبلت محاسنها يمنحها المعبد جُعلاً صغيراً، وتترك المعبد، ولا يرى أهلها في كل ذلك معرّة؛ لأنها اكتسبت اسم (عاهرة الإله Devadassisi)، وهؤلاء من مستلزمات المعابد كلها.

ويوصي الدين البرهمي بأن الزوج إله الزوجة في الأرض، خُلقت لسروره وخضعت له مهما فسد جسمه أو خُلقه أو عقله، ولا بد أن تُطيع حَماتها، ويا ويلها إن لم تُعقب طفلاً أو عَقبت أنثى، فلها أن تستعبدتها عندئذٍ؛ لذلك كان عدد المنتحرات بين سن ١٤، ١٩ مَرُوعاً، وإذا مات زوجها حتمّ الدين أن تُحرق جثتها معه suttee، وإلا كانت موضع اللعنات، ولم يُبح لها شيء من السرور ولا تتزوج ثانياً، بل تحلق رأسها وتقصد أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية، ويجب ألا تظهر كثيراً أمام الناس لكيلا يُؤثر فيهم نحس طالعها. وفي إحصاء سنة ١٩٢٥ بلغ عدد الأرامل في الهند ٢٦٨٤٣٨٣٨ وبمجرد شعور الحامل بألم الوضع تُنبذ في غرفة ضيقة مظلمة، ولا يُقرب أحدٌ منها قط لأنها أصبحت نجسة، وفي الحال تأتي المولدة (الدّاية)، وهي من الطبقات النجسة البائسة، فترتدي أقذرَ أسمالها وتُسد المنافذ وتُحرق الحطب؛ لأن الدخان والحرارة تساعد على سرعة الوضع، وإذا دخل الغرفة غريبٌ أحرقت بخوراً مُنّين الرائحة لمنع أثر العين الخبيثة، وتباشر عمليتها بأيديها القذرة، وتحاول إخراج المولود بالقوة، وتُشبع الأم لَكماً بالأيدي والرأس، وقد تطرحها أرضاً وتمشي على بطنها، وتضع في الرحم كُرّات من مواد جَريفة وقطعاً من شعر الماعز وأذنان العقارب وجلود الأفاعي وما إليها! وإذا تمّ الوضع لا تجرؤ المولدة أن تقطع الحبل السري؛ لأنه من عمل امرأة أخرى أخطُ درجةً من المولدة، فتنتظرها حتى تجيء. أما الطعام فيُمنع بتاتاً عن الأم بين أربعة أيام وسبعة، ويظهر أن السبب الأصلي ألا تُصاب أواني المنزل بـرجس. وكثيراً ما تتعسر الولادة بسبب ضيق عظام الرحم نتيجة الزواج المبكر فتموت الأم، فإذا رجحت المولدة موتها عجلت بتكحيل عيونها بمسحوق الفلفل لكي تعمى الروح فلا تستطيع الخروج، وقد تمد ذراعها وتدق مسماراً يُثبتهما في الأرض؛ لكيلا تستطيع الروح التجوّل في المنزل ومضايقة الأحياء!

وفي ناحية من كل معبد محرق الجثث، وهو بسيطٌ من الأرض تتوسّطه حفرة مستطيلة في شكل الجسم، ويُبطن أسفلها بالخشب، وكنا نرى إلى جانبه جثة سيدة لا بأس بملامحها، وقد خُصبت قدمها ويداها وجبهتها بالحناء، ودُثّرت رداءً أحمر، وعلمنا أن هذا دليلٌ على سعد طالعتها؛ لأنها ماتت قبل زوجها ولم تُصبح أرملةً بائسة، وكان يحوطها جمعٌ من

أقربائها وبعض النائحات المأجورات وجمهرة من المتسولين، وسرعان ما حُمِلَت الجثة ووضعت على الحطب، وكُدِّس فوقها حُطام الخشب، وهنا تُقدّم أقرب الناس إليها، وكان ابنها، وأمسك بشُعْلَةٍ وطاف حولها سبع مرات، ثم ألقى الشعلة على كومة الحطب، فالتهمت كل شيء ما خلا جزءاً من عظمة القص، وتلك التَّقَطُّها بعض القسس ووضعها في كرة من طين إلى جانب قطعة من ذهب قدَّمها أهل الفقيدة، وألقاها القسيس في النهر أسفل المكان، وهنا كنا نرى جماهير الناس يغتسلون في مائه لِيَطَهَّرُوا من ذنوبهم، وكان بعضهم يغترف من الطين ويفحصه؛ علَّه يعثر على بعض القطع الذهبية التي تُلْقَى في النهر مع بقايا الموتى، ومن الناس من يَغسل الجديان قبل تقديمها للإله، ومنهم من يملأ أواني من ماء النهر المقدس لِيَصْبَه على قَدَمَي الإله قالي داخل المعبد، فيَسِيل إلى عين يتلقَّف الماء منها جمهورُ الزائرين ويحتسونه تبرُّكاً على ما به من أوصار، وهم يُؤثرونه على ماء النهر؛ لأن أقدام الإله قد زادت طهراً. ومما زاد المنظرَ قذارة أن غالب عباد «سيفا وقالي» من الطبقات الفقيرة، أما الأغنياء فيألههم «فنشو»، وله معابده الخاصة.



فتيات المعابد (أو عاهرات الإله) اللاتي يُسرَّين عن الحُجَّاج.

وفي بنارس كعبة الهندوس أذكر موقفِي المزعج، تحوطني خمسُ جثث بعضها لسيدات ألبسن أقمشة ملونة، والبعض للرجال في أردية بيضاء، وبعد أن دُهِنَت الجثث بالمسلي غُمِرَت في النهر، وبعد تغطيتها بقطع الخشب تقدَّم أقرب الناس من كل جثة بشُعْلَة نار وطاف حولها سبع مرات، ثم أخذ يُشعل النار في أركان كومة الخشب، فتصاعد الدخان وعبَّت



نساء المنبوذين في ميسور من الهند.

الجوّ رائحة اللحم الآدمي تأكله النيران، وكان يُحاول كلّ جهده ألا تُطفأ النار قبل تمام إحراق الجثة، وإلا كانت تلك وصمةٌ مُخزية للفقيد وعائلته. وبعد تمام الاحتراق ينفذ الواحد ما بقي من الرماد إلى النهر؛ كي تتم سعادة الفقيد، على أنّ كثيراً ما نرى الكلاب تحوم حول الضفاف فتلتقط قطعاً من اللحم الذي لم يتمّ حرقه، وكنا نرى جثث الأطفال طافيةً بين جماهير المستحمين؛ لأن الدين يُحرّم إحراق جثث الأطفال ويأمر بإلقائها في النهر المقدّس كاملة.

منظر مُفزع وقفتُ في جنباته ساعة وأنا لا يكاد يستقر بي المكان خوفاً وجزعاً، وكنت أشتّم شيئاً من الرائحة العطرة التي علّمتُ أنها لبعض الأغنياء الذين يحرقون موتاهم بخشبٍ ثمين، كالصندل والعود وما شاكلهما.

وقد ألفت نظري وأنا في بُمباي زِيّ السيدات، وقد بدت الألوانُ الزاهية الصافية في ملاءاتهن، وكثيراً ما كنتُ أرى جمهرةً منهن يَسرن جماعات، كلٌّ منهن في لونٍ خاص كأنهن قوس السماء يتحرك في بريقٍ ورّواء.

والنساء خليط عجيب لا أول له ولا آخر، بوجوهن المبطوطة، وأجسامهن الهازلة، وألوانهن السمراء القاتمة. أما الأزياء فمدهشة في تنوّعها وألوانها، وبخاصة إذا كنّ من الطبقة الممتازة، فكلها من الحرير المهفّف، هذا أحمرُ قانٍ، وذاك أخضرُ زاهٍ، والآخر أصفر



عروس سنهالية صغيرة في كامل زينتها، وتقرأ في وجهها الملامح العربية.

فاقع، والرابع أبيض ناصع، وتلك أجمل ظاهرة تسترعي النظر في بمباي. أما السّحن فلا تكاد تلمح في إحداها مَسْحة من جمال قط، فهنَّ أَمَعُنْ قَبْحًا من الرجال، فكأن الطبيعة بقدر ما أَسْرَفَتْ في جمال نباتها وحيوانها اجتزأت من وجوه نساءها. على أن تقدير الجمال نسبي على ما بدا لي؛ لأن أحد رُفقاء الباخرة من الهنود أَلَفَتْ نظري إلى سيدة قال بأنها آية في الجمال، فحُلَّتْه هازلًا لا جادًا؛ لأنها كانت على جانب كبير من القبح.

ومن غريب عاداتهم أنه عند بعض قبائل البنجاب يُباح تعدد الأزواج، يعني أن الزوجة يشترك فيها عددٌ من الرجال قد يفوق الستة، والبيت في العادة يشتمل على كُؤَخَيْن: كوخ للزوجة وآخر للأزواج، وتُخصَّص الزوجة ليلة لكل زوج، ويغلب أن يكون الأزواج إخوة؛ وسبب ذلك قلة النساء بالنسبة للرجال بسبب وأدهنَّ، ولقد كانت العادة إلى عهد قريب في البنجاب أن الأم عندما تلد أنثى، تقف بها على باب الدار وببيها سكين وتنادي: هل من راغب في الزواج من هذه؟ فيتسلَّمها أحد المارة ويقوم بتربيتها، فإن لم يتقدَّم أحد قُتِلَتْ. ويقولون بأن لهذا النظام فائدة، هي التخلص من كثرة النسل واحتفاظ الأسرة بعقارها وأملاكها؛ إذ الآباء إخوة فلا تُبدَّد أملاكهم بالتوزيع بين الزوجات والأبناء، وقيل إن الفقر قد يكون من أسباب ذلك؛ لأن الزوج إذا عجز عن دفع المهر قصد إلى رجل آخر ميسور الحال، وطلب إليه أن يُشاطرَه المرأةً مقابل القيام بدفع مهرها، ويساعد على هذا النظام



الزوج العملاق إلى جانب زوجته، ولم تبلغ سنها العاشرة.

من الزواج الحياة الرعوية، حيث يَغيب الزوج بعيدًا عن زوجته زمنًا طويلاً، فيختلف إليها زوج آخر وثالث، وهكذا حتى يعود الأول.

وفي ناجبور بالهند يترك الوالد ابنته تَجري في الغابة، ثم يلحق بها الخطيبُ حتى يُمِسَّكِ بها. وبين سُكَّان الغابات يُوضَع الفتيان والفتيات سويًا في حجرات، ويُتْرَكْنَ أحرارًا ليلاليَ وأيامًا طويلة، حتى يختار كلُّ شاب زوجته. ولا يتم زواجٌ في أية طبقة إلا بعد استشارة المنجِّمين والموافقة عليه، وكم من زواجٍ فُسِّخَ لأنَّ المنجِّم أُنذِرَ بالنحس وسوء العاقبة، وللمنجِّمين سلطانٌ غريب على عقول الناس.

حدث مرةً أن دُعِيَ مُنْجِّم ساعة ميلاد طفل كان أبوه يترقِّبه منذ بعيد، لكن المنجِّم قال بأن هذا الولد سيكون سببًا في موت والده يومًا ما، فما كان من الوالد إلا أن دخل في الظلام ساعة الولادة، وسرق الطفل وذهب به بعيدًا وقتله، فقبض البوليس عليه وحوِّكَم وبذلك حُقِّقَت نبوءة المُنْجِّم. وللأطفال غرام بلعب العرائس، ومن أخصها تزويج العرائس، وفيه تُراعى مراسيم الزواج بالدقة وبكل تفصيل، وتُمثِّل الدُمى الزوجين، ويُعاوَن الكبارُ الأطفالَ في تمثيل خطوات الزواج بصراحةٍ تجعل الأمرَ في نظرنا فاضحًا ومنافيًا للآداب، وإذا انتقدتهم قالوا: ذاك أمر طبيعي، يجب ألا يكون فيه حياء. وتعدّد الزوجات شائع ومُباح عند الهنودوس والمسلمين على السواء. ومن أعجب عادات بعض الهنود تعدد الأزواج،



جثة عروس فوق محرق الموتى في معبد قالي في كلكتا.

أعني أن الزوجة يكون لها ثلاثة أزواج أو أربعة في وقت واحد، ويكثر ذلك بين أهل تلال نلجيري وسكان الساحل الغربي، ويُقال إن العادة نشأت عن الرعاة الذين لا يتركون النساء وحدهن، فكلما خرَّج راعٍ وراء قُطعانه تُرِكَت السيدة تحت رعاية زوج معها يحرسها؛ إذ لا يصح تركها وحيدة؛ ولذلك كان التوريث عندهم للإناث لا الذكور، والزوج بدل أن يُحْضِر زوجته إلى بيت أمه يذهب هو معها إلى بيت أمها. ويميل لون هؤلاء إلى البياض بسبب اختلاط النساء بالمستعمرين قديماً، من الهولنديين والبرتغال والإنجليز الذين نزلوا الساحل الغربي، وكان لهم في تلك العادة خيرُ مروجٍ لزواج عدة رجال من امرأة واحدة هناك، ولتلك العادة بقية في بعض نساء جزيرة سيلان.

قمتُ أعبّر الدكن، فألفيتُ الناس هناك أكثرَ همجية من سواهم، ولا يزال غالبهم من سلائل «الدرافيديين» سكان الهند الأوائل، ومن عاداتهم أيضاً أن يُشاطر في الزوجة الواحدة أكثرُ من زوج واحد، وبخاصة الإخوة، وكانوا إلى أمدٍ قريب يتعقبون أنسابهم عن طريق الأم؛ لذلك كان الميراث الرئيسي لابن الأخت أو ابن بنتها أو لأي شخص من فرع الإناث، أما الابن فلا يرث.

نساء العالم كما رأيتهن



إحدى نساء طبقة المنبوذين الأنجاس.



غادة من طبقة «السودرا» أخطّ الطبقات المعترف بها.

ولا تزال لتلك العادة اليوم بقيّة بين قبائل (تودا Toda) هناك، ويعدُّ الهندوس أولئكم القوم من الطبقات النجسة المنبوذة.

في آسيا

ولعلَّ أجمل سحنة تَمَّتْ إلى الهنود بصلّة أهل جاوة والملايو؛ فهم أقربُ إلى الملامح العربية في سُمرة خفيفة، وهم أخفُّ روحًا وأكثرُ جاذبيّةً من الصينيين والهنود، وإن أعوزتِ الجميع النظافة.

وغالبُهن يبدون بأجسامهن العارية البراقة، وقد التَصَقَّنَ بجدران دُورهن في خمُول زائد من أثر الحرارة الشديدة، والمسلّات منهن يرتدين اللقافات من القماش الملون، ويسفّرن عن وجوههن، وهن رشيقات نظيفات متدينات.

الجنس الأصفر المغولي

اليابان

أقبلنا على كوبي أكبر ثغور اليابان التجارية، وهي تقوم في حجر جبل مشرف، تَكُسوهُ الغابات، وتزين منحدراته مباني المدينة في رونقٍ جذّاب، وما كِدْتُ أظأ أرضها حتى بدت الحياة اليابانية في مظهرها العجيب الجميل؛ الناس يسرون في سيلٍ دافق كلُّ إلى عمله بنشاطه المشهور، وأنت لن ترى منهم عاطلاً أو خاملاً، ولا تسمع لكثرتهم جَلْبَةً ولا ضوضاء، اللهم إلا قعقة أحذيتهم الخشبية (قباقيبهم) نساءً ورجالاً، تلك التي تسترعي الأنظار وقد تثير السخرية بادی الأمر، على أنها خيرٌ دافع عنهم أثَرُ رطوبة جوهم، إلى الاقتصاد في أكلافها، والعجيب أنك تراهم يسرون بها في سرعةٍ عجيبة، وإن اعوجت مشيتهم، حتى ليُخيلُ إليك أن في أرجلهم غمزاً. والجميع يلبسون الأردية الفضفاضة التي يسمونها «كيمونو»، وكأنها «القفطان» بأكمامه الهائلة المتسعة وحزامه العريض، والرداء يكاد يلمس القدمين لطوله، ويغلب أن يكون من قماشٍ خشن بسيط اللون للرجال؛ لأنهم يمتدحون الخشونة والتقشُّف، أما النساء ففي حرائر مهفهفة وألوانٍ فنية ساحرة، وتحاول كلُّ سيدة ألا تلبس من لونٍ سبقَتْها إليه غيرها؛ لذلك اضطرَّ النساجون أن يحيكوا هذه الأقمشة قطعاً مختلفة تكفي كلُّ لرداء واحد. ولعلَّ أعجب ما في السيدة حزامها وشعرها، أما الحزام (أوبي) فبالغ الطول والعرض، عرضه فوق ثلث المتر، وطوله أربعة أمتار إلا قليلاً، يُلفُّ حول الجسم مرتين، ثم يُربط فوق الظهر في شكلٍ منتفخ كأنه الفراش بديع اللون، خلته بادی الأمر وسادة تحملها السيدة كي تنكئ عليها إذا ما جلست، وما كان أشدَّ خجلي عندما سألت أحدهم: لماذا تحمل السيدات تلك الوسائد الثقيلة؟ فخبطني وهو يضحك أنه رباط الزينة والتجمل (فيونكا)، وقد علمت أن متوسط ثمنه لا يقل عن عشرة جنيهات.



اليابانيات في الرداء القومي.

والنساء سافرات ورءوسهنَّ عارية، يكسوها تاج طبيعي من شعرٍ أسود بَرَّاق ثَقِيل، يُعَنَوْنَ بتنسيقه العناية كلها، وهو الذي يُعَدُّ مقياسَ الجاه والجمال، وتَراه يُكَوَّر ويُطوى فوق شباك من السلك في أشكالٍ هندسية عجيبة جذَّابة، تَخْتَلِف باختلاف الطبقات والأعمال، والأغنياء يَسْتَقْدِمَن الماشطات في كل أسبوعٍ لِتُعَدَّهُ، ولا يقلُّ أجرهنَّ عن جنيه، وتظل شباكه الأسبوعَ كُلَّهُ أو يَزِيد.

أما الوجوه فمُصَفَّرَة اللون مُنحرفة العيون، وَيَغْلِب أن يَسْتَخْدِمَن الأدهنة البيضاء لا الحمراء. وجمالُ الوجوه نادر، وإن كانت الرشاقة والجاذبية بالغَةً حدًّا كبيرًا، يَزِيدها حُسْنًا ذاك الهندام العجيب في ألوانه الرِّقْطاء الزاهية وتلك المِشْيَة التي تَخْبُ بها السيدة وكأنها البجع الساحر. أَوْيْنَا إلى نزل ياباني وما كادت تقف بنا السيارة أمامه حتى أسرع أصحابُه رجالًا ونساءً مُلَّاكًا وأتباعًا، يتقدَّمُهم رئيسهم لاستقبالنا، شأنهم مع كل ضيف، وصاحوا جميعًا صيحةً ترحيب أعقبتُها سلسلة انحناءات عاجلة متكررة، تكاد تلمس فيها جباههم الأرض احترامًا وتَأدُّبًا، والعادة أن يرد الضيف التحية بأحسنَ منها وإلا عُدَّ ذلك من سوء الأدب، فأخذنا ننحني مراتٍ كنْتُ خلالها موضعَ سخرية أمام نفسي؛ لأنني لم أكن أعرف كيف تكون وما حدودها!

بعد ذلك تقدّمنا نحو المدخل، فراعنا صفيّف «القباقيب» والأحذية على جانبيه، وكلها لنزلاء الدار؛ إذ يجب خلْع الأحذية جميعاً أمام البيوت والفنادق، فخلّعنا عنا أحذيتنا، وناولتنا الفتاة «خُفا» من الخوص، وهو صغير الحجم لأن أقدامهم أصغر بكثير من أقدامنا، أخذنا نسير به في دهايز الدار، وكلها تُقام من خشبٍ يُطلّى بأدهنة بَرّاقة، غاية في النظافة، ويهتَزُّ تحت أقدامنا، وكان النُّزل من طبقتين، ولَمَّا أَنْ وصلنا غرفتنا خلّعنا الخف أمامها، ودخلنا غرفة صغيرة تُفَرِّش أرضها بقطعٍ من الحصير السميك الطري، يحوط كلّ واحدة أفريز أسود، ولا تَكَاد ترى داخلها من الأثاث إلا منضدة واطئة في الخِط الياباني، حولها الحشيات «الثلث» الوثيرة يجلس القوم عليها رُكَّعاً طوال الوقت، وخلف الضيف مقصورة هي لَدِيَهَن موضعُ التجلّة والتّقدّيس «توكونوما»، بها «فاز» ثمين يُملَأ بالزهور المناسبة للمقام، ويغلب أن تُطلّ الباقية نحو الضيف علامة الترحيب به، وهم يقرءون في كل باقة معنًى جديداً لمجرد النظر. وعند المدخل حاجز «بارافان» قصير أنيق، وتتدلى من الجدران ألواحٌ مصوّرة «كاكيمونو» برسوم يابانية ثمينة، أما النوافذ فمعدومة؛ لأن جانب الحائط ينفّث كله بالانزلاق وراء الذي يليه، بحيث يمكن أن تصبح الحجرة شُرْفة (بلكونة)، أو تُزال فواصل الحِجرات كلها، فتظهر اللوكاندة كلها بَهْوَ واحداً، كذلك الحال في مساكنهم جميعاً في الريف والحضر.

أخذنا مجلسنا «الْقُرُفْصَاء» من المائدة، فتقدّمت منا فتاة بكوبين صغيرين من شراب أخضر يعتقدون أنه قاتلٌ للعطش لم يَرُقْني طعمه، وعلمتُ أنه مسحوق الشاي يُغلى في الماء، ثم دنتُ منا فتاة ثانية وبِيدِها سلة صغيرة من خيزران «بامبو» وبها «فوطه» مبلّلة بماء مغلي يتصاعد منها البخار، فتناولناها ومسحنا بها وجوهنا وأيدينا، فشعرنا بانتعاش كبير في ذلك الجو الحار، وتلك تُقدّم في كل مكان حتى في المحالّ التجاريّة. وبعد هُنيهة أقبلت فتاة أخرى تحمل الشاي الياباني المخفّف الذي لم يكد يصفّرُ ماؤه، والذي يتناوله الجميع بدون سكر، في قِعابٍ صغيرة مكوّرة من الخشب الياباني الثمين (اللاكيه). وما كاد يَسْتَوِي بنا المجلس حتى أقبلت الفتاة تهمس في أذني، فلم أفهم اليابانية، فخبرني صاحبتي أنها تريدني أن أخلع حُلَّتِي لأرتدي «الكيمونو»، فقمْتُ وهي تُلازمني وتتقدّم بنفسها لتخلع عني ملابسِي وتُرْخِي الكيمونو على جسدي، وكان يملكني الحياء لولا ما رأيته من جرأة صديقي الذي علمتُ منه ألا حرج في ذلك؛ فتلك عادة القوم هناك. ولَمَّا أن عدتُ إلى المائدة أقبلت فتاة الحمام تقول إنها أعدتْ لي، فقلتُ لصاحبتي: لا حاجة لي به، لكن علمتُ أن ذلك ينافي طباعهم، إذ هم يروونه فرضاً على الجميع أن يستحمّوا مرة



لا تُغادر البسمات الجذابة الساحرة شفاة اليابانيّات أبداً.

أو اثنتين في اليوم، قادتني هي وجمعٌ من صويحباتها إلى الحمام، وهناك دخلتُ غرفة صغيرة صُفّت بها الحشّيات والتكّئات للاستراحة قليلاً بعد الحمام، ومن داخلها حوض الحمام من خشبٍ نظيف يملؤه ماء ساخن جدّاً في درجة حرارة تتراوح بين ٤٠ و ٥٠م، وإلى جانبه مقاعدٌ صغيرة من خشب، وأكوّازٌ ومناطيلٌ خشبية. وقفتُ الفتاة وانتظرتُ أنا في حيرةٍ حتى تخرج لأغلق الباب، فما كادت تجتاز الباب إلى الخارج حتى أسرعْتُ بقفله، لكنني لم أجد به ما يحبسه عن الفتح، فخلعتُ ثيابي وإذا بالفتاة تدخل وتنظر إليّ كأنها تريد أن تخدمني في شيء، فجلستُ خجلاً إلى جوار الحوض، ولمّا أن أدركتُ ما كنتُ فيه من ربكة خرجتُ، فأسرعتُ بدعك جسمي بالصابون، وما كان أشدّ دهشتي حين دخلتُ مع زميلات لها وكأنها شكّنتني إليهن، فما كان مني إلا أن رميتُ بنفسي في الحوض رغم مائه المحرق، هنا علّتُ ضجة الضجر منهن وأسرعنُ إلى الخارج، ولم أدِر ما الخبر، فعجلتُ بالخروج، وإذا بالهَرَج قد زاد وعلا، وعلمتُ بعد أنني ارتكبتُ خطأً فاحشاً؛ لأنّه لا يجوز النزول في الحوض مخافةً تدنيسه، فكانت مني اعتذاراً لا أظن أنها كفّرتُ لديهم عن سيئتي هذه؛ لأنني حرمتُ الاستحمامَ كلّ نزلاء اللوكاندة سحابة اليوم حتى يُطهر ويُجدّد ماءؤه. وعجبتُ لما علمتُ بعد أن رؤية الأجساد عاريةً من الجنسين أمر طبيعي لا غبار عليه

عندهم، فالفتيات يُنَاوِلْنَ الرجال ما يطلبون، ويغسلن لهم ظهورهم وهم عرايا. وكثيراً ما يغتسل اليابانيون نساءً ورجالاً أمام بيوتهم في جانبٍ من الطريق، لا ينظر إليهم أحد، خصوصاً بين الطبقات الفقيرة، وقد كانت الحمامات العمومية خليطاً من الجنسين معاً، ولما أن كثر نقد الأجانب لهم أُمرُوا بوضع حبل يفصل بين ناحية النساء والرجال! أمر نراه نحن شائناً وهم يرونه عادياً لا يقع بسببه فسادٌ قط! ولا يأمن الغريب وهو في الحمام أن يُطل عليه الجميع من شقوق الدار الخشبية، خصوصاً وأنهم يعجبون لأجسادنا الطويلة وسحنتنا الغريبة عنهم.



بعض مظاهر التجديد بين فتيات اليابان.

وَيَسْتَنَكِرُ الأجانبُ رؤية أجساد اليابانيّين عارية، على أن اليابانيين يرون ذلك أمراً طبيعياً، فهو مُهدئٌ للميول الجنسية التي تبدو واضحة في غالب الأوروبيين. حدث مرة أن نادى أحد القناصل خادمه الياباني، فجاءه يرتدي قميصاً ونصف جسمه الأسفل عارٍ، وكان في مجلس القنصل بعض السيدات فنَفَزْنَ من هذا، وطُرد الخادم لوقتِه.

عدتُ إلى المائدة فأحاطت بنا الفتيات يُحاولن مُسامرتنا، وتلك عاداتهم في كل مكان حتى في البيوت، إذ يجلس حول الضيف فتيات الدار يُسامرنه؛ إمعاناً في التآدب والتعزُّف، وفي عُرفهنّ لا يجوز أن يُترك الضيف وحده لحظة واحدة حتى يَحِين وقت النوم. ولما كانت ساعة الطعام أقبل الفتيات يحملن «الصواني» الصغيرة من الخشب اللامع، عليها الأواني المكورة الصغيرة من خشبٍ برّاق، وفي مقدمة الجميع «برميل» نظيف من خشب يملؤه الأرز المسلوق.



حتى النساء في اليابان يُقمن بنصيبهن في فنون الطيران.

ملأت الفتاة لي آنية الأرز وسلّمتنيها وفيها عَصَوَان دقيقتان أتناول بهما الطعام، وكان أول صنوف اللحم قطعاً من سمك نبيء عليه قِطْع ثلج، لك أن تغمس القطعة قبل تناولها في سائل أحمر قان جرّيف كالخل، وما كنت أخاله نبيئاً، فما كدت أعضّ على قطعة السمك حتى عافتها النفس وجزعتُ جزعاً شديداً، وآثرتُ أن أزدردّها صحيحة لأنجوّ من رائحتها وفساد طعمها، ثم تبعتها صنفٌ من حساء السمك البارد، ثم الساخن، ثم شواؤه؛ فنوع يحكي «الجنبري» إلى جانب شيء كالبطاطا الحلوة وبعض الأعشاب، أخصّها أعشاب البحر التي يحبّون رائحتها المنتنة، والخضر «المخللة» كل هذا نتناوله في مُجاورة الأرز الذي كلّما فرغ إناؤه عجلت الفتاة بملئه من جديد. ولمّا انتهى الطعام قدّم صنف من الفالودج «مادته من الأرز» لا تكاد تُحس حلاوته، ثم أعقب ذلك بعض الفاكهة، وكانت من خوخ ونوع آخر لم أره من قبل، وكأنه قرون البازلّاء البالغة، وخلال كلّ ذلك كانت الفتاة تملأ لنا كأس النبيذ الياباني «الساكي»، الذي يتخذه القوم من الأرز في طعمه المنفّر، وتُعبد الكرة مثنى وثلاث ورباع، وبين آونة وأخرى يجب علينا بعد احتسائه أن نغسله بالماء ونملأه، ثم نقدمه للفتاة فتشربه، ثم تعود فتغسله هي وتقدّمه لنا ثانية، وتلك من آداب المائدة لديهن، لا يصح إغفالها. وفي نهاية الطعام نُبقي في آنية الأرز قليلاً ونصبّ عليه الشاي، ونرتشفه

بصوتٍ مرتفع مُنْفَر؛ علامةً على انتهاء الطعام، فترفع «الصواني» ويُقدّم الشاي المر نشرب منه ما نشاء! موقف ساحر حقًا، لولا ما كان يحيطني من ارتباكٍ شديد في أداء التحيّات المتكرّرة على الوجه الأكمل، وفي استخدام العِصّي بدل الملاعق والشوك، فهي تتطلب مِرانًا طويلاً.

وكان في الغرفة المجاورة لنا قوم لعب «الساكي» بعقولهم، والياباني سريع التأثر بالخمير على خَفَّتِه، كانوا يصيحون ويغنون وهم جلوس، وأمامهم «الصواني» الصغيرة والفتيات يعزفن على الآلات الموسيقية اليابانية: «الشامسين» شبيه «الطنبور» الكبير برقبته الطويلة و«قصعته» المربعة، وله ثلاثة أوتار منفردة، رنينها يحكي رنين المزهر (العود) القوي، والعزف يكون بقطعة من خشب كالمزوجة الصغيرة، وهذه لا يكاد يخلو منها بيت أو منزل، والقطعة الثانية تحكي «القانون» من ثلاثة عشر وترًا منفردًا، وتُسمى «كوتو»، والأنغام مُتشابهة بسيطة في غير تعقيد، على أنها تُعوزها الجاذبية. أما أغانيهم فمنفردة للغاية، حتى الفتيات اللاتي يهززن في أصواتهن بتقطيع مُنكر، وكأنها أصوات «الماعز»، وكنت أرى السيدات يحملن أطفالهن وقد رُبطوا إلى ظهورهن، فلا يكاد يرى منهم سوى رأسٍ ناتئ، وتلك عاداتهم في حمل الأطفال. ولم أكد أسمع همسًا طوال الوقت، والمعروف عن الياباني أنه هادئ الأعصاب بارد الطبع، ويظهر أن تلك فطرته منذ طفولته؛ لذلك لا تكاد تسمع لسيل الناس الدافق في الطرق من جلبّة، اللهم إلا قَعَقعة «القباقيب».

وفي طوكيو حلتُ نزل Chuo الفاخر، وهو على النمط الإفرنجي، يُديره اليابانيون رجالًا ونساء، فقُوبِلْتُ بالانحناءات والابتسامات، وما إن حلتُ غرفتي حتى أقبلت الفتاة تُقدّم شاي التحية، وهذا يُكرّر كلما عُدتُ إلى النزل وفي أية ساعة، ثم عقبته بإخباري أن قد أعدّ الحمام، وحتى في غرفة الطعام الإفرنجية تراهنّ وقوفًا زرافات يحاولنّ تسليتك ولو لم يَعْرِفن لُغتك. حدث أن مرّ فتاتان بباب النزل وأنا في غرفة الطعام يعزفن على الشامسين ويرقصن ويغنين، فأسرعتُ إليهن ومعني صاحب الفندق وفتياته، وقالوا إن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يُباح فيها الاستجداء، ويؤيّد ذلك أنني لم أر متسولًا واحدًا في جميع البلاد التي حللتها هناك، وما كدتُ أبرز آلة التصوير لأخذ صورتهم حتى غضب الجميع ومنعوني؛ دفاعًا عن عزّتهم القومية، فاعتذرتُ لهم، رغم أن الفتيات كنّ في هندام نظيف جذاب.

هداني تجوّالي في المساء إلى شارع «جنزا» بأضوائه الخاطفة وتنسيقه الياباني الخلّاب، وهو مُتنزّه الشباب ومحطُّ سروره، حوى ٣٤٨ من الأنزال والملاهي ومشارب الشاي وما



حسنة يابانية في كامل رداؤها القومي.

إليها، إلى ذلك بعض المحالّ التجاري تُعرّض بها المستحدّثات التي تروق الشباب. ولن أنسى قعقعة «القباقيب» ولا سحابات الفراش الأدمي في ألوانه الجميلة. ومن المقاهي ما هو ياباني، ترى الأحذية والقباقيب وقد صُفّت أمام الباب؛ إذ يجب خلْعُها قبل الدخول. ومن أجمل حفلاتهم: حفلات الأطفال، فحفلة الفتيات «هنا ماتسوري» تُقيمها كل عائلة لفتياتها، ويكون ذلك يوم ٣ مارس، وهو موسمُ أزهار شجر الخوخ، ويشترك فيها جميع أوانس الأسرة، ولا يَشترك فيها الذكور قط، فتقوم دُميتان كبيرتان تُمثّلان نبيلاً وزوجته ومن حولهما دُمى كثيرة تمثل الخدم والأتباع، ويلبس الجميع ثياباً فاخرة، وتُعرّض بجانب الدمى سائر أدوات المنزل في حجمٍ صغير دقيق، وبعض تلك يتطلب نفقات باهظة؛ لذلك قامت مصانع لإعدادها، وفتيات الجيران يدْعون لتناول الطعام في تلك الأتية الصغيرة وإلى جانبه شراب مخفّف من «الساكي»، وبعد ذلك يلعبون ويغنيّون، وقبل بزوغ الفجر تُلَفُّ كل المعروضات لكي يُعدّ ذلك فالاً بزواج الفتاة المبكر، ويقولون إن تلك العادة خرافية قديمة نُقِلَت عن تفاؤلهم بالبنات؛ لأنهن بشيرُ إنتاج الأرض الوفير؛ لذلك كانوا يُكَلِّفون البنات بعمل الدُمى لتُدْفَن في الحقول، ثم تطورت إلى الاعتقاد بأن الدمى تائمُ بقي الفتيات الشر. وكان من عاداتهم القديمة أن تحلق الفتاة يوم الزفاف حاجبَيها وتخضب أسنانها باللون الأسود علامة الوفاء؛ لذلك تراهم يُمثّلون ذلك في الدمى المعروضة



هذه الأنسة تَشْغَلُ وظيفة سكرتير لهذا الممول الياباني الكبير.

في هذا العيد، وفي المعابد طالما كنتُ أرى دمية من قشٍ دَقَّتْها إلى شجرة المعبد زوجةً هَجَرها زوجها، وهي تعتقد أنها كلما أَكْثَرَتْ من دق المسامير فيها أَنْقَصَتْ الآلهة من عمر زوجها الخائن، وهي تَعُدُّ المعبد أن تَقْتَلِعَ كُلَّ ذلك بعد موت زوجها؛ لأنَّ في بقائها جرحاً للشجرة المقدَّسة ومُضايقةً للآلهة. وأمثال تلك الخرافات تُعزى إلى قسوة عوامل الطبيعة، تلك التي توحى بالأوهام، وخشية القوى الخفية والجن؛ ولذلك كثر السحرة والعُرافون بينهم. وفي مدينة أوزاكا أويْتُ إلى نزل ياباني صميم، وما إن حَلَلْتُ بَهِوَ الفندق حتى رأيتُ حواجز الخشب والورق تَزَلُّق من حولي، وفي لحظة حُصِرْتُ في غرفة ضيقة، وأحاطني القوم بأدبهم الجم وكرمهم المعروف، وبعد أن قَدَموا إليَّ شاي الاستقبال والفوطة المعقَّمة عَرَضُوا عليَّ الحمام فرفضته، ولا يُلْدَغ المؤمن من جُحَرِ مرتين. ثم أَقبل رب النزل يسألني: أتريد جيشات؟ وتلك طبقة من السَّميرات المحترفات، لها مدارس خاصة في سائر بلاد اليابان، فيها يتعلم الفتيات وسائل السمر وإيناس الأضياف، بما في ذلك الغناء والعزف على الشامسين والكوتو، ولا يَخْلُو منهن مجلس قط. ويحتقر اليابانيون جميع الأوروبيين الذين يُصَادِقُونَ الفتيات ويُغَايِلُونهن على قارعة الطريق، وحقاً لم أَلَحَظْ شيئاً من هذا في الطريق قط رغم اختلاط الجنسين، عكس ما كنتُ ألاحظه في جميع بلاد أوروبا؛ إذ ليس

للشبان هناك من عملٍ يَقْتُلُون به فراغهم سوى المغازلة للفتيات على قارعة الطريق. أما اليابانيون ففي ظنهم أن الرجال أكبرُ مقامًا من النساء؛ لذلك لا يصح التريُّضُ معهن على قَدَم المساواة، وهم لا يَرَوْنَ رأيَ الأوروبيين في أن الجنس اللطيف حياة المجالس وروحها؛ لذلك كثيرًا ما كنْتُ أرى جماعات النساء يَقْصِدْنَ إلى الرياضة في غير صُحبة الرجال، أما الرجال فيغلب في رحلاتهم أن يَسْتَحْضِرُوا الجيشتات السميرات، وكثيرًا ما تَرى حلقة من الرجال يَجْلِسُونَ القُرُفِصَاء إلى جانب غَدِيرٍ أو شجرة مُزْهَرة يشربون الساكي، وفي وسطهم السميرة تَرْقِصُ لهم وتُغْنِي، وترى بعض المارة ينضمُّ إليهم، ويندر أن يُخَاصِرَهَا في الرقص رجل؛ لأنهم يَسْتَنْكِرُونَ رقص النساء مع الرجال على النظام الأوروبي. وفي الحفلات والولائم لا بد من وجود الجيشتات، وأجورهن غالية بين جنيه وثلاث جنيهاً في اليوم، وكلما أُقِيمَ مَعْرِضٌ أو انعقد مجلس في إحدى المدن الكبرى كثر الطلب عليهن جدًّا، ومن بينهن الممتازات بأسمائهن، مثل: «كوهاروسان ورين جوسان»، وكلما علا صِيَّتُهُن دَلٌّ ذلك على زيادة في إكرام الضيف. ويُقدِّم الأشراف لأمثال هؤلاء هدايا قيمة، من ذلك ماسة قيمتها ٨٥٠ جنيهًا قدمها نبيل للجيشا «سا كا كوسان»، فامتدحت الجرائد كلها تلك السميرة، وأطرت المدرسة التي أنجبت مثل هذه الجيشتة التي أصبحت من الشخصيات الممتازة في طوكيو. وفي الولائم الرسمية يجلس الجيشتات أمام الجمع رُكَّعًا، ويملأن أكواب الساكي كلما فرغت، وبين أونة وأخرى يلعبن دورًا موسيقيًا، وبعد نهاية الطعام يَقُمن بالعباب بسيطة مع الرجال. أما في الحفلات الخاصة العائلية فيُرفَّع التكليف، ويمتزج الجميع امتزاجًا تامًّا. ويجب على الضيف أن يملأ كأسه بين حين وآخر ويُقدِّمها للجيشا، وتظل شاخصة أمامه حتى يفعل ذلك، وكثيرًا ما يَغفل الضيفان عن ذلك، فيظل الفتيات مكانهنَّ في مُضَايَقَةٍ شديدة، ويُرْمى الضيف عندئذٍ بقلة الذوق. وعلى الضيف أن يأتي على زجاجة الساكي بأكملها كي تُمَلَأ ثانية، وإلا عُدَّ ذلك شؤمًا على المكان. وليس لأحد أن يطيل النظر للسميرة التي بجانب زملائه، إذ يجب أن يُلَاطِف السميرة الخاصة به، ويغلب أن تكون أشهر الجميع؛ لأن أدبهم يَقْضي بأن يُخَصَّ الضيفُ بأكبر المزايا، على أنه لا يُشترط أن تكون أشهر السميرات أجملهنَّ وجهًا، بل أذكاهن وأقدرهن على التسلية. ولا يكاد يخلو مطعم أو مَقْهَى من الجيشتات، وأكثر ما يُعْنَوْنَ به من التزيُّن: الملابس «الكيمونو»، وتنظيم الشعر، وطلاء الوجه بالمحسِّنات البيضاء، أما الحلي من أقراطٍ وعقودٍ وسوارٍ وخواتيم فلا تجد من دَوَّقهن قَبُولًا. ورشاقة الفتيات بالغة رغم ما يُعَوِّزهن من جمال، إذ لا تَزِيد نسبة الجميلات على خمس فتيات اليابان جميعًا في سنِّ النضارة، وهي ما بين الثالثة عشرة

والتاسعة عشرة، وبعدها يبدو الهرم عليهن عاجلاً كالمصريّات والإيطاليّات، وسائر فتيات البلاد التي يَقْصُرُ فيها أمدُ الشفق؛ إذ لَوْحِظَ أن جمال السيدات يظل طويلاً كلما طال زمن الشفق.



مثل من الجيشتات سميرات اليابان.

وأمر النساء في اليابان يُثير الدهشة والنقد من عدة وجوه؛ فإنهم يُبيحون للفتيات — ما دُمنَ غيرَ متزوجات — كاملَ الحرية في التريُّض والمصادقة، وقد ناقشتُ بعضَهم فكان منطقُه أن العزوبة أمرٌ غير طبيعي، فإن لم يكن للفتاة زوجٌ فخليل. وهم لا يَعْتَدُونَ بالبكارة والعَرَضُ اعتدائنا به في الفتيات، على أنها إذا تزوجت أصبحت مثال الوفاء لزوجها، والعجيب أنها لا يصح لها أن تُظْهَر الغيرة على زوجها من غيرها، وكثيراً ما تُخاطب زوجها عند أوبته من رحلته قائلة: أرجو أن تكون قد استمتعت ليلتك الفائتة، فيَقْصُ عليها نبأ ما كان يحوطه من فتياتٍ وجيلشات وصُويحات سرَّين عنه كثيراً.

وهل أنسى مرة بعد زيارتي لمعبد ميجي العظيم أنا وزميلي المصري، حين عَدْتُ وراءنا أنستا والتقيتاً بنا، واحدة من يميني والأخرى عن يسار صاحبي، وأخذن يُلْحِفْنَ ويتمسَّكن بالتريُّض معنا هذين اليومين، وقالوا: «جئنا لنحج إلى هذا المعبد المقدس من بلدتنا البعيدة، وقد فرغنا الآن من الواجب الديني، فلننصرف إلى متاع الدنيا، وها أنتما شابان مهذبان،

نساء العالم كما رأيتهن



إحدى السميرات وهي ترقص على الطريقة اليابانية.



عروس في زي الزفاف.

وها نحن غادتان جميلتان، أليس كذلك؟» وكان صديقي يَعرف اللغة اليابانية فتفاهم
معهما، وبعد رياضةٍ قصيرة ودَّعَناهما ولم تُفارقِ البسماتُ وجهيهما!

اليابان



الشَّعر آية التَّجْمُل عند اليابانيَّات.



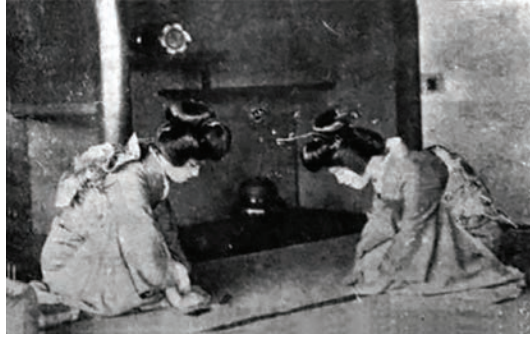
الطريقة اليابانية في التحيّة والترحيب.

وأعجب من ذلك وأنكى أنهم يحترمون العاهرة احترامهم للزوجة؛ فالأب هو الذي يتخيّر لابنته الزوج، كما أنه هو الذي يدفع بنته إلى الدّعارة إن أعوزّه المال؛ لأن في عَوْزِه

نساء العالم كما رأيتهن



أُحِبُّ الآلات الموسيقية لديهم: الشامسين إلى اليمين، والكوتو إلى اليسار.



أدب اليابانيّات أضحى مَضْرِب الأمثال، وتلك الانحناءات واجبة ومتبادلة.

هذا هدمًا للعائلة ويجب تلافيه، وإلا انهار ركنٌ قومي يؤثر على كيان الدولة والوطن. وهم يُطلقون على العاهرة اسم «أوجوروسان»، أي: العاهرة العظيمة! حدث مرةً أن اقترض نجار خمسين جنيهاً من دار جيشات مقابل ارتيهاً بنته الجميلة في سن الحادية عشرة لمدة خمس سنين، بعدها يدفع الدّين ويتسلّم الفتاة، فأصبحت تلك الفتاة من كُبريات الجيشتات، فأكبرها الجميع. وإذا احتاج الرجل المال وكانت بنته كبيرة فوق السابعة عشرة دفع بها إلى بيت الدّعارة، فإذا هربت ساعده البوليس على إرجاعها إلى بيت الدّعارة حتى يتم سداد



الموسيقىات المتجولات في طوكيو.

دينه؛ لأنها مُلزمة بذلك قانوناً إذ قَبِلَت الدَّين عن والدها! تصرَّف نراه همجياً وحشياً، لكنهم يُبرِّرونه بأن واجب الأبناء طاعة الآباء، والعمل على إنقاذهم من الشدائد؛ لأن في ذلك معنى الإخلاص للأسرة وللدولة التي يُضحَّى في سبيلها بكل شيء. ويتَهافت الشُّبان على الزواج من أمثال أولئك إكباراً لهن وتفاخراً بهن! منطق لا تُسيغه عقولنا البتَّة.

أضف إلى ذلك أن من أخص وسائل إكرام الضيف أن يُقدِّم المضيف السُميرات لضيفه، وهل هذا في زعمهم إلا واجب طبيعي! وقد كانت العادة فيما مضى أن يُبالغ المضيف في إكرام ضيفه، فيُقدِّم له زوجته، ولا خطر هناك من اختلاط النسل؛ فكلُّهم أبناء الإمبراطور ابن السماء، ولم يُقلِّعوا عن تلك العادة القبيحة إلا تفادياً لمرارة النقد الأجنبي، وأنهم لا يُطيعون أن يَنقُد بلادهم أحدَ قط.

تناولتُ العشاء ورغبتُ في النوم، وسرعان ما تقدَّم الفتيات إلى وسط الغرفة يفرشن لي حشية (مرتبة) صغيرة تتناسب مع قاماتهم القصيرة، وإلى ناحية الرأس وسادة من خشب، عليها غشاء رقيق من قماش يحشوه القطن، وشُدَّت «نموسية» خضراء في حجم الغرفة كلها إلى الأركان، ووُضِع إلى جانب الفراش الشاي الذي يحسُن شرابه قبل النوم، ليُطهر الفم ويُساعد الهضم، ثم قُدِّمت المبخرة وأُشعلت بها فتائلُ خضراء حلزونية تظل

نساء العالم كما رأيتهن



الجسر السماوي، وترى الأنسة قد أطلَّت من بيد فخذيها لترى الجسر وكأنه القنطرة.



النوم في اليابان على الحشيات (الشُّلَّت) والوسائد الخشبية يجاورها مصباح الورق والمبخرة.

مُتَّقِدة طوال الليل طردًا للبعوض، على أني لم أُطِق رائحتها المنفرة، فمددتُ جسمي، وكانت قدماي تتدليان خلف الفراش إلى نصف الساقين، ورأسي لا تكاد تستقرُّ على وسادة الخشب القاسية التي لا يلدُّ لهم النوم إلا عليها، فترى الرقبة مشحوزة عليها والرأس تتدلى من طرفها الخارجي غالبًا، ويظهر أن الباعث عليها شدة محافظة السيدات على تنسيق شعر الرأس؛ مخافة أن تعبث به الوسائد الأخرى. ويقولون إن نساء اليابان امتزُنَ بجمال الرِّقاب المشوكة غير المجعّدة، وتلك نتيجة النوم على هذه الوسائد.



المكان الخاص بتربية دود القز في بيوت الفلاحين جميعاً.

واليابانيون نساءً ورجالاً يعشقون حياة الخلاء، ولو أن حقولهم وحدائقهم تُنسَّق على نمط واحد؛ فهم لا يُحبُّون الطبيعة الفطرية غير المنسقة؛ لذلك تجدهم يُعَنِّون بتنسيقها إلى حدٍّ كبير؛ ولهذا كنتُ أرى الآنسة إذا خرَّجتُ للنزهة بدت في كامل ثيابها وبديع زينتها، أما البساطة والخروج بالزِّيِّ الكشَّافي الساذج فممنفَّر لديها، فهي تُعنى بالأناقة أكثر من عنايتها بالرياضة. وفتيات اليابان من طبقة الفقراء يَسْلُكن في مستقبلهن أحد سُبُل ثلاثة؛ سبيل الجيشتات، أو العمل في المصالح، أو البِغَاء، ولا عار في ذلك مُطلقاً، وليست الجيشتا بَغِيًّا بل سَمِيرَة فقط؛ ذلك لأن تقاليد اليابان تُحَتِّم على الزوجة أن تَقَرَّ في بيتها وتخدم ذَويها، فإن حنَّ الرجل إلى مجلس النساء استأجر إحدى الجيشتات فترة معينة وجالسها في فنادق الشاي المشهورة هناك، حيث تقوم على خدمة الرجال وتَسْلِيَتهم بالغناء والرقص، وقد يَسْتَأجر بعضُ الدور الجيشتا لمدة خمس سنوات أو أكثر، وذلك لا يَمْنَع أن تَتَّخِذ لها خَليلاً أو خَطيِّباً. وفي طوكيو بناءً خاص لتأجير أولئكن السَمِيرات في أيَّة ساعة من الليل أو النهار.

وفي حي يوشيوارا في طوكيو يؤجَّر الآباء من الفقراء بَنَاتِهِم للبِغَاء لِأَجالٍ مُعينة، بعدها تعود الفتاة إلى بيتها موفورة الكرامة والاحترام، ويُقْبَلُ الأزواج عليها. وذلك الحي نظيف جداً وله مستشفياته ومَتَاجره وحماماته ومعابده، فكأنه مدينة داخل مدينة، وكان يوماً ما مسرح طبقة الساموراي من المحاربين القدماء، ويُطَلَق على أولئك البغايا اسم: أويران Oiran. وهناك حي آخر للبِغَاء الرخيص اسمه تامانوي، حالة البنات فيه يُرثى لها كثيراً.



طريقة اليابانيّات في حمل الأطفال وراء ظهورهن.

أما شغل العاملات في المصانع: فنوع من الرّق تخضع له الفتاة من سن الثالثة عشرة إلى الثانية والعشرين، ويطوف بعاملات الريف مُتعهّدون يتعاقدون مع الآباء على توظيف بناتهم، ويتعهّدون بالعمل على إعدادهن للزواج في سن الحادية والعشرين، ويتراوح العمل اليومي لهن بين تسع ساعات وعشر، والأجر رخيص لا يعدو ثلاثة قروش، وكثير منهن يشتغلن في الزراعة وصيد الأسماك والآليّ. وقد لاحظتُ أن زُهاء ستين في المائة من عمال المصانع الكبيرة من السيدات، وهذا يُفسّر رخص المنتجات اليابانية من جهة، وعدم نجاح الصناعات التي تتطلب مهارة الرجال كصناعة الآلات، أما النسيج الذي لا يحتاج إلى مهارة العامل بقدر احتياجه إلى حُسن الإدارة وإلى جودة الآلات فقد نجح تماماً. ويُعزى افتقار اليابان في مهارة العمال إلى حداثة عهدها في الصناعة وقلة خبرتها بها.

ولقد دعا إلى استخدام النساء: أن المصانع منذ البداية أُقيمت في القرى لرخص أثمان الأراضي بها، فلم تجد من العمال كفايتها، وتلك صعوبة تُعترض الصناعة حتى في مدنها الكبيرة؛ لذلك لجأ أصحابها إلى العائلات الريفية يُغرونها على إرسال فتياتها يتعلّمن في المصانع ويشتغلن، مقابل أجرٍ معيّن يُستقطّع منه جانب، نظير المسكن والغذاء الذي يقدمه لهن صاحبُ المصنع.



حفلة الشاي المنزلية وما يحوطها من مراسيم.

ولقد أضحت زيادة السكان في اليابان خطيرة، يزيدها خطرًا أن نظامهم الاجتماعي يُحرّم تحديد النسل؛ فهو يساعد الزواج المبكر، كما أن الأبوين لا يشعُران بمسئولية الأولاد؛ لأن رعايتهم فرض على الأسرة بأكملها، إلى ذلك أن الدين الشنتوي يحض على النسل ويُنفّر من الزواج العقيم، كذلك المرأة اليابانية تُعدُّ نفسها خادمة أولادها، ولم ترقُ إلى مستوى المرأة الغربية التي قلَّ نسلها بسبب ثقافتها وشعورها بمسئولية تربية الأولاد، واشتغالها مع الرجل جنبًا لجنب.

والنساء هناك لا يَعْرِفن الطرق الحديثة التي يتبعها الغربيات في منع النسل، ذاك الذي أضحت قلته خطرًا في إنجلترا وأمريكا، وفوق الجميع فإن الحكومة اليابانية لا تسمح بنشر أية دعاية تحض على تعطيل النسل، وذلك دفاعًا عن الناحية العسكرية، فكأن كثرة النسل في اليابان يكفلها الدين والعادة والحكومة والنظام الاجتماعي.

وكم سمعت الأجانب يعيبون على الياباني أن يرتشف الشراب من الكأس بصوت ينفر الغربي من سماعه، أو أنه لا يقف للسيدة، بل للطفل والرجل المسن، وهو أقرب إلى المعقول. وكم كنت ألاحظ في الترام أن غالب الواقفين من النساء، ولا يصح أن يقف الرجل للمرأة، بل بالعكس رأيت رجلًا دخل العربة فسلم على صاحب له كان يجلس بجواري وإلى

يساره سيدة يغلب على ظني أنها زوجته، فوقفت هي وتنحّت له عن مكانها، فجلس بعد أن شكرها، وظلّت هي واقفة.

ولعلّ أظهر ما يبدو الفرق بين العائلة اليابانية والغربية في الزوجية وميول الإنسان الجنسية، فالغربي يرى أن الحب أساس الرابطة الزوجية، وعليه يتوقف صالح المجتمع كله، لكن الياباني يرى أن هذا الحب لا ينطبق على المثل الأعلى، فله خطره وأثره المتلف المدمر.



يركع حتى صغار الفتيات أمام المعبد احترامًا.

وهو يرى أن العلاقة الزوجية لا يصح أن تُبنى على رأي الفرد، بل المجتمع، فهي إذن ليست عملاً فردياً، فالياباني لا يرى في امتزاج الفتيات بالشبان ذاك المعنى الذي يراه الأوروبي، وهو يحتقر ذلك، فلا يرقص الذكور مع الإناث ولا يختلطون بهن طويلاً، وإذا اعتزم الزواج اختار له ذوّه بعد أن يقصّوا عليه نبأ الفتاة، فإن قبل اتفقا على المواجهة Miai في حضرة فريق من أقربائهما، فإن أقرّها أنجزت مراسيم الزواج، وإن لم تُوافقه فلعائلته حق الرفض أو إرغامه على القبول. على أن كثيراً ما يعشق الصبي فتاة لكن ظروف العائلتين تأبى الزواج، فيلجأ الاثنان إلى الانتحار shinju. والغريب في أمر الزواج هناك أنه بعد أن يتم في المعبد أو البيت يُترك بدون تقييد رسمي لمدة سنة، فإن ظهر عدم الوفاق

صحَّ الفراق إن رَضِيَ أهل الزوجين، وإلا لَجئوا إلى القانون، والطلاق يُبيحه القانون، فإن رُزِقا بمولودٍ خلال تلك السنة تتبنَّاه إحدى العائلتين أو عائلةٌ أخرى لم تعقب، والتبنيُّ شائع في اليابان لضرورة وجود ممثلٍ للعائلة إن أعوزَتْها الذُّرية. وأعجب ما يُرى نظام التبني هناك بين الرجل وأكفأ موظفيه الذين يُعاونونه في العمل، فهو يُسارع إلى تبنيِّه كي يكفل نجاح العمل باطراد، ولقد كان للعائلة حق فصل الزوجين رغم ما بينهما من إخلاص، وذلك إذا تعارض هذا الحب مع صوالح الأسرة، ولقد بطل ذلك اليوم، لكنك ترى أثره في احتقار القوم للزوج الذي يتفانى في حب زوجته أو يُرافقها في ملهى عمومي، حيث يُصبح موضعَ تقريرِهم وسخريرِهم جميعاً.



شجرة رأس السنة أمام الدار.

وقد يُخيَّل للغريب أن المرأة مُحْتَقرة هناك، والحقيقة أنها في دائرة اختصاصها — وهي تدبير المنزل وتربية النشء — ذات سلطة مطلقة واحترام كبير، أما فيما يختص بالمعاونة العلمية والفكرية فليس لها نصيب؛ لأن وظيفتها زوجةٌ فحَسْب، عليها أن تُطيع زوجها وتحترمه، فإذا سار في طريقٍ لا يصح لها أن تتقدمه، وليس لها أن تُشاطرَه وإخوانه مجلسه، بل تُقدِّم إليهم ما يطلبون ثم تنسحب.

ويُحب الياباني من الجمال في النساء هناك: الوجه الممطوط، والجبهة المنتفخة، والشعر الذي يخلو من التجاعيد، والعيون الطويلة الضيقة وجوانبها الخارجية مائلة إلى أعلى، والحواجب الرقيقة العالية عن العيون، ويميل إلى الفم الصغير والشَّفاة الغليظة والرقبة المشوكة العالية، واللون الأبيض الخالي من الحُمْرة، والقوام النحيف والأرداف الصغيرة؛ حتى يتناسب الجسمُ مع الرداء القومي. وهو يحب أن يرى السيدة تمشي وهي تميل بأعلى جسدها إلى الأمام قليلاً، ويحب فيها المشية السريعة قصيرة الخطى دون أن يُرفَعَ القدم عن الأرض بعيداً.

وأغلى قطعة في ملابس السيدات: الحزام (الأوبي) من الحرير الموشي، وكثيراً ما يبلغ ثمن الواحد خمسين جنيهاً.

والطفل هناك معبود أبويه، ويتلقَّى من العناية ووسائل الاستمتاع ما لا يتلقَّاه زميله في البلاد الأخرى، ولا تُحتَقَر البنت أو تُهمل كما يفعل الكثير بها في البلاد الأخرى، فعند ولادتها يُسارع أهلها إلى الإعلان عنها للأقارب والأصحاب؛ ليُسارعوا بتقديم الهدايا، كالمأكولات واللعب وقطع الحرير وما يلزم للباس الأطفال، وتُلف الهدايا في ورق أبيض. والعجيب أنهم يُعدُّون عمر الطفل سنة في أول يوم وُلد، وإذا جاء عيد ميلاده الثاني كان له سنتان في عرفهم، وإذا وُلد طفل آخر في ديسمبر مثلاً وجئت في أول يناير وسألت عن عمره قيل لك: سنتان! والعادة أن يوم ٥ مايو هو يوم عيد ميلاد الذكور، و٣ مارس عيد ميلاد الإناث في كل عام. وفي اليوم السابع من الميلاد يُقَيَّد ويُعطى اسماً، ويكون في الغالب اسم زهرة أو شجرة أو شيء طبيعي جميل، ولا يصح أن يحمل الطفل اسم أحد أقاربه من الأحياء؛ لأن في ذلك إهانة. وبعد الأسبوع الثالث يُحمل الطفل إلى المعبد وهو في أحسن ملابسه، وتُقدَّم القرابين للآلهة والقسيس، وعندما يباركه يُحمل إلى المنزل حيث تُقام حفلة سرور كبيرة. وقُلماً يبكي الأطفال هناك، وسرعان ما تترك الأم طفلها لإخوته الكبار يربطونه وراء ظهورهن طيلة اليوم ويجوبون الطرقات؛ ولذلك فضلٌ صحي عليه؛ لأنه يبقى في الهواء الطلق أغلب حياته.

وأطفال الطبقة الراقية يُركبونه عربة «الركشا» المصغرة يجرُّها الخدم. والأطفال يتدربون منذ الصغر على الجلوس وهم رُكَّع، وقد عزا البعض قَصْر القامات اليابانية إلى تلك العادة التي تُعيق نمو الساق الطبيعي؛ لذلك كانت سيقانهم قصيرة عن نظرائهم في الخارج. كذلك يُدرب الأطفال على لبس الصنادل من القش الخفيف في الجو الصافي، وقباقيب خشبية مرتفعة في الجو الممطر، ولا يمكن تمييز البنت من الولد في الطفولة إلا

بلون الملابس الزاهية، فهي زاهية للبنات، قاتمة للأولاد. وأعيادهم كثيرة ويُعَنُونَ بالاحتفال بها، أذكر من بينها عيد رأس السنة حين يُرْفَع التكليف ويلعب الآباء مع الأبناء. ولعلَّ أحب الأعياد: عيد العرايس الذي يبدأ في اليوم الثالث من الشهر الثالث (٣ مارس)، وفيه تُشْتَرَى العرائس التي تمثِّل مُختلِف طبقات الشعب وتُعرَض مع عرائس العائلة المخزونة، ويظل هذا العرض مصحوبًا بالفرح والسرور ثلاثة أيام.



العملات في أحد مصانع الحرير في أوزاكا.

وعند الزواج يُحدِّد العرَّافون اليوم خشية نحس الطالع، ويُقدِّم الزوج من الهدايا الشيء الكثير، أما الزوجة فلا تُقدِّم شيئًا، وتذهب إلى بيت زوجها عند الغروب، حيث تلبس أردية بيضاء ناصعة، وتُرْخي علي الوجه قناعًا أبيض، وتُحمل على هودج الكاجا Kaga ومن ورائها حاملو الهدايا، وأكبر الشخصيات هو الذي يحمل برميل «أصداف البحر» التي يُعْمَل منها نوع من الحساء يشربه العروسان معًا؛ تيمُّنًا بحياة مستقبلية سعيدة.

وعند وصول الموكب الدار تُرفع الأيدي بالمشاعل على جانبي العتبة، وفي كل جانب رجل يسحق الأرز، وبمجرد وصول الزفة يُخلط مسحوق الأرز الأيسر على الأيمن، ويتقدم أحد أقارب العروس ويربط طرفي شمعتين ببعضيهما ليمثل ارتباط الزوجين الروحي والجسمي، ثم يُشعل ذلك الطرفَ المربوط، ويتقدم رجل ويُطفئ اللهب ليدل على أنهما سيموتان سوياً، ثم تعقب ذلك الوليمة التي تُقدَّم بها صنوف الطعام، والساكي يُقدَّم في جِرار (براريد) علَّقت عليها فراشات من ورق؛ لتكون بشير الذرية، والزوجان يشربان معًا

نساء العالم كما رأيتهن

إناء له أنبوبتان علامة على التضامن في السراء والضراء، ثم تذهب الزوجة إلى والدَي زوجها
لَتَقْدِّمَ الولاء، والذي يقوم بفرش بيت العروس صديقات الزوج من الفتيات. والطلاق هناك
سهل جدًا.



سيدة من الأينو سكان اليابان الأوائل، وهنَّ كِلَفَات بتخضيب شفاههن.

وأظرف ما يَسترعي نظرَ السائح في كوريا أُرديَّة الرجال والنساء، والأحذية من قماش
أبيض يتلوَّى طرفُها المدبَّب إلى السماء، وجواربهم بيض يعلوها «بنطلون» وصدائرٌ للرجال
والنساء على السواء، وقد يرتدون فوق ذلك كَلَّة عباءة من قماش جامد، منتفخ بما أُشْبِع
من «النشا»، ويَزيد حزام ضيق في وسط الجسم عند النساء.

الصين

وفي الصين يُعنى كل فرد بالزواج المبكر؛ كي يلد أكبر عدد ممكن من الأبناء الذين يُحيون ذُكره ويوفرون لروحه السعادة بما يُقدّمونه من قرابين، ومَن لم يستطع القيام بذلك لفقره وجب على المحسنين أن يُعينوه بما لهم؛ حتى يستطيع أداء واجبه، ومن لم يعقب اضطرَّ أن يتبنّى من ذرية الغير؛ لذلك كثرت ذريتهم إلى درجة جعلت تنازُع العيش بينهم مُمضًا، ذاك التنازُع الذي أدّى إلى سياسة الابتزاز الممقوتة التي عُرف بها أهل الصين جميعًا.

ولقد أحدث انتشارُ الفقر والعوز في طول البلاد وعرضها أسوأ الأثر في أخلاق الناس فأفسدها، وأنت تلمس انحلالها في كل مقام، فلا أذكر أني ركبت «ركشا» مرة دون أن يُباغتني سائقها قائلاً: أتريد بعض الغانيات من فتيات المانشو ذائعات الصيت جمالاً! إلى ذلك جماهير السيدات اللاتي كُنَّ يُمسكن بتلابيبنا طوال الطريق إلى درجة المضايقة الشديدة، ومنهن مَن لم يبلغن الحلم، وكأن الأجنب هناك بأخلاقهم الفاسدة قد جرّأوهن على ذلك الابتذال. وطالما كنتُ أعجب للصغار من الفتيات يُسرعن إليَّ طلبًا للمعونة المالية وهن في هندامٍ نظيف لا يُشعر بالفقر.

ومن المناظر التي كنتُ أتألم لها طول الطريق السيدات اللواتي كُنَّ يسرن في تتافلٍ وثيد، والواحدة تكاد تترنح ولا يتزن جسمها فوق قدميها اللتين لا تزيدان على سبابة اليد طولاً، وقد انحبس نُموهما ونمُو عظامهما، فكان يُخيّل إليَّ أنهن يسرن فوق عصا خشبية دقيقة جامدة، وكأن ذلك قد أثر على الساق نفسها، فدقّت من أسفلها ونحفت إلى حدٍّ مخيف، ويا ويلها إن حاولت الجري! فإنها تتعثر بشكلٍ بشع والألم يبدو على وجهها. ويكاد يكون نصف نساء البلاد من هذا النوع. والأقدام الصغيرة كانت آية الجمال لديهم، وكان يُحتّم الزوج أن يرى قبل الزواج حذاء خطيبته، فإن ظهر بعد الزواج أن قدم

العروس كانت أكبر من الحذاء الذي أخذه رهينةً جاز له الطلاق؛ لذلك كان الأمهات يُبالِغْنَ في تشويه أقدام بناتهن وهن صغار، فكانت تُغسَلُ الأقدام بالماء الساخن، ثم تُلف حولها أشرطة من الكتَّان لفائفَ معقَّدة مُحَكَّمة، وفي كل ليلة تُعيد الأم هذه العمليةَ لمدة ثمانية عشر شهرًا، والبنت تتأوَّه في ألم شديد والأم تسترضيها بالهدايا وتُمنِّيها بزواج قريب. ولقد حرَّمت الحكومة الجمهورية ذلك اليوم وفرضت عليه عقوبات قاسية، على أن ضعف سلطان الحكومة اليوم وعدم استقرارها شجَّع كثيرًا من الأمهات أن يُثابرن على تلك العادة القبيحة، ولا يزال الشبان يؤثرون في السيدات الأقدام الصغيرة كما ثبت لي من محادثة كثير منهم.



بعض مظاهر الإباحة الحديثة في الصين.

وفي شوارع شنغهاي كنتُ أرى الجماهير الدافقة متلاصقة متلکئة في مظهرهم الصيني البحت؛ عيون منتفخة، وخدود ناتئة، وأنوف نصف فطساء، وأفكاك بارزة، وقامات قصيرة، وشعر أسود حالك هادل. أما الهندام فللأغنياء والمتوسطين مُتَشَابِه، وكذلك للرجال والنساء، وإن كان هندامُ الرجال أكثرَ جاذبية، والرداء قطعتان؛ سروال يُربط فوق العرقوبين، وهو للنساء أقصر قليلًا لكي يُظهر جمال الأقدام الصغيرة المشوَّهة! وتعلوه شبه «جاكتة» قصيرة، وفوق هذين جلباب فضفاض طويل الأكمام مفتوحٌ من جانبيه إلى ما تحت



مبلغ تشويه أقدام السيدات في الصين.

الساعد، ويشتبك طرفاه بالأزرار، وله ياقة عالية تأخذ بمخنقهم رجالاً ونساءً، ويغلب أن يكون من حرير ثمين للأغنياء، وتطوى أطراف الأكمام لتقوم مقام الجيوب، وإلا حمل الواحد أشياءه في منديل قد يتبعه به خادمه. أما الأحذية فمن قماش لا يقي القدمين شرّ الرطوبة، ولعلها اختيرت كذلك لكيلا تشجع على المشي، ذاك الذي يعدّونه عيباً يلجئهم إليه العوز، وغطاء الرأس قلنسوة من حرير. أما الفقراء فرداؤهم كأنه البيجاما الفضفاضة من قماش أسود لامع كالجلد، وقبّعاتهم كأنها أطباق الخوص المخروطية المسنّنة. أما ابتذال النساء فحدث عنه؛ فهو يبدو في شكل مروّع بين أجنبيّات — وبخاصة الروسيّات — ووطنيات، كل تلك المظاهر جعلتني أفهم أن للقوم الحق أن يُطلقوا على شنغهاي اسم «باريس الشرق»، فهي تفوق في ذلك «باريس الغرب». وولفت النظر بوجه خاص ميلهم جميعاً للاختلاف إلى المراقص التي لا تُحصى بين أجنبي وصيني، وقد دخلت مرقصاً صينياً، وهنا تجلّى التناقض التام والتصادم بين القديم والحديث، فالموسيقى تدق أنغاماً أوروبية. والصينيّون يُخاصرون الصينيّات ويُعاقروهن الخمر وهم يلبسون جلابيبهم الفضفاضة التي تحكي «القبطان»، فسور لنفسك منظر شيخ معمم يُخاصر عادة ويُرَاقصها، وهؤلاء هم بالطبع النشء الثائر على الرجعية القديمة، ولو أنني أرى في ذلك كثيراً من التطرف الممقوت، ويظهر أن عدوى الأجانب وبخاصة إباحيّ روسيا من جهة، والحروب الأهلية التي بدأت منذ زمان بعيد من جهة أخرى، هذا إلى تذوّق شعب رجعي عتيق لحرية

العصر الجمهوري، كل ذلك كان سببَ ذاك الاندفاع الشائن في تيّار المُجون. ونظام العائلة في الصين يُبنى على الرهبة، فالرُّباط العائلي توثِّقه التقاليد والدين والقانون لحدِّ جعل الإخلاص للعائلة دون غيرها واجبًا، وقد قضى هذا على التعاون بين العائلات، فلم يحدث في تاريخ الصين أن أبنائها تعاونوا مرة على إصلاح بلادهم في أية ناحية؛ ولذلك ثبتوا عند تأخرهم القديم، ولعلَّ أسوأ أثر لتلك العُزلة وذاك النفور بين العائلات قتل الشعور الوطني، إذ لا يُضحِّي الصيني بصوالح عائلته الخاصة في سبيل الصالح القومي العام؛ ولهذا لا تَعَطِّف مقاطعةً على غيرها من جاراتها قط مهما أصابها من نكبات، ولم يؤلِّفوا جبهة متضامنة ضد المغيرين والمعتدين سواء من الداخل أو من الخارج، (وهنا الفرق الرئيسي بينهم وبين اليابانيين)، فالعائلة أساسها الأب — وهو شبيه بالإله — سُلطته لا تُعارض، حتى لقد كان من حقه بيعُ أولاده وقتلهم. أما الأم فكمية مهملة ليس لها على أولادها سلطان، وبخاصة الذكور، حتى إذا شبَّ الولد لا يستمع إلا لأوامر أبيه. أما البنت فمُضطَّهدة بائسة؛ لذلك لا يسأل الوالد أذكراً رُزقت أم أنثى؟ بل: أدرة أم طينة؟ والزواج هناك مبكر جدًّا، والعزوبة تكاد تكون معدومة؛ لأن البقاء هكذا جريمة اجتماعية في ظنهم. والقاعدة الزواج من واحدة، لكن للزوج الحق في اتخاذ ما شاء من الخيلات على قدر ثروته، فكلما كان غنيًّا فاخَرَّ بكثرة مَحْظِيَّاته وبيوته التي يُنفق عليها، وكثيرًا ما نرى من السَّراة من يَحوز عشر نسوة، وكان من بينهم رئيس الجمهورية نفسه. والزوجة الرسمية يدفع لها مهر بنسبة ثروتها، ومتوسط المهر مائتان من الجنيهات، وإذا ما دخلت بيت زوجها دفعت مبلغًا مساويًا له، ويتسلَّم الزوج المبلَّغين لاستثمارهما، والعادة أن العائلات الكبيرة ترفض أن تُعطِي فتياتها كخيلات مهما كان مركز الزواج.

وإذا مات الرجل لا تتزوج أرملته، بل تظل هكذا طول حياتها، أما الزوجة فإن ماتت فللزواج أن يتزوج من غيرها. والميراث يُقسَم بالتساوي بين الذكور من الأبناء، سواءً في ذلك أبناء الزوجة الشرعية والخيلات، أما النساء فلا يرثن إلا إذا أوصى الأب بغير ذلك. والزوجة خادمة لزوجها ولأمه، ولا يتحسن مركزها إلا إذا وضعت ذكراً، فإن خلقت أنثى فيا ويلها، والمرأة العقيم يجوز طلاقها وإلا تبني الرجل أحد أقربائه. ولا يَنْتَزِلُ الزوج فيجلس مع زوجته وأولاده إلى مائدة الطعام رغم ما لهذا من الأثر في تربية النشء، كذلك لا يجوز أن يأكل الإخوة مع الأخوات إذا بلغوا السابعة، وإذا أحصى رب العائلة أفراد أسرته أهمل عدد الإناث. ونساء الطبقة الراقية مُحجَّبات لا يخرجن إلا محمولاتٍ على (الكراسي المعلقة)، ويخال البعض أن ذلك راجع إلى عادة تصغير الأقدام التي تعيقهم عن السير.



هكذا أصبحت القدم مشوهة بسبب ربطها باللفائف منذ الصغر.



سيدة صينية تفتخر بجمال قَدَمِهَا، ولا تكاد تَتَزَنُّ فوقهما.

وعندما يُرَزَق أحدهم بمولودٍ يُطَلَق البَخور أمام الدار، وتُعلَّق علامة خاصة، ثم يُدَثَّر الطفل بثياب آبائه لمدة شهر لكي تتسرب إليه فضائلهم، وبعد الشهر يُحَلَق شعره ويلبس ملابسه

نساء العالم كما رأيتهن



سيدات منشوريا، وأعجب ما في ملابسهن رداء الرأس.



سيدة من المانشو في الزي الصيني.

الحمراء، ويؤخذ رأي المشعوذين في اختيار طالع سعيد، وعندئذ تُقام وليمة يُقدّم فيها النبيذ والبيض المخضّب باللون الأحمر، وترسل لكل مدعوّ بيضة حمراء، وعلى المدعوين

تقديم الهدايا والنقود. والعجب أن الطبقات الفقيرة التي لا تكفيهم مواردهم أن تمون عائلة كبيرة، يتخلصون من بناتهم، وهناك خارج القرية يقوم شبه بُرج على رُبوة، يضع الرجل فوقه طفله ويتركها، فيجيء الآخر ويُلقي بها إلى داخل البرج لتموت ويضع هو طفله مكانها، وبذلك لا يَقْتل الرجل ابنته، بل طفلة غيره. هذا وقد اعتاد الخيرون من أصحاب الملاجئ أن يمروا بتلك الأبراج وينقلوا ما يجدون من الأطفال إلى الأديرة لتربيتهم. وكان ميلاد الأنثى يُعدُّ عارًا كبيرًا ورُزءًا يجب دفعه؛ ولذلك فكثيرًا ما كان الأمهات يُلقيْنَ بمواليدهن من البنات في النهر أو في الطرقات، وحتى إذا صادف أن أبقى عليها أحد الخيرون من أبويها وكانا فقيرين، باعها إذا كبرت لنوع من الرق والعبودية لا يُطاق. وبنات الأغنياء يخضعن لضغط الأقدام ولفها، كي تصغر وتُكسبها مشية ذات غمزٍ محببٍ لدى الأزواج، كذلك ترك أحد أظافر اليد يطول إلى مدى بعيد؛ ليكون دليلًا على ترفع الغادة عن كل عمل يدوي، ذاك الذي يُحتقر منهن جميعًا ويدل على ضعة الأصل. ولم يكن يُباح للبنات دخول المدارس قبل سنة ١٩٢٤، وقد أُبيح ذلك بعد استقرار النظام الجمهوري قليلًا، ومما يؤسف له أن الأغنياء اليوم إذا أرادوا تعليم بناتهم أرسلوهنَّ إلى الخارج، وبذلك يفقدن قوميتهن وأدابهن. ولا يزال لبيع البنات في أسواق شانتنغ وسشوان بقيةً إلى اليوم.



حسنة كورية في رداؤها القومي.

وعند الزواج يَستعينون بالخاطبات، وقد تُخطَب الفتاة في سن الطفولة، ولا يمكن فسْحُ الخطبة أبداً مهما طرأ من عقبات، ولا يُباح للبت الخروج أو الاتصال بالغير ما دامت مخطوبة، ولا يصح أن يرى الخطيبُ عروسه عند الزواج، ولا بد أن يُجهّزها أبواها بالمتاع والأثاث الفاخر، وتُقام الحفلات في إسرافٍ شديد تفاخراً، هذا خلاف المهر الذي يدفعه الأب لابنته. وفي وليمة الزواج يُقدّم الضيوفُ الطعام والهدايا بكثرة، وتُحمَل العروس على الكرسي المعلق، وتلبس أفخر الملابس، وتُرمي على جسمها قناعاً أحمر من حرير، وسرعان ما ترغب في الحمل، وبذلك لا تكاد تهنأ بشبابها قط. ولعلّ أسوأ عادات النساء الانتحار، فالنساء يأتين ذلك إذا ما تأخر عنهن الزواج، وذاك يُعدُّ عاراً كبيراً والموت لهن خير وأبقى. وكثير من الزوجات الحديثات يُقدِّمن على الانتحار؛ تخلصاً من سوء معاملة حمويها، وتعدد الزوجات هناك شائع.

الجنس الأسود الزنجي

في أفريقيا

وصلنا زنجبار وقمنا بجولة في ضواحي المدينة، وهي غابة كثيفة تشقها الطرق التي تعلو وتهبط وتتلوّى في تعقيد كبير، وأظهر الشجر النرجيل والمانجو، وقد دخلت مزارع القرنفل بأشجاره الكبيرة في خضرة مصفرة، وثمره ينمو في عناقيد من براعم متجاورة، يعلوها زهر كأنه الوبر، ثم تحمرُّ البراعم وتُقطف ثم تُجفف، وكنا نرى البيوت كلها تنشره على الحُصَر أمام الأبواب، وفي كثير من الجهات تقوم مصانعه، وكنا نمر ببعض مصانع «الكبرا»، وفيها يُجمع النرجيل ثم يُعرى عن قشوره وأليافه ويُحطَّم لُبابه ويُشحن إلى الخارج لاستخراج زيوته. ومن الشجر الغريب هناك شجرة فاكهة الخبز، ذات ورق في حجم ورق الموز، ولكنه مُخرَّم ومُسَنَّ في وسطه وأطرافه، وثمرتها في حجم الشامام الكبير، إلا أنها أكثر تفرُّطًا وأضيق في وسطها، وظاهرها خشن محبَّب وباطنها مادة نشوية يُتخذ منها الدقيق، وقيل إن ست شجرات منها تمون عائلة كاملة بما تحتاج إليه من الخبز طوال العام. إلى ذلك نبات «الكسافا، أو الماهوجا، أو التابوكا»، ويبدو كالكروم على بُعد، فإنَّ دانيته بدا أعوادًا معقَّدة في طول قامة الرجل، إذا اقتلعت العود من الأرض خرجت معه مجموعة من جذور في حجم طويل، ومادتها نشوية لبنية لمسًا وطعمًا، ويأكلها القوم طازجة ومطبوخة، وما زاد عن محصولها جُفف فأضحى خفيف الوزن هشا، إذ سُحق بِبِع دقيقًا، وهو من أهم المواد الغذائية في شرق أفريقيا، وحيث يكثر يزداد السكان، ويُقال إنه أرخص المواد التي تُستخرج منها الكحول، كل ذلك الإنتاج النباتي يتعهده ويقوم على خدمته نساء السود. سرنا طويلًا خلال تلك المزارع الكثيفة النَّبت والشجر، وبين آونة وأخرى كانت تنكشف وهادئ تغصُّ بالبيوت الريفية، تُقام من أعواد الغاب المتقاطعة تُطلى

بالطين، وتُغطَّى بجداولٍ من خوص النرجيل. والناس مسلمون ولُغتهم سواحلية، على أن النساء سافرات يلبسن دثارًا فضفاضًا خفيفًا، ألوانه زاهية، ويُعلّقن في آذانهن أقراطًا من ورقٍ ملوّن مثنى وثلاث ورباع، وبعضها في حجم نصف الريال، وسحنهن أجمل من سائر السود اللاتي رأيتهن إلى آخر شرق أفريقيا جنوبًا، ولون القوم أخفُّ سوادًا، مما يُشعر بتأثير الدم العربي فيهم جميعًا. وأعجب ما نرى حفلات الرقص القومي يتمايلون خلاله بشكلٍ مُضحك، تصحبهن قرعات الطبول الأفريقية الضخمة، وكأنها البراميل المستطيلة تُدقُّ من جانبيها.



بعض نساء السواحليين من المسلمات.

وكم يروقك منظر السيدات في موزمبيق، وهن يَبِرْنَ في ملاءات خفيفة من أسفل الجسد إلى وسط الصدر في وجوه مُنكرة، يزيدها قُبْحًا أن الكثير منهن يُلطّخن الوجه كلّهُ بعجينٍ أبيض بحيث لا ترى منه إلا عينين برّاقتين، وتلك آية التجميل لديهم. والسيدة إذا سارت بدا تقوُّسها في انتفاخ عَجْزها إلى الورا وصدورها الكاعب إلى الأمام في شكلٍ مُضحك. دخلنا السوق في باكورة الصباح، فكان القوم من السود نساءً ورجالاً يفتشون سلعهم، وبخاصة موادَّ الغذاء والفاكهة على مناضدٍ من حجر، وتسمع جلبّتهم وهم يُساومون الباعة، وبخاصة النساء بصدورهن البارزة وأعجازهن المنتفخة، وعلى ظهورهن يربطن أطفالهن



إحدى جميلات دار السلام.

وكأنهن صغار القردة. وكانت تسترعي نظري رءوسهم بشعرها الفلّلي وناصيتها المدببة وجبّتها المشطورة المتحدرة. وجلّ هؤلاء السود من شعوب البانتو يسودون جنوب أفريقيا كلها، وأغنياء الزعماء عند البانتو يتزوَّجون أكثر من سيدة، والزوجة الأولى تُسمّى زوجة اليد اليمنى، والثانية زوجة اليد اليسرى، وهناك الزوجة العظمى، وابنها وارث الملك، وهذه الزوجة تأتي متأخرة في العادة؛ ولذلك غلبَ أن يتولّى الوارث الملك طفلاً تحت وصاية عمه أو أحد أقربائه، وقد كان هذا من أسباب كثرة المنازعات، خصوصاً عند ما يبلغ الصبي الراشد ويتسلّم مهام الملك.

أما أولاد الزوجتين اليمنى واليسرى فيعطون رجالاً وقطعاناً ليؤلفوا عشائر جديدة تنضم للقبيلة؛ ولذلك صعب على الأوروبيين هناك أن يقفوا على مقرّ السلطة وصاحب النفوذ الحقيقي منهم، فقد يمضون مُعاهدة مع رئيس، ويظهر لهم أن الباقين ليسوا مُرتبطين بها لا هم ولا ورثته بعد موته. وكان يُوقَف استبداد الزعيم برعاياه سهولة نظام التبني والتحول من عشيرة لأخرى، فإن استبدَّ هجره وانحازوا إلى رئيس غيره. وتكثر بينهم المناظرات التي هي في أوروبا أساس البرلمانات، وللنساء هناك قدرة مدهشة على استماع تلك المناظرات؛ ولذلك كان من نصيب المرأة عند البانتو أن تزيد في ثروة اللغة من ناحية التعابير الموسيقية الجذابة، ولكي يجتنب النساء ذكر أسماء المذكور من أقرباء أزواجهن؛

نساء العالم كما رأيتهن



حسنة عربية من أهل زنجبار، وقد أُرْخَت قناع «البراكوا» على عيونها، وشعّ منديلها عطر الورد المحبوب.



سيدات الكيكويو يلبسن إزارًا من جلد.

كان لزامًا عليهن أن يخترعن كلمات جديدة، واليوم نرى بين نساء الزولو — أشدّ قبائل أفريقيا رجعية — لغةً خاصة بهن، مجموع كلماتها نحو خمسة آلاف كلمة. وفي أقصى الجنوب الغربي حول صحراء كلاهاري شعوب البشمن أو «واق الواق» وكأنهم القردة، أولئك الذين عاشوا مع سائر الحيوان قبل أن يخلق الله الإنسان من الطين، وللناس الحقُّ

إن اعتقدوا بأنهم غير آدميين، فهم أبعدُ الناس عن الآدميين لقصرهم «فهم دون خمس أقدام»، ولشعرهم المنفوش، ولأذنانهم التي لا شحمة لها، ولوجوههم المثثة عديمة اللحي وكأنها وجوه الثعالب، وكانت عيونهم غائرة تحت حواجبٍ مشرفة بارزة، وكانت سوقهم الدقيقة وأقدامهم الصغيرة تبدو وكأنها لا تكاد تحمل بطون الرجال المنتفخة، ولا الثدي الهادل والعجز الضخم للنساء. وكانوا رعاة ينتقلون في عشائرٍ عددُ الواحدة ٣٠٠ على الأكثر، يقودهم زعيم كأنه القائد الحربي. والروابط العائلية كانت واهية بينهم، يتزوجون أكثر من واحدة، وشبّانهم يقتتلون من أجل الحصول على الزوجات، ونسأؤهم وقورات، وروابط الزوجية منحلة أيضاً، فلا يكاد الطفل يستقيم على سوقه حتى يهيم على هواه، والمسنون والمرضى يهجرهم ذوهم؛ لأنهم عاب لا يستطيع الانتقال. ويجاورهم شعوب الهوتنتوت في شعرهم الجعد الصوفي وشفاههم الغليظة وأنوفهم الفطساء، ولونهم يقرب من ألوان الأوروبيين، وهم يُزينون شعرهم بالودع والنحاس. وكلا الجنسين يلبس جلود الأغنام، يلامس صوفها الجسد شتاءً، ويكون من الخارج صيفاً. بيوتهم نصف دائرية، ومن الحصر والعصي، وهم وسطُ بين العصرين النحاسي والحديدي، وعلى ذلك فهم يتقدمون البشمن بمراحل، استخدموا النحاس بكثرة، والحديد على قلة، وهم رعاة قبل كل شيء، ويقع عمل الرعاية على الرجال، وإعداد اللبن والغذاء على النساء، وليس هناك من رابطة بين القبائل، ويُسيطر على القبيلة رئيسٌ وراثي. على أن الثروة لديهم أهم من الرعامة، وأغنياؤهم يتزوجون بأكثر من واحدة، ولا يُعنون بالمسنين والمرضى.

وعجيب أن الحكومة تجبي ضرائب على الراشدين من السود؛ فكل واحد يدفع جنيهاً في العام ونصف جنيه عن كل زوجة من زوجاته، وقد شجعت تلك الضريبة على العمل اليدوي، وإن عاكست تعدد الزوجات كثيراً.

وفي مقاطعة كنيا تُقَطِّعُهم الحكومة الأراضي مجاناً مقابل دفع ضريبة بسيطة، لا على الفدان، بل على الكوخ الواحد بمعدل جنيه ونصف في العام. ولما كان الرجل منهم يتزوج أكثر من واحدة — إذ الغالب لا يقل عن خمس نسوة — اضطرَّ أن يدفع الضرائب مضاعفة بقدر ما يمتلك من بيوت، وهذا ما يدفع أولادهم إلى العمل لكي يحصلوا على ما يسُدُّون به تلك الضرائب وعلى أمهار زوجاتهم، وفيما عدا ذلك لا حاجة لهم بالمال. ومن قبائل تلك المنطقة: الكيكويو، يسرون عرايا نساءً ورجالاً إلا في إزارٍ من جلد يتدلى من أمام ومن خلاف إلى الركبتين، وهو مفتوح الجوانب غير منتظم الأطراف، ولا يرون عيباً في ظهور كل أجزاء الجسد عارية، فكأنه أمر طبيعي. وترى النسوة يلبسن في السوق الحبال من النحاس

نساء العالم كما رأيتهن



يستعرض زوجاته التسع راقصات في أوغندا.



الأم في زيها القديم، والغادة في زيها الحديث في كامبالا.

أو الفضة في أساور أو شعابين، قد تبلغ العشرين، بعضها تحت بعض أسفل الركبة وعند العرقوبين لغير المتزوجات، وفي الأردع دون الأرجل للمتزوجات، ويُعلّقن حلقات ملونة كبيرة من الخرز تحت الأذن بشريط من خرز يُلف على الجبهة ويُربط في قوف الآذان، ليُساعدنها على حمل تلك الأوزان، وشحمة الأذن تُخرق وتُشحذ، فتتسع لحلقة في حجم الريال الكبير، تعلوها أخرى، وثالثة أصغر منها، ثم تخرقها قطع من خشب أسطوانية الشكل، إلى ذلك عقود الخرز العدة، وكثير من الرجال يفعل ذلك أيضًا أما الرؤوس فتُحلّق ناعمة. وترى

النِّسوة يَسِرْنَ طوال الطريق وهُنَّ يُعَلِّقْنَ وراء ظهورهن أحمالاً من الحطب أو المتاع أو الأطفال في قطعة من جلد، يرفعها شريط يمر بأعلى الجبهة، وإلى جانبها يتدلَّى إناء من جلد به مزيجُ الذرة وجذور التابيوكا كأنها البطاطا في طُعْم كالعجين. وهم يخافون آلة التصوير خصوصاً نساءهم؛ خشية أن يؤثر فيهن سحرها أثراً سيئاً، وكنتُ كلما رأيتُ جمعاً منهن أَعْرِضُ «الفتوغرافية» لهن مُدَاعِبَةً، فكنَّ يَصْحَن وَيُولُولَن وَيَضْطَرِبْنَ في مَرَأى مُضْحِك. وهم كلما شعروا بضعفٍ في إنتاج أرضهم للذُّرة والبطاطا لَجَأُوا إلى غابة جديدة، فأحرقوها واستنبتوا مكانها، حتى أَلْتَفَلَوْا مساحاتٍ شاسعةً من الغابات هناك؛ لذلك بدأت تمنع الحكومة ذلك، وتعمل على إعادة استنبات الأشجار. والكيكيوي وثنِيُون في عقائدهم كثيرة الخرافات، ومن عاداتهم خِتَان الفتيات دون الذكور، وقد سَرَت منهم تلك العادة إلى الكثير من السود في حدود السودان، وهم في الختان لا يَكْتَفُونَ بقطع الزائدين (الشفرتين) فحسب، بل وما حولهما، ثم يَرْبِطُ الْفَخْدَانِ أَيْاماً، فيَلْتَحِم طَرْفَا الجرح وَيُسَدُّ المكان كله، عدا موضع غابة رفيعة توضع وسط الجرح وتَحْرَكُ قليلاً في كل يوم، فإذا اندمل الجرح لم يترك إلا ثَقْباً ضئيلاً هو موضع تلك الغابة، وعند الزواج يُحاول الزوج فَضَّها، فتُحْمَل إليه الزوجة في بيته وأهلها من حولها، ويُحاول الزوج ذلك، فإن صاحبت أخذوها منه إلى بيتهم على أن تُعاد في الليلة التالية، ويُعاد ذلك حتى يَسْتَطِيع فضها! والقبيلة التي تترعَّم الناس جميعاً: المساي، والنساء يُغَطِّيْنَ أجسادهن بأطواق النحاس في البطن والخصر والسُّوق والسواعد والرقاب في أوزانٍ مُبَهَظَةٍ، ولا تُعد السيدة من النبيلات إلا بكثرة تلك الأطواق. ومن أسوأ عاداتهم تخضيب جِراب المقاتل الحديد بدماء الغير، ولا يَزَال بعضهم يُهاجِم الغرباء ويقتلهم رغم تحريم القانون لذلك، والنساء هُنَّ اللَّاتِي يُشَجِّعْنَهُمْ على ذلك؛ لأنهم يُسَخِّرْنَ جماعات من كل مقاتلٍ لم تُخَضَّب حَرْبَتُهُ، ومن حفلاتهم قبل التخضيب أن يُصارِع الفتى ثوراً أو أسداً يظل يوماً كاملاً يُطْعِمُهُ القوم اللبن ويسقونه الخمر، ويتبارى الكل في حفلٍ، ويحاول كُلُّ فَتًى أن يُمسِكَ بالثور الثَّمَل السكران من قرنه الأيمن، وسرعان ما يُلقِي بالثور على الأرض ويسلخه حيًّا، ويقطع الجلد إلى سيور يتزيَّن بها الفتيان جميعاً حول العُرْقوبَيْن والرُّسُغ.

والمساي يُجِلُّون الحرب، وَيَطْمَح كل شاب أن يُصبح مقاتلاً، وهؤلاء يمتنعون عن الزواج ويُبَاح لهم مُصَادقة الْقُصَّر من البنات، يَأْتِيَهُن الرجل أُنَّى شاء وَيُقَدِّم الهدايا للأمهات، وإذا بَلَغَ الحلم سُرَّحْنَ إلى بيوتهن استعداداً للزواج، ولا يعيها ذلك العيب؛ لأنه وليدُ عادة متأصلة ومُعْتَرَفٍ بها من الجميع. وبعض قبائل الكيكيوي يُقيمون عند الأخدود

نساء العالم كما رأيتهن



هل يُعادل استمتاع هذه الزَّنجية بتلك الزينة ما تُعانيه من آلام؟



الخَصَر الأَهيْف والشفاه الممدودة عند نيام نيام.

الشرقي، حيث الإنسانُ على فطرته، عاري الجسد في غير إزار، كلاً ولا ستار للعورة، نساءً ورجالاً، اللهم إلا الأغنياء منهم، وهؤلاء يلبسون إزاراً من جلد ليس تحته شيء.

في أفريقيا



القوام المشقوق لنساء أوغندا وقد سَتَرْنَ العورة بحُزمة من عشب ليس غير.



ما أقسى ما يعانيه القوم في تجميل شفاههم هكذا.

والأهلون في أوغندا شديداً الملاحظة، يتعرَّفون طريقهم حتى وسط الشجر الكثيف، وكانت النساء نشيطاتٍ في الزراعة، يتعهَّدن الموز والبطاطا والتابيوكا، وكلُّهن يلبسن الملاءات الملونة تُدَثِّر الجسم كله من أسفل الصدر، أما فوق ذلك فعارٍ. ويسترعي النظر



إلى جوار إحدى حسان موزمبيق، وقد كست وجهها بالعجين تجملاً.



فتيات عليّة القوم في أوغندا.

الحزام الذي يُلف من فوق العُجْز إلى ما تحت السرة، وهو مُدلى من الأمام، فيساعد على انبعاج الصدر والبطن إلى الأمام وانبعاج العُجْز إلى الوراء، فتبدو السيدة مُضحكة في مشيتها، خصوصاً إذا كانت من قبائل «باهيما» رعاة البقر المشهورين في أنكولي غرب بحيرة فكتوريا. وآية التجمُّل لديهم السَّمَن المفرط الذي تسعى إليه السيدة حتى لا تكاد تستطيع السير. وهم يتخذون من شعر الفيل أساور وعقوداً رجالاً ونساءً، ويدهنون رؤوسهم بروت البقر، فإذا سألت أحدهم عن تلك العادة القذرة أجابوا بأنهم لو نظّفوا أنفسهم نفر البقر منهم، فهو لا يتبع إلا الجسم الملطّخة بفضلاته! والعجيب أنهم يعدّون

أنفسهم الطبقة الأرستقراطية المسودة على مَنْ حولهم. وأعجب ما في أبقارهم قرونها التي يهولك امتدادها. وهم مشهورون هناك بتعدد الزوجات إلى حدٍّ كبير، ومن أسباب ذلك أن عدد النساء يفوق الرجال كثيرًا، ويُعاني المبشرون هناك كثيرًا، فلا يُقبل على النصرانية اليوم إلا النادر، وفي كل يوم رِدَّة عن النصرانية ممَّن اعتنقوها؛ وذلك لأن هذا الدين لا يُبيح إلا زوجة واحدة فقط، والنساء هناك يُفضّلن الزواج عن أن يُتركُن في بيوت آبائهن، ولكي يُرغِبن الأزواج فيهن يعملن على تضخيم أجسادهن، فيمتنعن عن المشي ويُسجَّعن على الإكثار من شرب اللبن؛ لذلك فقد كثيرٌ منهن بعد الزواج القدرة على النهوض والسير، وحتى في الرقص تراهن يُحرِّكن أذرعهن وعضلاتهن وهنَّ جلوس، وتسمع لأصواتهن هزيمًا مُنفرا مُضحكا. وكَم كان يسرعي نظري في أوغندا نظامُ التحية إذا تلاقَت صديقتان، فتبسّط إحدهما كَفَّيها مُتجاوِرين، وتلمس الأخرى بطنَهما براحتها، ثم تظل اليد تتحرك بينهما ذهابًا وجيئةً مرات، وخلال ذلك تَفُوهُ كُلُّ بكلمة تحية يتبعها زمجرة، لا بل وتأوهات عميقة طويلة! ومن الغريب أن وجه كُلِّ منهما منصرف عن وجه الأخرى. والنسوة تمر وهي تتهاذى مُتتاقلة؛ لما تحمل فوق رأسها من متاع، وفوق ظهرها من طفل كأنه القرد الصغير، وغالبُهن يبدون في حرائرٍ فاضحة اللون بين أزرق وأصفر وأحمر، وبعضهن لا يُغطّين الأكتاف إلى الثديين ليُظهرن الزينة والوشم والتجريح الذي خَلَفَ في الجسم صفوفًا منظمّة من أدرانٍ تتعرّج يَمَنَة ويسرة. وقد جرّني الحديث عن المستوى الخلقي هناك، فعَلِمْتُ أن العِفة لا تكاد توجد بين الأهلين الذين لا تزال نزعتُهم الحيوانية سائدة، هذا إلى تذوّقهم طرْفًا من المدنية التي جعلت بعضهم يسعى وراء النقود من أي طريق، وسواءً أكانت المرأة آنسة أم متزوجة فإنه يُمكن استمالتها واستهواؤها عاجلاً، وكثيرًا ما يرضى الآباء والأمهات والأزواج بذلك.

وقد أَيْدَ عندي ذلك زيارتي لمستشفى كامبالا أكبر مستشفيات تلك الأقاليم، حيث كان غالب المرضى هناك يشكون الأمراض السرية، وبخاصة الزهري، وقد خبّرني بعض الأطباء هناك أن تلك الأمراض منتشرة في البلاد بكثرة مروّعة، وهي تُودي بحياة الكثير منهم، ولحسن الحظ أن القوم لا يُخفون المرض بل يُقدّمون أنفسهم للحَقن بدون خجل. والزواج هناك من سن العاشرة، والبنات يبلّغن الحلم مُبكرات، والأب يؤثر الذرية من البنات؛ لأنه يتقاضى عليهن مهورًا عند زواجهن، ثم يأخذ الزوجُ عروسه ويبقى المهر الذي دفعه للأب يتمتع به. وأخصّ مهرجان يُقام للزواج الرقص والطبول المزعجة، ويُحرز الناس من الزوجات ما استطاعوا، حتى إن ملكهم له سَبعمائة زوجة، ومائة وخمسون من الأبناء.

نساء العالم كما رأيتهن



رقصة الفتيات في أوغندا.

وحول كل مزرعة نفر من الأهليين يقومون على خدمة الأرض، وكنا نراهم نساءً ورجالاً يقطعون العُشب البري ثم يتركونه مكانه حتى يجف، ثم يُحرق حيث هو، فيُنقي الأرض ويسمدها. وكلهم يُدخّن في غلايين خشبية طويلة، حتى الفتيات.



بعض آيات التجميل عند النوير.

وفي نيل ألبرت هالتني جماهير السود الذين وفدوا لَيروا البواخر ونزلاءها، وما كان أشدّ دهشتي حين رأيتُ الكثر منهم عرايا تماماً نساءً ورجالاً وأطفالاً، تضع المرأة حول خصرها عِقْدًا من خرز، تتصل به دُؤابة من ورق الموز، أو جدائل من سلوك الحديد أو الخرز، أو حُزمة نحيلة من العُشب لا تكاد تستر العورة، ومن خلافٍ يتدلّى شريط أو «زر» من فتيل رفيع طويل يتحرك ذهابًا وجيئةً كلما تحركت هي، في شكلٍ يبدو على بُعدٍ وكأنه

القرد الكبير بذنبه المتدلي، وألوانهم جميعاً فاحمة برّاقة. والناس يَختلطون هكذا في غير حياءٍ، كأنهم البَهْم على فِطرتهم الأولى، على أن النساء هناك مُجَدَّات، خصوصاً في إتقان السُّلال والخصوص والأصباغ التي يَتَّخِذونها من قشور الشجر وعُصاراته، وهن مهرة في القتال كالرجال تماماً. وغالبُ أهل بحر الجبل من الدنقة والشلوك، فالدنقة يسيرون عرايا إلا إذا زاروا منطقة أخرى، حين يَحْمِلُونَ خُرْقَةً مهفهفة، والمتزوجات يلبسن جِلْدَيْنِ لِمُعَرَّى؛ واحد من أمام، والآخر من خلاف، وهذان يُقَدِّمهما لها الزوج عند الزفاف. أما التزيُّن بالخرز والودع فلجميع نساءً ورجالاً، وكَبُرَ العقود للرجال دليلٌ على جاههم وثروتهم، وشُبَّانهم يُكثِّرون من لبس الخرز فوق رءوسهم بعد حَلَقِ شعورها، إلا الناصية التي يُكَوِّرُ شعرها في أشكالٍ مختلِفة، وهم كجيرانهم الشلوك يَدَهْنُونَ الشعر بمخلوطٍ من بول البقر والروث ومسحوق الثرى الأحمر، ويزيدون قذارَةً عن الشلوك في دهن الجسد كله بهذا المخلوط الذي يصعد من الروائح الكريهة ما تُعافه النفوس، خصوصاً عقب استعماله مباشرةً.

والرقص لديهم أقل جلالاً وأُبْهَةً من رقص جيرانهم الشلوك، وعلامة الجداد عندهم أن يلبس الرجال والنساء حزاماً رقيقاً من حبلٍ من مجدول العُشب حول الخَصِر، وأسلحتهم الحِرَابُ القصيرة والصوالج والتروس، وغالبها من جلودٍ خشنة. وأعجبُ عاداتهم ما اختصَّ بالزواج والميلاد والموت، فقبل ميلاد الطفل تُحَجِّزُ الحامل وحدها في كوخ، ويحوطها من الخارج حبلٌ يدل على وجوب عُزلتها، وكل مَنْ تخطَّى ذاك الحبل السحري يُصَبِّحُ مسئولاً عما يُصيب المرأة والطفل من مرضٍ أو أذى. وثروة الرجل تُقاس بقطعانه وعدد بناته اللاتي بلُغْنَ الحُلم، ويَغْلِبُ أن يكون ذلك في سنِّ الخامسة عشرة؛ لأنهنَّ يُمَهَّرْنَ عند الزواج بين ثلاثين بقرة وأربعين، على حَسَبِ جمالهن، ولَمَّا كانت المرأة عُرضة للبيع فهي لا تَرث. وهم يُخالفون الشلوك في مراسيم الزواج؛ إذ بعد أن يدفع الزوجُ جزءاً من المهر يُخَوِّلُ له الاختلاط مع الفتاة، ولا يَدْفَعُ الباقي إلا بعد ميلاد أول طفل حين يحل دفع باقي المهر. وللرجل أن يُطَلِّقَ زوجته العقيم، فإذا ثبت صدقُ قوله ردَّ له أبوها ما دفع، وللفتاة أن تتزوَّج من غيره، فإن طَلَّقها للسبب عينه وتزوجها ثالثٌ فلا مهر لها، فإن حملت في هذه المرة كان الأطفالُ لها لا للأب، ولها حقُّ بيعهم. وفي قوانينهم أن الزوج المُسنَّ الذي يعجز عن إتيان النساء له حقٌّ في أن يُزوَّج ابنه من زوجته، فإن لم يفعل طلبت هي الطلاق، والرجل لا يرغب في الطلاق مخافة أن يَضِيعَ عليه ما دفع مهرًا من الأبقار؛ وعلى ذلك فالبقر لديهم أهمُّ من النساء؛ لأنه معيار التبادل وهم يُقَدِّسونه، فيظل الرجال في حراسة

الزراعي. وهم يُغْنُون للبقر أو يَرَقْصُونَ أمامه لكيلا تمرض الأبقار أو يَقِلْ نسلها. والنيام نيام من قبائل بحر الغزال، ولا ندري من أين جاء هذا الاسم؛ إذ إن غالب القبائل هناك يحملون لقب «زاندي»، وهم قِصار القامات لا يَزِيدُونَ على خمس أقدام إلا نادرًا؛ وذلك بسبب قِصَر سيقانهم، وهم يُزَيَّنُونَ بالتجريح، ويتعهَّدُونَ شعورهم طويلاً نساءً ورجالاً، ولا يلبس نساؤهم شيئاً، بل يُدَلُّون حُرْمة من عُشْبٍ على العورات، أما الرجال فيلبسون إزاراً من جلد. وهم أذكى من القبائل الأخرى وأمِلُّ إلى المرح، وهم يدفعون مهوور زوجاتهم بالجراب لا بالبقر، ومتوسِّطه عِشرون حربة، ونساؤهم أمِلُّ نساء السود للنكاح، وكثيراً ما تطلب المرأة إلى رجلٍ غير زوجها أن يأتِيها، ويعلم الزوجُ عنها ذلك، وهي تحتجُّ لديه بأنه أقدرُ منه على هذا العمل. وكثيراً ما يأتي الأخ أخته أو يتزوج الأب بنته، والعفاف عندهم والبركة لا قيمة لهما.



جميلات من قبائل نوبة في نيل ألبرت.

وغالب السود من الوثنيين الهمج كذلك. وللفتاة عدة أصحاب قد يزورونها في مقصورتها، والفتيات تُخصَّص لهن مقصورة في كل بيت، ويختلي الواحدُ بها ويراه الأبوان، ولا ضير في ذلك. والشهوة عند السود قوية جداً، ويزيدونها قوةً بعادة التدليك الذي يقوم به الخدم للزوجة والزوج كل ليلة، وبعد تعهُّد كلِّ عضلات الجسد بالادھنة المختلفة تقوم المرأة وتُشعل النار وتطلق البُخور، مما يثير الميول الجنسية. ولا تزال أمم النيام نيام تُتَّهم بأنها من الأمم الذئبية آكلة لحوم البشر، وكان زعيم قبيلة «مانجبيتو» في أقصى الغرب على حدود الكونغو كلما أعوزَه اللحم، قصَّد مع رھط من أخصائه كوخ بعض زوجاته، وعددُهن

ألفان، وهناك يقتل من الناس من لاقاهم زائرين ويأكلهم. وهذا الزعيم مات قريباً، وابنه الحالي «أوكوندو» له ١٧٦ زوجة فقط.

ومما يُعانيه شباب الشلوك: الاختبار الذي يجوزونه كي يُحرزوا لقب المقاتلة في سن الخامسة عشرة، فتصحب كل واحد منهم خليلته، ويذهب الجميع إلى ضفة النهر، وتُمسك كل خلية برأس صاحبها وتُميلها نحو النهر، وتأخذ في تشجيعه على أن يحتمل ما سيحل به من ألم. وسرعان ما يجيء طبيب ويشق جبهة الغلام بمُدَّة حادة، فلا يجرو واحد أن يتأوه وإلا كان خزيًا كبيراً، وبعد ذلك تغسل الفتاة الدم في النهر وتنتهي الحفلة. أما زينتهم فمفقود من خرز ملون تلبس صفوفًا بعضها فوق بعض، وقد تغطي الرقبة كلها وقسمًا من الصدر، وهي دليل الغنى والجاه، ويلبسها الرجال أيضًا. واللون الأزرق عندهم بشيرٌ بال حظ السعيد؛ لذلك يلبسه الأطفال، وكلما كثر الخرز دل على جاه الأبوين. وبعض الشبان يلبسون سوارًا في الساعد والعقب، وهذا يدل على أنهم قتلوا من الحيوان أسدًا أو فهدًا أو فيلاً. والطبخ والزراعة وعمل الخزف والمريسة وحمل المياه من عمل النساء، أما الرجال فلا يصح لهم أن يقوموا بهذه الأعمال المهينة إلا إذا طعنوا في السن. ولعمل المريسة يُوضع بعض الذرة في سلة مع مزيج من روث البقر والثرى، وكلها تُوضع في ماء راكد لمدة أسبوع حتى تتخمر، ثم تُنقل إلى جرة من فخار وتُغلى في الماء، ويُؤخذ السائل العلوي ويُبرد ثم يُشرب، وكلما نُضبت أُضيف الماء إليها وأُعيد غليها، وهكذا، وهذا الخمر قويٌّ مُسكر، وتكثر حفلات الرقص بعد شرب المريسة في الليالي القمرية، خصوصًا ليلة البدر، وكلهم يرقصون والحجاب في أيديهم وقد لعبت الخمر بلبهم، ويقرع القوم طبولهم المزعجة وسط القرية التي تتجمع بيوتها في شكل دائرة تتوسطها رُدْهة فسيحة، والطبول تُقرع من وسطها في باكورة الصباح؛ إعلانًا للناس بأن حفلة الرقص ستقام الليلة، وكلما اختلقت قرعات الطبول اختلفت حركات الرقص ودلّت على الغرض منه؛ أهو للمطر، أو الحرب، أو الدين، أو الفتيات، أو الموت. ورقصة الفتيات تبدأ بعد بزوغ القمر مباشرة، والغرض منها تعارف الفتيان بالفتيات؛ إذ ترى الفتيان قبل الغروب مَرحين انتظارًا لملاقاة فتياتهم، ويصرفون زُهاء الساعة في تعهد شعورهم ولبس جلود القطط والأنمار، والتحلي بصنوف لا تُحصى من الخرز والودع وما إليها. وقبيل الغروب تَعد الجماهير شُبَّانًا وشيبيًا، وتُصف جِرار المريسة بحجومها الكبيرة وسط الدائرة، وإلى جانبها أطباق من الذرة واللحم نصف المطبوخ، فإذا بزغ النور بدا المُسنون من النساء والرجال في دائرة، ومن داخلها جماهير الشباب من الجنسين، ويظلون مَرحين يتحدثون حتى يُقبل الزعيم، ومن خلفه

أتباعه يَحْمِلُونَ الطبول وأدوات الموسيقى، فيُنصِت الجميع، ويتداخل الفتيان والفتيات في صفين، ثم تُعزَف الموسيقى والطبول، وبين آنٍ وآخر يُرْتَلُّ الكلُّ أغنية، وما تكاد تنتهي حتى يعلو قرعُ الطبل وتموج صفوفهم، وبأيديهم الجراب التي تتلأل في ضوء القمر، ثم يُسرِع أحدهم إلى الوسط مُخترِقًا صفوف الشابات والشبان، وهناك يتمايل ويُهَاجِم كأنه يُصارِع وحشًا، ثم يُعاد الغناء ثانيةً، وبعد ساعة على تلك الحال يَشْرَب الكل المريسة، ويبدو صفٌّ آخر من الراقصين بعد انسحاب الأول، الذي يظل عاكفًا على جِرار المريسة يرتشف منها ما يشاء، وأخيرًا يختلط الكل في الرقص تاركين الجراب، ويتقدم كلُّ شاب في صف الشبان إلى فتاة في صف الفتيات، وتُرفَع السواعد بمحاذاة الأكتاف، ويقفز كل زوج قفزاتٍ منظَّمة، لكن دون أن يلمس الفتى خليلته. والفتيات يُظهرن دلالهن ويحاولن أسرَ الرجال واستِمالتهم بما يفوق ما تأتيه المرأة الغربية؛ فهي مثلًا تُبرز ثدييها بين آنٍ وآخر، ثم تُرفَع عنهما قطعة القماش المهفهفة ثم تُعيدها، وكثيرًا ما تفعل ذلك أمام القاضي في المحاكم فتؤثِّر فيه. وما يكاد الليل ينتصف حتى تكون المريسة قد أخذت بلُبهم، فيختلط الحابل بالنابل، وبمجرد انسحاب الزعماء والمتقدمين في السن يأتي الشبان والشابات بما لا يتصوره العقل، بل وبما يَسْتَنكره الخُلُق الفاضل القويم.



عرايا نيل ألبرت يصيدون السمك بالجراب.

ولا تتزوج الفتاة قبل الخامسة عشرة، وبفضل رقصة الفتيات يُمكنها أن تتعرف بالكثير من الفتيان. والزوجة يمكن شراؤها بالقطعان، وللرجل شراء ما استطاع من



في غابة شامي وسط بعض العاريات.

الزوجات؛ لأن ذلك دليل الجاه والغنى، وقبل أن تتم صفقة الشراء هذه يجب أن تُوافق الفتاة على هذا الزوج، وفي العادة تكون قد رغبت فيه إبّان حفلات الرقص، وهي تحب أن يكون غنياً بقطعانه ومزارعه، والعجيب أن الفتاة تؤثر الزوج الذي يستطيع بماله أن يشتري زوجات كثيرات غيرها.

وقبل إتمام الزواج تُقدّم الهدايا (الشبكة)، كعُشر من المعزى، وسلاسل من الحراب، وعشرين خطافاً للصيد (صنّارة) وما إليها، وخلال تلك الفترة يبدأ التعارف بينهما، وذلك شبيه بنظام الغربيين، ففي حفلة الرقص يقود الأخ أخته إلى حلقة الرقص والخجل يبدو على وجهها، وهناك يسألها زعيم القبيلة أن تعترف بجميع علاقات الحب مع فتّيان آخرين من قبل — وهي تخشى ألا تقول الصدق؛ لأن الأخبار كلها تصل الزعيم أولاً بأول — وبعد تلك المداولات بين الزعماء والعروس تُقرع الطبول فيُنصّت الجميع، وهنا تُكرّر الفتاة ذكر أسماء الفتّيان الذين أحبوها من قبل، فيحضر كل واحد منهم إلى وسط الدائرة، ويحكم عليه بغرامة من الماشية والأغنام، ومتى جُمعت تلك القطعان قُدّمت كلها مهراً للزوج، أما الفتاة فلا عقاب عليها متى صدقت في الاعتراف ومتى أقرّ الزعماء ذلك، ولا عار على الفريقيّن من ذلك؛ فالاعتراف من جانب الفتاة والغرامة من جانب الفتى عقاب كافٍ وترضية حسنة. والظاهر أن هذا التصرف لا يرمي إلى منع الفساد الخلقي ما يرمي إلى تزويد الزوجين بالمال، والمتفرجين بالطعام والشراب والرقص.



على نيل ألبرت في رينو كامب.

وعند ميلاد غلام تُقدَّم الهدايا للأب من قطعانٍ يَرَبو عددها بالتوالد، حتى إذا ما أضحى الطفل رجلاً قُدِّمَتْ له بعد أن يَجُوز «حفلة الرجال». وإذا مات أحدهم دُفِنَتْ الجثة أمام الكوخ الذي يَقْطُنُهُ، ويُفُفُ الجسم في أفخر ما كان لديه من ثياب إن وُجِدَتْ، وإلى جانبها الأسلحة وأدوات الطبخ وكل ما يلزم للحياة الأخرى، ما عدا أدوات الزينة. والجسم يُمدَّد في القبر على ظهره وتُوضَع تحت الرأس وسادة من خشب للرجال، ومن قش للنساء والأطفال. وإذا مات الزعيم دُفِنَ داخل باب كوخه وأُغْلِقَ سنة كاملة بعدها يُهدَم، وعند دفن الميت تُقام حفلة «رقص الموتى»، فيجتمع الأهل وقد لَطَّخُوا جُسُومهم برمادٍ من حرق روث البقر، ويولول الجميع وَفُقْ قرعات الطبول البطيئة، ويمثل الراقصون ما يدل على شجاعة المتوفى وفضله، ويُقدَّم الناس لأهله الطعام والشراب، وتُستهلك مقاديرٌ عظيمة من المريسة، وقبل شروق اليوم التالي يُنسى الحزن بتاتاً.

وفي رقصة الحرب يمثلون موقعة يُؤخَذ فيها النساء والأطفال والماشية أسرى، وهذه الرقصة تُقام في أي وقت من النهار بمجرد سماع القوم لقرع الطبول نداءً لها، فيتزَّين كلُّ بما لديه من أدوات البسالة من ريش وجلود وجراب وما إليها.

ويتقدم المقاتلون ذهاباً وجيئةً، ويضربون الأرض بأرجلهم وحراهم التي كثيراً ما تنثني أو تنكسر، ثم يُهاجمون الأكواخ التي فيها أسراهم، ويسوقونهم فيها بشراسة زائدة وسط تهليل يصمُّ الأذان مُسرِّعين نحو الزعيم، والدماء تسيل من الجروح التي تُخدش بها

في أفريقيا

وجوهم وجسومهم، ثم يتقدّم الطبيب بعدُ فيضمّدها بعصير بعض الأعشاب. وإذا مات الملك تزوج صغارُ زوجاته من بعض أقربائه، أما الطاعنات في السن فيُصبحن خفَرَ المعابد. وبنات الزعماء هُنَّ بنات الإله نيكوانج، وعند زواجهن تُقدّم الضحايا لزوجة نيكوانج الكامنة في بطن التمساح، فيؤخذُ عنزٌ ويذبح على حافة نهر، وعجيب أن تَفدَ التماسيح لأكل الدم، أما اللحم فيُرسل لحارسات المعابد.



على ضفاف النيل الأعلى في رينو كامب.

وفي جبال كوردفان قبائل دار النوبة، كل قبيلة منهم تحل رُبوة، تتكلم لهجة لا يفهمها جيرانها من الرُّبى الأخرى. وغالبهم وثنيون، ومن عاداتهم أن الطفل بعد ميلاده يجتمع أهله فوق رأسه، ثم يعطيه القسُّ اسمًا يُكرِّره أهله، ثم يحمله الرجل إلى بيت العفاريت، ويبصق عليه لتحل فيه بركته. والنوبي يتزوج أيَّ عدد شاء من الزوجات ما دام قادرًا على دفع المهر، وهو بين عشر بقرات أو أربع عشرة، وإذا دفع ربع المهر خُوِّلَ له أن يُخالط الزوجة، لكن في بيت أبيها حتى تلد طفلًا، ولا يأخذها إلى بيته إلا بعد دفع الربع الثاني، وإذا بلغ الأطفال سنًا مُعيَّنة وجب تسديدُ كل المهر. ويغلب أن يُدفع هذا مما يتسلّمه الأب مهرًا لبناته، وإن لم يخلف من الإناث وجب على الأولاد أن يشتغلوا حتى يُسدّدوا باقيَ مهر أبيهم. وإذا ماتت الزوجة ولم تعقب طفلًا طالب زوجها بنصف المهر. والعادة ألا يُقارب زوجته إلا بعد ميلاد الذكر بنحو اثني عشر أسبوعًا، وبعد ميلاد الأنثى بنحو ثمانية أسابيع. وإذا مات أحدهم ولول النساء وبقيت الجثة يومًا كاملاً قبل الدفن؛

لاعتقادهم أن الروح ترفرف فوقها — وتلك عادة مصرية قديمة — قبل أن تصعد إلى السماء «توالا»، وتُدْفَن الجثة نائمة على جانبها أو واقفة. ولللرقص حفلات تقام حول بيت الملك فوق جبل «جلود»، حيث يجتمع بين مائتَيْن وثلاثمائة يُحْلَوْنَ بالريش والخرز والأساور من العاج، ويدهنون أجسادهم باللون الأبيض ليمثلوا حيوانات خاصة، كان يُبَقَّع الجسد لِيحْكِيَ الفهد، ويُمسكون بعض العصي الملونة، ثم تُدَق الطبول والموسيقى المملَّة السادجة، فيهجم صف من الشبان ويرمي كلُّ حربته أبعد ما يمكنه، ويفوز بالإعجاب أقدرهم في ذلك، ثم يُقدَّم صغار الفتيات عرايا إلا في مجموعة عقود تستر العورة، ويرقصن وفق أنغام الموسيقى، والكل يهللون عاليًا، ثم يتلو هذا سُكون يشربون خلاله المريسة، وأخيرًا يختلط الشبان والفتيات في الرقص، ويحاول كلُّ اجتذاب خليلته، ويستريحون حتى يُشْرِق القمر، فتصعد فتاةٌ على رُبوة وتُغني للقمر. ومن عجيب ما يُرى جمعٌ من الفتیان يضرَبون أجسادهم بالسياط حتى تَدْمَى، لكي يُظهِروا شجاعتهن أمام الغانيات.

وعند كثير من قبائل السودان تُحمى بكاراة البنات من العبث بأن يُخاط الفرج وهي طفلة، وعند الزواج تُقدَّم الزوجة أولَ هدية للزوج من سكين لِيَفْض الرجلُ بها بكارتها! وقد استنكرت الحكومة هذا العمل مرارًا وحاولت منعه، لكن احتجاج الناس بانصرافهم عن الزواج اضطرَّ الحكومة أن تتساهل في ذلك بعض الشيء.



نساء كردفان يسحقن الذرة.

وفي داكار عاصمة سنغال سِرنا نَجوب مُخْتَلِف الأُرجاء، والأهلون من حولنا تَغْصُّ بهم الطرقات في ألوانهم الفاحمة وقاماتهم الشامخة وأجسامهم الممتلئة، يَسْتَرعي النظر

منها الزُّيُّ الفُضفاض من القماش المهفّف عديد اللون فاقعه، وجُلّه من نسيج القطن الرقيق يَحكي العباءات المنتفخة للرجال والنساء معاً، ويُسَقّ من جانبه. ولعلّ أجمل ما يروق السائِح رءوس السيدات التي نُسَقّ الشعر من فوقها في أشكال هندسية مقوّسة ومكورة، تزينها الحلقات والدودع وما إليها، والمتزوجات يَضَعْنَ فوق كل ذلك عارضة تَبْدُو من جانبها كورّ منتفخة سوداء من جديلّ أسود، كأنه فروُّ الخِراف، ويُلَفُّ الرأس فوق ذلك بعصابة من منديلّ خفيف ملون. وأجساد السيدات أَمِيلُ إلى السَّمَنِ، يَتَهَادَيْن في مَشِيَتِهِنَّ ويُبْدَيْن من دلالهن ما يجتذبن به أنظار المارة، وهن باسمات لا يَنفِرْنَ من الناس، بل على استعداد للتحدّث مع من شاء. ويلبس الناس هناك الخِفاف في أقدامهم، على أن كثيراً منهم يَسِيرُونَ حُفاة. وكَم كان يروقنا منظر القوم يفتشون الأرض وفي أفواههم أَعْوَادُ من شجر السّواك يحملونه جميعاً نساءً ورجالاً، فأنت ترى الفرد منهم يَسِير وقد أمسك بأسنانه عصاً صغيرة، حسبَتْها لأول وهلة لُفاة تبغ دقيقةً، لكنك تراهم يَمَضُّغُونَ أطرافها وَيَنْظَفُونَ بها أسنانهم طوال الوقت، حتى ساعة الكلام، إذ ترى الواحد منهم يتحدث إليك وهو يَحْرَكُها في فمه ويَقْرِض من طرفها. وقد مرّرنا في المساء بقوم يدقُّون طبولاً من صفائح عدة ويُغَنُونَ ويُصَفِّقُونَ، ويقف بين الجميع اثنان أو ثلاثة يرقصون ويَضْرِبُونَ الأرض بأرجلهم ضربات فنية، وهذه ما يُسميها الإفرنج Tam Tam، وهي شبه الدلوكة عند السودانيين.

وفي غينا الفرنسية يُجيدون العربية ويَحفظون القرآن، وقد لاحظتُ على السحن هناك تَغْيِراً واضحاً؛ فهم أَكثَرُ جمالاً وأخفُّ سواداً من أهل السنغال، وكثيرٌ منهم في لون «برابرة» أُسْوَان عندنا، على أنهم أَرَقُّ حالاً وأقلّ تنسيقاً في الهنّام، ومغالاةً في التزيّن، وجلهم يمشي عاريَ الرجلين حاسِرَ الأكتاف والصدر، وحتى النساء يتدَثَّرْنَ من أسفل الثديين، ونرى أئداءهن بارزة تسترعي النظر، خصوصاً وأنهن كَلِّفات بهزّ أجسادهن مع الابتسام، في شيء كبير من الدلال، على أنهم يُحْجَمُونَ عن التصوير ويَرَوْنَ فيه عيباً كبيراً، وهم بُسْطاء يُحْبَوْنَ المرح واللهو أينما وُجِد؛ ولذلك تُسَهَّلُ لهم فرنسا سُبُلَهُ، وتنشر بينهم فتياتها الماجنات كي تنال من عصبِيَّتِهِنَّ. وقد لاحظتُ كثيراً من الزنجيات يرقصن نصف عاريات أمام بيوتهن، ويَهْزَن أعطافهن ويمسكن بأثدائهن في إباحة مُنْفَرَة. وملابس السيدات المسلمات في ساحل العاج من الأقمشة القطنية الخفيفة المزركشة، في ألوان ورسوم معقّدة. والمؤمنون هناك يُعَنُونَ بالشعائر الإسلامية، خصوصاً في شهر رمضان، وقد علمتُ أنهم يُكثِرُونَ من

الصلوات جماعات في الردهات المتسعة، ويكثر الوُعَاطُ القول لهم كلَّ يوم وهم يرقصون رقصة دينية على قرع الطبول التي يُسمونها تام تام، ويذكرون الله وفق ضرباتها.

إلى نيجيريا

أخيرًا بدت مدينة لاجوس كبيرةً عظيمةً الامتداد، طُرُقها مُعبَّدة، وأبنيتها نظيفة، وشاطئها جميل، وناهيك بأسواقها التي تغطُّ بالأهلين من قبائل «ياروبا» في الغالب، وزُهاء نصفهم من المسلمين والباقيون بين وثنيين ومسيحيين، وسحتنتهم مُنفرة في الغالب، ورغم ذلك فإن نسبة العفاف عندهم محدودة جدًّا، فالفتاة مثلًا تُصادق مَنْ تشاء ما دامت بكرًا، ولا يرغب الشاب في زواجها إلا إذا حملت سِفاحًا، وعندئذٍ يتَّقون في أن الراغبين فيها كانوا كثيرين. والتقبيل غير معروف لديهم والنساء ينفرن منه. ويتزوج الرجل من عدد كبير من النساء قد يفوق العشر، يُؤثر عليهن واحدة تُعدُّ رئيستهن، يحترمنها ويركعن أمامها، ولا تغار الواحدة من الأخرى لأنها ألفت تعدُّ الضرائر في بيت أبيها من قبل. وهن يتَّخذن من الصور الفوتوغرافية تائم، فإذا وُضعت عند مدخل حجرة النوم وخطت عليها الزوجة الخائنة لزوجها، مات عشيقها على الفور. ومن خرافاتهم أن الرجل إذا ناداه عدوه فردَّ عليه مات عاجلاً.

وعند موت أحدهم تبقى الجثة يومين، ثم يخلع الأقرباء عليها أحسن الملابس، ويُعلن الناعي أهل البلدة وبيده دجاجة، ويهرب النسوة من رؤية الجنازة؛ لأن في ذلك شؤماً عليهن، وإن كان الميت مُصابًا بمرض وباء حذر المنادي الناس أن يخرجوا خشيةً أن يُصيبهم سوء، وتُدفن الجثة في غير تجمهر، وتعود الروح ليلة الأربعاء إلى البيت، وعندئذٍ يجتمع الزوجات وقربياتهن، ويأخذن في الغناء والتصفيق حول مصباح حتى تصيح إحداهن قائلة: ها هو آتٍ، ثم يُقلد رجل حركات الفقيد وخطواته ويرتدي ملابسه ويَزور حبرات الدار جميعًا، والنساء يسجدن على الأرض كي يُباركهن الفقيد! وكان الدفن أولاً تحت سقف الدار نفسها، ثم حُرِّم ذلك اليوم.

وللياروبا في الاستدانة نظام عجيب يسمونه أيوفا Iwofa، بمقتضاه يخدم المدين دائنه نصف اليوم حتى يسدَّ دينه، وقد يظل البعض فوق عشر سنين يؤدُّون تلك الخدمة سدًّا لفوائدٍ مبلغ بسيط قد لا يزيد على عشرة جنيهات. وقد يكون أولئك الخدم من الفتيات، وعندئذٍ لا يرغب ذووهم في تحريرهن من ذاك الأسر، ويلبثن هكذا حتى تحين سنُّ زواجهن، وعندئذٍ لا بد أن يدفع الزوج الدَّين بدل المهر؛ لكي يتسلم خطيبته.

وعاداتهم في التحية تَلِفَت النظر؛ إذ ترى الواحد أو السيدة تَرَكع نصف ركعة مرتين أو ثلاثاً وهي تُتَمِّمُ أمام مَنْ تُحِيَّيه، وقد تكون مُثَقَّلَةً بطفلٍ أو اثْنَيْنِ أحدهما يُعَلِّقُ وراء ظهرها والآخر بين يديها، والغالب أن تَلَفَ الطفل وراءها، بحيث لا تَرى إلا رأساً ذات عَيْنَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ وكأنه القرد الصغير، وتضع المتاع فوق رأسها وتترك يديها طليقتَيْنِ، وهي التي تقوم بالعمل كُلِّه والرجل عاطلٌ كسول. وما أجملَ أن ترى السيدة أو الغادة تسير وقد كَسَت وجهها بالأدهنة البيضاء (البدرة) في غير إتقان، فيبدو وجهها جريئاً مرقعاً مُضحكاً، وذلك لكي تبدو بيضاء جميلة! وقد كثرت بينهن المتفرنجات من المسيحيات، وهؤلاء يلبسن الأردية الإفرنجية، على أنهن يسرن حُفَاة، وحتى طلبة المدارس وطالباتها يسرون في الحُلل البيضاء النظيفة، ولكنهم يتركون الأقدام عارية.

وقد رَكِبَتِ القطارَ معي عائلة من الياروبا، وجلس النساء إلى جوارى بشكلهن المنقَر، رغم ما كُنَّ يتزيَّن به من البُدرة البيضاء والأقراط والشعر المجدول، ولهنَّ في جَدَلِه طرائقُ جذابة تَلِفَت النظر؛ فواحدةٌ منهن كانت تجدل الشعر في عصي قائمة كأنها المسامير الكبيرة منثورة في الرأس كله، والآخرى تَجَدله في أَقْنِيَةٍ متوازية من مؤخَّر الرأس إلى مقدِّمها، ومعهن أطفالٌ كثيرون وشابٌ مثقَّفٌ يُجيد الإنجليزية، وقد ابتاعوا من المحاطِّ لفائف من ورق الموز، في بعضها أرز معجون، وفي الأخرى معجون الذرة يضعون عليه زيت النخيل الأحمر، ويأكلون بأيديهم في شكلٍ مُنقَر، ولا تفتأ ترى الواحدةً منهن قد خَتَمَت هذا الطعام بثمره الكولا، تقرضها تحت أسنانها، وتظل تمتصُّ عصارتها وتُبدي من حثالتها القذرة فوق شَفَتَيْها، وأخيراً تبصقها إلى الأرض، وهم يعتقدون أنها مُنَشِّطَةٌ لِلْمَعِدَةِ مُنْبِّهَةٌ للأعصاب، حتى إن المُتَعَبَ المُجْهَدَ إذا مضَّعها استعاد نشاطه.

أخذت قبائل الهوسة تَزِيدُ نفراً كلما تقدَّمتنا شمالاً، وبيوتهم أنظف كثيراً من بيوت أهل الجنوب من «الياروبا»، وسَحَنَ الناس بها مَسْحَةً من جمال، وبخاصة العذارى من الغانيات، وهنَّ يلبسن الأردية التي تُغْطِي الجسم من دون الثديين، فيبدو الصدرُ كله عاريًا يسترعي نظر المارة، وخصوصاً إذا ما طَلَبَتِ الغادة وجهها بالبُدرة البيضاء. أما المتزوجات فأرديتهن تغطي الجسم إلى ما فوق الثديين، ولقد عَجِبْتُ لَمَّا أن علمتُ بأن الغيرة على النساء فاترةٌ جداً عند الرجال، ونسبة العفاف قليلة عند غير المتزوجات، فالفتاة يُباح لها أن تُصَادِقَ مَنْ تشاء. وجل الناس هناك يتزوَّجون أكثرَ من واحدة، وللأغنياء أن يتسرَّين فوق الزوجات الشرعيَّات الأربع؛ ولذلك لم نَعَجِبْ لَمَّا عَلِمْنَا من أن البعض له من الذرية زُهَاء الستين بين ذكر وأنثى. ومن أغرب عاداتهم أن المولود البكر يُهْمَلُ أمره ولا تُعْنَى الأم به، وإذا كبر



فتيات كردفان من البفارة.

لا يُقَابِلُ أباه ولا أمّه مُطلقاً ولا يجلس معهما على مائدة الطعام، ولقد حُرْتُ في تعليل ذلك، ومن قائل: لأنه وليدُ عهد الجاهلية الأولى يوم كان الأبوان لا همَّ لهما إلا إشباع الشهوة البهيمية؛ لذلك يَنْظُرُ الأبوان إليه بشيءٍ من الازدراء، وكثيرٌ منهن يُرْسِلُنَ بناتهن إلى مدرسة البنات، وبها ٥٤ بنتاً في أربعة فصول، يلبَسُنَ أرديةً زرقاء موحَّدة تصرفها لهن المدرسة، ويَجْلِسُنَ على مقاعدٍ وطيئة (مثل كراسي المطبخ)، وأمامهن المناضدُ القصيرة. وطالبات السنة النهائية يَقُمْنَ بطهي الطعام للغذاء، وهو من الأطعمة القومية البسيطة، ولهن غرفة فسيحة للاستحمام. وقد رأينا كل بنت تحمل فوطتها الخاصة بها وتَقصد هذا الحمام، وتخلع ثيابها مع زميلاتهن، وتستحم مرة كل يوم تحت إشراف المدرّسات الوطنيات، وهن يَغْسِلُنَ ملابسهن وفوطهن في مَغاسِلٍ أُقيمت لهن في الهواء الطلق، والناظرة إنجليزية، والإقبال على المدرسة ضعيف. والجميع يَسِرُنَ حُفاة، ولا تكاد تجد واحدة ممتلئة السُّوق أو مُعتدلتها، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى طُرُق حمل الأمهات لأطفالهن وراء ظهورهن، إذ يُلْفُ الطفل ورجله مفتوحتان يُطَوَّقُ بهما ظهر أمه، وبذلك تَميلُ العظام إلى الخارج ويتعطل نموُّها بسبب ضغط اللِّفافة عليها، فتظل الساق دقيقةً معوجةً.

في أفريقيا

وجل الفلاحين يسيرون شبه عرايا إلا في خِرقة بالية تستر العورة الأمامية، وتنتهي بشريط رفيع يستر الدبر، ويُعلّقون كثيرًا من الأحجبة في الرقاب والأيدي والأرجل، وحتى غطاء العورة الأمامية. وكم كان يهولنا منظرُ بطونهم، وبخاصة الأطفال؛ فهي منتفخة إلى حدٍّ يكاد يَطفى على القامة كلها. والفتيات من العذارى يَسن نصف عرايا بأثدائهن الصغيرة الكاعبة.



غادة من حسان النوير ذوات القوام الشامخ.

ويميل النساء جميعًا هناك إلى المداعبة، وعندئذٍ يُبدین من دلالهن الشيء الكثير، وبخاصة في مواقف الرقص وهو كثيرٌ لديهم. ولقد استوقفنا منظر في إحدى القرى: كانت تُدقّ الطبول المستطيلة وتقوم الفتيات برقصات في دوائر و صفوف، وجلُّ عنايتهن توجّه لحركات الأرجل والضرب بها على الأرض في مهارةٍ عجيبة، وقد يُمسك الشاب بثدي الفتاة وهي ترقص، ولا يعدُّ ذلك عيبًا أو منكرًا. ومن غريب ما علمته أن الختان في تلك البلاد مفروض على الذكور دون الإناث. أخذت السيارات تقطع بنا تلك المسافات الشاسعة، ولا يكاد يغيب عن العين منظرُ النساء يَسن وعلى رءوسهن جرار الفخار أو أواني القرع، والأطفال يُعلّقون وراء ظهورهن، وقد تُمسك الواحدة بأحد توءمَيها في اليدين. وهم يُعدُّون السمنة وضخامة الجسم من أكبر علامات الجمال؛ ذلك لأن المرأة كلما تضخّم جسمها دلّ

ذلك على جَودة التغذية، وعلوَّ بيتتها، وزيادة ثروة زوجها؛ لذلك نجد في بيوت الزعماء والأغنياء أخصاصًا تُحَجَزُ فيها الفتيات وتُضَاعَفُ تغذيتهن، ويُمْنَعْنَ من الحركة والعمل اليدوي؛ كي يَزِيدَ ذلك في امتلائهن، ويغلب أن يُعْمَلَ ذلك قبيل الزواج ببضع سنين.



غادة تعهَّدَتْ وجهها بالتجريح لِيُظْهَرَ مُجْعَدًا؛ إِمْعَانًا في التجميل.

عدتُ إلى السودان وحلَّلتُ إحدى قُرى مديرية كردفان، وكانت أكوأخا تُقام من بوص الذرة المُجْدول في شكل دائري فوقه مخروط مدرج، والكل يقوم من الداخل على شرائح من خشب، وأمام الكوخ ظِلَّة يجلس القوم فيها خلال النهار، ثم كوخ صغير للطبخ، أما الكوخ الرئيسي فللنوم، رأينا فيه «عنجربيا» أو اثنتين، وفي ركنٍ منه الأرجوحة التي يُسْمُونَهَا: الطوطحانية، وهي للأطفال، وأمام كل كوخ كنا نرى الفتيات وأمامهن قطعة كبيرة من الحجر صُقل جزء منها في شكل منحدر، وتُسَمَّى «مرحاكًا»، وأمسكتُ الغادة بصخرة ثقيلة مُستديرة وأخذت تسحق الذرة أو الدخن، وهي تُعَدُّ كل يوم بعضًا منه بقدر ما يحتاجون إليه من طعام. وأساس طعامهم العصيدة، بأن يُطَبَخَ هذا الدقيق بالماء، ثم «يغمسون» به الويكة والسمن أو الزيت، أو ما أُعِدَّ من طبخٍ متواضع، وبين الوجبات يشربون «المريسة» من تخمير مسحوق الذرة أيضًا، يبدو وكأنه «البوظة» الخفيفة أو «السوبية» السمراء في قليلٍ من الحموضة.

